أحمد القرملاوي

أمطار صيفية

رواية

مكتبة الدار العربية للكتاب

الأعمال الكاملة

أمطار صيفية

القرملاوي، أحمد.

أمطار صيفية: رواية/ أحمد القرملاوي. - ط1.-

القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2016.

224 ص؛ 20 سم.

تدمك: 0 - 737 - 293 - 977 - 978

1- القصص العربية

أ- العنوان. 813

رقم الإيداع: 11885 /2016

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: صفر 1438 هـ - نوفمبر 2016م

أمطار صيفية

رواية

أحمد القرملاوي

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى الناشر، فقد منحني كل شيء؛ فكرة النص، فرصة التعرّف على الأحداث ولقاء الشـخصيات، والتمويل اللازم لتفرّغي للكتابة.. بينما منحتـه شـيئًا وحيدًا، هو حـق التداخل فيمـا بين الفصـول. ولم أكتفِ بذلك، بل إني طلبتُ منه أن يجعل ذلك في أضيق الحدود.

لذلك وجب الشكر.

الراوي

مـع بزوغ ضوء الفجـر، كانت النيران قد شـبِعت. ظلّت طوال ليلة صيـف تطهو أخشـابًا مـن غابات شـتّى، وتلتهمهـا على مهـل؛ جوزًا أوكرانيًّا، سَيسَمًا هنديًّا، خشبًا أسود إفريقيًّا، كما أحرقت خلال ساعات مخزون بخور مِسـتكيّ كان يكفي الوكالة لخمسة أعوام كبيسة مُتتالية. تضوّع فـي فضاء الدرب الأحمر مزيج من عبق الأخشـاب الـمُحترقة والبخور الـمُهدَر، حتى اسـتجابت النيران أخيـرًا لإلحاح أيدٍ مُتعرِّقة، وأنقـذت مـن اليـأس أرجـلًا أنهكهـا الركض طـوال الليل، والشـوق للتمدّد فوق أسـرّة مُنتظِرة. ابتلعت النيران ألسنتها تباعًا وفضّت حفلها الراقص، فانسـحبت الشـياطين لمواقعها السـابقة وأفسـحت المجال لعصافير لم يشغلها الحادث الفريد، فأخذت تستنهض بعضها في نفير يومـيّ مُعتاد، فيما عادت عجلات السـيارات تلعق أديم شـارع الأزهر البعيد، حين دنت سـيارة تكريم الموتى من واجهة الوكالة الـمُتهدّمة، بحقيبـة مفتوحـة كفـم تمسـاح. دقائق وكانت قد ابتلعت جسـدًا شـبه مُتفحّم، كان منذ ساعات يخوض معركة أخيرة وصامتة، قبل أن تُحيله النيران لكيس بلاستيكيّ مصهور.

أطبق يوسف بذراعه السليمة على حقيبة السيارة، وتهالك فوق الرصيف المطموس بأنقاض المبنى، وبقايا نوبات الإطفاء؛ كتل أحجار وأتربة، رمال مُبتلّة، مياه آسنة. ثم تابع بذهول سائق السيارة ذا اللحية المُرسَلة، بينما يهُشُّ الناس بعيدًا عن مُقدّمة السيارة ويُخبِرهم بوجهته. لم يكن أحد قد تأكّد بعد من وفاة الرجل المحروق، ولكنهم وجدوا سيارة تكريم الموتى بديلًا وحيدًا يُجمِعون عليه، بعدما فقدوا تباعًا آمالهم في وصول سيارة إسعاف. أما عربة المطافئ، فكانت قد وصلت قبل ساعات عند جامع الأزهر، ولكنها توقّفت عن المزيد من التقدّم أمام عوائق الطريق.

رمق من موقعه بين الأنقاض صفحة السماء، وقد تمدّد أول ضوء فوقها طامسًا وهج النيران. أغمض عينيه المصبوغتين بالسهاد والبكاء، مُحاولًا لملمة أفكاره من شتات الدهشة. فتح عينيه ثانيةً، فألفى غريمه واقفًا قبالته، على وجهه سَكينةٌ وفوق بدنه آثار معركة طاحنة. لم يعبأ بهيئته المُهلهلة، لم يخدعه الظاهر هذه المرة، فانقضّ عليه كأنما استعاد قوته. تلاحما بلا صوت يُذكر، إلا ارتطام جسديهما بالموجودات الصلبة، وأنّة أو اثنتين مجهولة المصدر. انتبه إليهما المتحلّقون حول المشهد، فتوالت عبارات الدهشة والاستنكار. خفَّ شيخان سلفيّان نحو بؤرة العراك، حفيف جلبابيهما يضرب كطبول حرب. نجحا في تفريق الجسدين المضعضعين، وأجلساهما مُتجاوريْن على الرصيف، غارقيْن في الشرود. جلب أحد الملتحين زجاجة مياه باردة من كشك الحراسة الخشبي، وسقاهما حيث جلسا

مُطرِقَين. على الجهة المقابلة، مدّ خادم الجمعية الشرعية يده بخرطوم مياه ملحوم في أكثر من موضع، وراح يرشّ أديم الأرض المشتعل. اقتربت بعد حين سيارة سوداء، فأخفض الخادم الخرطوم مُفسِحًا لها الطريق، وأومأ مُحيِّيًا سائقها. توقفت السيارة، هبط زجاجها الخلفيّ الأسود كاشفًا عن وجه رحمة الموسوم بالدهشة، تأمّلَت بذهول شباك الورشة المحترقة، وقد اكتسى هبابًا أسود كأن الليل لم يغادره، رمقت الجسدين المتهالكين فوق أنقاض الواجهة، هبطت من السيارة بساقين مرتجفتين، وعبرت كأنما تخطو فوق حقل مُلغّم.

أمام رأس يوسف الـمُطأطِئ توقّفت. سألته عما جرى. رفع إليها عينيه المصبوغتين، وقال بصوت ذبيح: «اجلِسي، وستعرفين كل شيء».

1

اللهم انصر عبدك مولانا ومالك رقابنا. . .

ستكون هذه العبارة المنحوتة فوق قوس حجري، عمره سبعمائة عام، أولَ ما يُصافِح عينيكَ إذ تدلف إلى الوكالة الأثرية؛ وكالة الموصليّ، بعد أن تضبط هاتفكَ المحمول على الوضعية الصامتة بالطبع، وتعبُر بوابتها الخشبية الهائلة، مُتخطيًا عتبتها الجرانيتية ذات النقوش الفرعونية. قد تتساءل مرة أو مرتين عن بقيةٍ للعبارة؛ اسم يُتمّم معناها ويُشير لمقصودها، ولكنكَ في المرة الثالثة على الأكثر، ستكون قد قنعتَ بإتمامها كما يُردّدها الجميع، أعني جميع المُنتسبين إلى المبنى الأثري، فتقرؤها كما يقرؤونها: اللهم انصر عبدك مولانا ومالك رقابنا، شيخنا عبادة الموصليّ.

ستدرك يقينًا أنها نُقشت هكذا قبل أن تطمس ملامحَها أزاميلُ الزمن، فبغير هذا الشيخ الجليل الذي ينسبونها لاسمه، ما كانت الوكالة قد تحولت من ساحةٍ للتجارة والمساومة، إلى بقعة طاهرة يُذكر فيها اسم الله، فقد ألبس الشيخ حجارتَها ثوب الذِّكر والصلاة، وخلَّصها من ضجيج البيع وجلبة المُساومة، حتى إنه كان يطوف بالأعواد عبر المسالك والحارات رافضًا بيعها بداخل الوكالة. أما اليوم، فستجدها

تعُـجّ بالنشـاط والأصوات؛ جلبـة عُمّال، صرير تحريك كراسـيّ فوق سطح الأرض الحجرية، صلصلة دقّ مسامير طويلة في ألواح خشبية، لتثبيـت قاعـدة مُرتفعـة على هيئة مسـرح بدائيّ. . بينما تسـود الخلفية أذكارُ المريدين، حين تسمو جملة لحنية من عودٍ يتوسّط حلقة الذِّكر، تتماوج كآهات التواشـيح، فتجاوبها طنطنـة جماعية من دائرة الأعواد المتحلِّقة في الأطراف، وتتمايل معها أجساد الذاكرين طلبًا للوجد.

سـتجد أيضًا صعوبة نسبية في استخلاص رائحة البخور المستكيّ المُعتـادة، فالأجواء الآن تسـودها أبخرة البشـر المُتزاحمين، ونسـائم عصـر يونيـو النشـيطة. اليوم يـومُ عمـل دؤوب؛ يـوم تنصيـب مُوجِّه جديـد للطريقة الموصليّة التي أنشـأها الشـيخ عبادة، فعبَـرت الأزمنة فوق كواهل مُوجِّهيها المُخلصين حتى وصلت ذاكر رسـلان؛ الوريث الأخير للشـيخ الموصليّ، أو الأستاذ، كما يُسـمّيه الطلبة والمُريدون. وها هو يسـلِّمها اليوم لوريثٍ جديد. . سـتجد الشيخ ذاكر واقفًا بنفسه يتوسّـط صحن الوكالة، وقد شمَّر عن ساعدين مديدين قويّين، رغم ما يتعلّق بهما من زغب أبيض، يدفع العُمّال هنا وهناك ويُتابع التجهيزات بعينين لامعتين، لا تكترثان لما تجاسر عليهما من تجاعيد، فيما تُلاحقه ابنته رحمـة، الرهيفة الحالمة، ذات القوام المُرهف والبسـمة الأبدية، وتجِـدُّ فـي ضيافة العُمّال كمـا في متابعة أبيها، تدعو لـه بالصحة تارة، وتـارة تدعوه للراحة، تقول بصوتهـا الخافت كخرير ماء: «بابا، ظهركَ سـيؤلمك!»، خوفًا عليه من ألم الغضروف، فيشملها بابتسامة عطوف ويقول: «هانت».

بعد قليل، ستجد المسرح بسيط الهيئة قد اكتمل في صدر الصحن المفتوح، تحت مِظلة بنفسجية من السماوات السبع، تُثابر في نسيجها نجـومٌ وليـدة أعلنـت حضورهـا قبل بـدء العـرض، فيمـا ارتصّت في مواجهة المسرح كراسـي الفِراشة، في صفوف أكثر تنظيمًا من النجوم المُبعثـرة، وشـبَّت من حولهـا أعمدة حجريـة مُتكرِّرة ترقب المشـهد من أعلاه. قليلًا بقليل، سـتمتلئ الكراسـي بالأجساد؛ أكثرها لمُريدي الطريقـة على امتـداد عقودها الماضية، والبعض مـن مُتابعي عروضها الموسيقية ذات الروحانية الآسرة. لحقت بهم زينة ديناري؛ الموسيقية المولعـة بأجـواء الوكالـة، وهي ابنة لأب مصـري وأم ألمانيـة بولندية الأصـل. جلسـت في الصـف الأخير بجـوار رحمـة رسـلان وتبادلتا حديثًا هامسًـا؛ تسـاءلت زينة عن أهمية الليلة، ولماذا يولي السيد ذاكر كل اهتمامـه لهـذا العـرض بالتحديـد، لدرجـة اعتذاره عن اسـتقبالها أربع مرات على امتداد اليوم! فهمت منها أن العرض فقرةٌ أساسـية في حفل تنصيب، حيث سـيُنصَّب الليلة مُوجّـهٌ جديد للطريقة الموصلية، سـيخلُف الشـيخ ذاكر في التوجيه وفي التدريب، وهو بالمناسـبة أهم عازفٍ عرفته الوكالة من تلامذة الشـيخ؛ يوسـف، هذا اسمه. «تعرفينهُ بالتأكيد. رأيتكِ تُحدِّثينه عدة مرات». أومأت زينة بالإيجاب، وقالت: «نعم بالطبع، قابلته كثيرًا واستمعتُ لعزفه المذهل. أنا ضيفة دائمة هنا كمـا تعرفين». بادلتها ابتسـامة مُتحفِّظة، قبـل أن تصمتا مع اقتراب بدء العرض، فيما كان ذاكر يرمقهما من خلف الصفوف، بنظرة قلِقة تقاوم الإجهاد.

***

سيخطو الزمن خطوة أخرى، فتبدو صفحة السماء كغلالة من تُلٍّ أسود مرصّعة بألماس دقيق متناثر، كما تبدو الأعمدة المتراصّة حول صحن الوكالة كأرجل عرش سماويّ، وقد اصطبغت أقدامها بصفار الإضاءة الأرضية. ستحمل الأعمدة أقواسًا تتكرّر كأمواج الزمن، وتبدو المشربيات المُطلّة بالأعلى كعيون ساهرة. سترتعش النباتات المتسلّقة، وتصمت الكوابيل الخشبية والبئر الجافّة في ترقّب لما سيكون. أمام هذا المشهد المشحون، سيجد يوسف نفسه مدفوعًا نحو منتصف المسرح، حيث قبع كرسي وحيد في انتظاره. خفتت الأصوات مُفسِحةً لطرقات كعبه، فاستجدى ذرات الضوء كي تفترش طريقه. زحفت نحوه همهمة الحاضرين كطنين نحل جائع، واعتصر حذاؤه مؤخرةَ كعبه قبل أن يلمس الكرسي الذائب في العتمة. جلس، وأحكم قبضته حول زند العود، وسحب الريشة من مكمنها.

«يوسف!»

انتبه لمصدر النداء، حاول تمييز وجه رحمة، ولكنه لم يرَ غير هالة شاحبة، في حين سطع الضوء مباشرة فوق كرسيّه، فانسحب في إثره طنين النحل حتى ابتلعته الحناجر. أضاءت حبات العرق فوق جبينه كآيات وحي، وأسبَل عينيه مستدعيًا حكمة الكون، مُستلهمًا ألحان المجرات وأذكار ذرات التراب.

استهلّ العزف باهتزازة وترٍ تنتصب لها أدقُّ شعيرات الجسد، أفلتت من عوده كما تنهيدة تشرع في البوح، ثم راح يتقافز بأنامله فوق الأوتار، باذرًا نغماته في تُربة الكون الرحيب. بعد برهة، صار يغيب مع

النغمات، ينفصل تدريجيًّا عن بقعة الكراسـي المظلمة، وبارتعاشـات متتاليـة كخفقـات أجنحة، أخذ يرتفع فوق سـحابة النغمـات، يُصافح أوراق شجر ظلت تزخرف الأقواس الحجرية لقرون قبل أن تشرع في التمايُل معه. حتى الأحجار العتيقة شـرعت تفيق من سُـباتها، وتُرجِع الأصـداء في وَجد مُتّصل. حفَّت به دوامةُ الهُيام، حمَلهُ جوفها مُخترقًا سـقف المماليك المُرتفع، عابرًا سـماواتٍ كانت بعيـدة، مُناهزًا حجُبًا غيـر مطروقة. مع دنوّه مـن النهاية بلغ الوصل المأمـول، دلف ملكوتًا نورانيًّـا مختومًـا لـم تطأهُ قدمُـه من قبل، ثـم تركه مُحلِّقًا لأسـفل فوق سـلم النغمات. أبطأ الإيقاع بالتدريج قُبيل ثباته الأخير. ساد صمت. . سـرعان ما انشقَّ عن تصفيق قلِق يستدعي تصفيقًا أكثر ثقة، حتى تفجَّر كقنابـل عنقودية. اشـتعلت الأضـواء، نهضت الأجسـاد تباعًا وأطلّت رحمـة كحقيقة ماثلة، بعدما كانت هالة شـاحبة، وقفـت بجوارها زينة بقوامهـا الممشـوق، تُطلِق صيحات ممطوطة وصاخبـة. ألفى الوجوه تُشـرق بابتسـامات جذلة وأعيُن براقة، ولكن التصفيق استمر أكثر مما يحتمـل، فنكّس رأسـه في انحناءةٍ أخيـرة وخطا مُبتعدًا صوب السـلم الحجريّ، المُفضي للدور الأول. .

2

أثنـاء الحفل، وفي قاعة التدريـب النائية عن صخب التصفيق، كان زياد يخطو ببطء راجيًا جدران الغرفة أن تخفِتَ بأصدائها. تمهَّل لبرهة قبـل أن يُنـزِل عود التدريب من مشـجب الحائـط. كان موقنًا أن العود سـيمكث طويلًا في مكانه ذاك، منسيًّا كأثرٍ لم يُكتشف، مُهملًا كفاكهة مُحرّمة. بعد حفل الليلة، سـيتعالى المُوجِّـه الجديد- صديقه المُقرّب يوسـف- علـى اسـتعمال العـود المسـكين، سـيُعامل وتره السـادس المنقـوص كطرف مبتور أو عاهة مُسـتدامة تشـي بالعجز، غدًا سـيأتي بعوده سداسيّ الأوتار، أو ربما عود سباعيّ جديد يُبرِز تميّزه عن سائر العازفين. حسـنًا سـيفعل، فعود التدريب القديم هـذا لا يفقه قيمته إلا العارفون، صنعَهُ الأسـطى عبيـد أيام مجده، وانتقى له أجود أخشـاب السيسـم من بقايا قيثارة ألمانية قديمة؛ أي أن خشـبَه العتيق قد تشـرَّب الموسـيقى غربًا وشـرقًا عبر أزمنة عدّة. هكذا حـال العيدان الأصيلة؛ تبـدو ذابلة الهيئة قليلة الرونق، ولكنها تزداد بهاءً مع الزمن، وتسـتأهل ثمنًـا أعلى من مثيلاتهـا الحديثة. لن يجد زبونه العراقي أفضل من هذا العود مطابقةً لطلبِه، ولا بد ألا يبخس قطعة كهذه حقها.

انتـزع زيـاد العود مـن جرابه الجلـديّ ووضعهُ فوق أقـرب مقعد، ثم انتشـل عودًا زهيدًا حمله معه من جرابه القماشـي، وسـريعًا ألبسـه الجراب الجلديّ القديم، قبل أن يرفعه فوق مشجب الحائط. تحسّس الطريق خروجًا من القاعة شحيحة الضوء، بينما يُغلِّف ثمرته المُحرّمة فـي الجراب القماشـي كيفما اتفـق، وغاص في اتجـاه ضجيج الحفل الآخِذ في الأفول.

الآن، عليـه أن يُرتّب أفـكاره. . لا بد من تهنئة يوسـف قبل مُغادرة الوكالـة، عليـه أيضًـا أن يُهاتِـف زبونه العراقـي قبل تأخّـر الوقت؛ لن يمنحـه فرصـةَ التملُّص مـن لقائه، الطلـب جاهزٌ ولا يمكن اسـتبقاؤه للغد، سـيقول إن صاحب العـود لن يمهلهُ يومًا آخـر، خاصةً وقد ألحّ عليـه مـرارًا لإنجاز الصفقـة، كما أغراه بمبلـغ أقل كثيرًا مما تسـتحقّه تحفـة كهذا العـود. يحتاج لأن يسـتتر بالظـلام كي يُجـري المُكالمة، الضوضـاء تُحاصـره، حتـى فـي هـذا الركـن المُظلـم خلـف العمود الحجريّ. ابتعَد قليلًا عن دائرة الصحن المفتوح، المُنكشـف للسماء. الزبون لا يرد!والوقت يعبث بنبضات قلبه. يحتاج المال الليلة، وليس الغد، والوقت يأبى التمهُّل.

أخيرًا يُجيب الرجل، حروفه العراقية ممطوطة ومُدغمة، تسـتحيل عبـر الهاتف حروفًا من كوكب آخـر، خاصة وأصداء مُغادرة الجمهور ترتدّ من كل جانب. «لا. . لا يمكن انتظار الغد. . صاحب العود يشترط إنجاز الأمر اليوم، وإلا اسـتعاد تحفته. . سـأجيئكَ في أي مكان. . ألن تسـهر في الملهى الليلة؟ إذًا نلتقي هناك. . لن تخسـر شـيئًا، لن أنقدكَ مالًا ما لم يعجبك. حياك الله. سلام. سلام».

الليـل يضيـق بـه، والطرقـات تعـج ببشـرٍ كثيريـن كعادة أمسـيات الخميس، كأنهـا موالد لأولياء اللهو والعبث. . عليه اللحاق بيوسـف قبل أي شيء، بهذا تكتمل الخطة، جرت يسيرةً حتى هذه النقطة، بات قريبًا من ترحيل أزمته المالية شهرًا إضافيًا، لا يطمع في المزيد.

***

لاذ يوسـف بقاعة الجلـوس بالدور العلويّ، حيـث لحقت به زينة ديناري. . عادة ما يسـتقبلهُ الأسـتاذ ويُهديه ريشـة جديـدة كلما أجاد، ولكن هذه المرة كانت زينة أول من حضر، بابتسـامتها الباشّة ووجهها المُضيء كشمس شقراء. قالت بإنجليزيتها المُفكّكة: «كنتَ بديعًا هذه الليلة. . كيف فعلتها؟!»

– ألم تجديني جيدًا من قبل؟

– عـدة مرات، ولكنك فُقتَ الجيد بكثير، بل إنك أبدع عازف عود شهِدتُه في حياتي.

أراح العود فوق دكّة موشّـاة بالأرابيسك، مُغطاة ببساط من الكليم الخشن، ارتمى جالسًا وهو يرمق سمتها باستغراب؛ شقارها المُشرق، خصرها الضامر فوق بنطال جلديّ لصيق، حذاءها مرتفع الكعب فاقع اللون، كل تفاصيلها تبدو مثيرة للدهشـة، دخيلة على المكان المُقتبس مـن زمن المماليك. قـال بإنهاك: «أتأذني لأبدع عـازف عود أن يخلع حذاءه؟»

– بالتأكيد! هل يؤلمك؟

مال بجذعه الممشوق قائلًا: «اشـتريتُه خصّيصًا لهذه المناسبة، ثم تفاجأت بضيقه».

ابتسـمَت بينمـا تُتابعـه؛ حـلّ رباطـي حذائـه وسـحب قدميْـه مـن محبسهما، تربّع بجوار آلته، ثم التقط قطعة قماش قطنية وشرع يمسح العود حتى استعاد بريقه. سألها بعد برهة: «لِمَ لا تجلسين؟!»

– وقف الجميع تحيّةً لك، فلماذا أجلس أنا؟

عاينهـا بابتسـامة ماكـرة، وتعثّـر سـائلًا: «ز. . زينة. . مـاذا تريدين تحديدًا؟»

– أريد أن أهنئكَ بالطبع، كما أريد أشياء أخرى سيحين وقتها.

شـعَر يوسف بخطوات وئيدة تقترب، عرف إيقاعها المرهون بآلام الظهـر، نهـض مُتعجّلًا وحشـر قدميه فـي الحذاء اليابـس كيفما اتفق، بينما رسـمت زينة تعبيرًا فاترًا فوق شفتيها المنحوتتين، وأخذت تُدوِّم خصلة شعر حريرية شقراء حول سبابتها.

بقامتـه المديـدة دخـل ذاكر رسـلان، «خـادم الطريقـة الموصلية» كما يدعو نفسـه، بينما يُناديه يوسـف بالأستاذ كأغلب مُريديه، فهو من استلمه منذ عامين حابيًا على الطريق، فأسبغ عليه الرعاية كي يُحِلَّه في مكانه. خطا نحو أسـتاذه تسبقه ابتسـامته، فتح الأخير ذراعين حانيتين وأطبقهمـا حوله في ضمة تقدير. «مبروك يا يوسـف»، همس في أذنه، «أعانك الله على حمل الرسالة».

– الله المُستعان يا أستاذ.

وضـع راحته الرحبـة على كتف تلميـذه، وقال بنبـرة عميقة: «كما وعدتـك، سـتحلّ مكاني في التدريب بـدءًا من الغـد، مُوجِّهًا للطريقة الموصليـة. اختَـر تلامذتكَ واسْـعَ في طريقـكَ محفوفًـا بتوفيق الله، وبدعائي».

رفّت عينا يوسف: «أستاذي كـ. . كلماتكَ تزيدني قلقًا».

سـحب ذاكـر كفـه وجلس علـى الدكّـة قائـلًا: «ذلك لأنـك تعيها جيدًا».

«مبارك يا فنان!!». . بصخبه المعتاد ظهر زياد، حاملًا عود التدريب بأريحيّـة مُفتعلة. لمح زينـة فأومأ مُعتذرًا، مُذكِّـرًا الجميع بأنه أول من اصطحب يوسـف إلى الوكالة قبل عامين، وأنه أولى الناس بمشـاركته فرحته.

بادره يوسف: «لم ألمحكَ أثناء العرض!»

– وهل تفوتني معزوفة تنصيبكَ يا فنان؟!

قـال ذاكـر بنبرة يبطّنهـا العتاب: «ربمـا لم يُصفّق بضميـر كما فعل الآخرون، فلم نلحظه».

سـدّد زياد نظرة خاطفة نحو زينة، وعلّـق مُتفكّهًا: «وهل تركتَ لي يدين سـليمتين أصفّق بهما أستاذنا الجليل؟! لقد تورّمت أصابعي من قسوة التمرين، صرت لا أطيق مصافحة الناس، ما بالكَ بالتصفيق؟!»

– دائم الشـكوى لـن يتقدّم خطوة. التمرين وسـيلة للعبـادة، تذكَّر ذلك كلما أمسكتَ بالعود.

– بدءًا من الليلة سيتولّى تدريبي أعز أصدقائي. دعني أُصرِّف أموري معه.

بصرامة قال ذاكر: «يبدو أنك لم تفهم يوسف بعد».

«د. . دعكَ منه يا أستاذ»، قال يوسف باسمًا، «سينال ما يستحق لا أكثر».

«وماذا أستحق يا أخ يوسف؟!» سارع زياد بالسؤال، وقد لمح تململُل زينة.

– التخرّج بالقطع، ولكن بعد أن تُرضي ذائقة الأستاذ، وتجد حلاوة الوصل في معزوفة من تأليفك.

«سأستأذن الآن، أراكم لاحقًا». . أعلنت زينة بعد تململها عدة مرات. مدّت يدها مُصافحةً يوسف، وانتحت به جانبًا بينما تقول: «إني حقًّا ممتنّة لهذه الليلة. أنت مبدع حقيقي، وأثق أنك ستُحدِث تغيُّرًا جذريًّا في مسار الموسيقى هنا».

أومأ بابتسامة خجول، فأكملت بصوت خافت: «أرغب في الحديث معك، أظن أن لدينا مشاريع مشتركة تتعلّق بهذا المكان، سأُسجّل رقمك وأُهاتفكَ صباح الغد».

حفظت الرقم وحيّت زياد بإيماءة رسمية، ثم صافحت ذاكر رسلان، الذي ظل يرمقها بحذر قبل أن يُبدى ترحيبه باصطحابها إلى الخارج.

تراجع يوسف ثانيةً نحو الدكّة، وخلع حذاءه زافرًا روحه المُنهَكة. التحق به صديقه مُربّتًا فخذه: «مبروك يا أستاذ يوسف». حدجه يوسف باستنكار فرِح، وقال: «الأستاذ الوحيد هنا هو ذاكر رسلان».

- ولكنك خليفتُه، كلنا يَعلم ذلك.

- لا تزِد أعبائي يا زياد، أرجوك.

نهض زياد مُستعدًّا للمغادرة، حاملًا العود الذي لم يُفلتهُ للحظة، وقال: «ليكن يا صديقي، أستودعكَ الله». .

انفرد يوسف بنفسه أخيرًا، شرد لبرهة في أفكار قلِقة، ثم استسلم لتَوقِه لرؤية رحمة. لم تُهنّئه بعد العرض كما فعل الآخرون، غادرت سريعًا كعادتها، إكرامًا لوجه أبيها. تفهّم يوسف موقفها، فمهما عظُمت منزلته لدى الأستاذ، فلن تكون مبررًا لأن تحتفي به رحمة بإعجاب مُعلَن. ولكن التفهُّم أبدًا لا يُخفِت الرغبة! همّ بالقيام كي يُعجّل بانقضاء الليلة، فمن بعدها ستجيء الأيام بفرص عديدة للقاء. في الخارج، أعاد ضبط هاتفه لتشغيل الصوت، وفوجئ برسائل من زينة تحوي تصويرًا لأدائه على المسرح. أبهجه اهتمامها، ولكنه أثار في نفسه التساؤل: تُرى، ماذا تريد منه؟

3

في الوكالة بئر مُغطّاة، تُسمّى «بئر الأسرار»، تقبع في صمت ركن ظليل ككاتم سر. يُحكى أن الشيخ الموصليّ كان يرتقي حافّتها وقت العصر، وكان يميل بعودِه نحو فتحتها مُثمَّنة الشكل، فيُدندِن أوراده على الأوتار مُستأنِسًا برجع الصدى، في حين تُردّد جدران البئر أذكاره المسائية المُنغّمة. يُحكى أيضًا أن الشيخ كان على هذه الحال حين فارق الدنيا؛ اتّكأ بثقل قامته المديدة فوق الحافّة، وأفلت عودَه في الهوّة العميقة، فلم يُسمَع صوتُ اختراق العود لسطح الماء، ولا بقبقةٌ تشي بطفوه من جديد، ولكن سُمِع صوت اصطدامه بتربة ليّنة، تبِعه طنين أوتار دام لأربعين يومًا بعد فراق الشيخ. فُسِّر الأمر بأن قاع البئر قد ابتلع الماء سريعًا، قبل أن يبلغه العود المُفلَت، وأن تربة القاع المُبتلّة استقبلت جسمه الرقيق بحذر ورفق، فحَمَت قصعته من الدمار، وأمهلت أوتاره الوقت كي تُفرِغ روحها على مهل، قبل أن تحتفظ البئر بسرِّها إلى الأبد.. ومن هذه الحادثة جاء الاسم.



لم يعرف الخوف طريقًا لقلب زياد منذ أمد بعيد، ليس لقصور غير مُتصوَّر في خرائط الخوف، ولكن لأن زياد ظل يحتفظ بقلبه في

مـكان خـافٍ في عمق ماضيـه البعيد، ربما يعود لزمن سـافرت فيه أمّه وراء أبيه، بعد أشهر من استقراره في دفء منابع البترول. فبعد أن كان زيـاد يبيتُ في حضنها كل ليلة أثناء غياب الأب، تركته وحيدًا في بيت جدّته لأبيه، حيث الأشباح التي تسكن الزوايا المظلمة، وتعبث بستائر الصالـة وأوانـي المطبخ، ثـم تظهر في قشـور السـقف المرتفع وتطلّ مـن داخل البراويز القديمة. في بيت كـذاك، ذاق زياد صنوف الخوف واجترّها مرارًا، حتى خبرها، وصار يواجهها بالصمت والنوم الطويل. فالجدّة صارمةٌ كسـجّان، لا ترغب في سـماع شـكوى قَط. استنفد مع الزمن وسـيلة الصمت، كما لم تكن وسـيلة النوم متاحة في كل وقت، فاسـتبدل بهما مشاعر بليدة وجِلدًا سميكًا مع الأيام. وببلوغه، اكتسب طولًا وامتلاءً منحاه ثقلًا في المواجهات، فصار من أشرس أبناء جيله، لولا أن حبَّه لمعلّمة الموسـيقى- مس چيهـان- ظَل يُرقّق قلبه ويُجدّد خلاياه كلما شقّقتها الخطوب.

مـع انتقالـه لمدرسـته الثانويـة، كانت أفدنـة الخوف التـي زُرِعت فـي مرتع طفولتـه قد احترقت عن آخرها، وإن ظل يحتفظ بشـجيراتٍ غرسـتها مس چيهـان بيديها البضّتين، فبقيت الموسـيقى ذكرى عصيّة على النسيان، حتى أضحت مرفأه الذي التجأ إليه إثر هزيمته في التعليم الثانـوي. درس آلة العود ومبـادئ الصولفيج في معهد خاص، مُخالفًا بذلـك إرادة أبويـه البعيدين. كان في حاجة ماسّـة ودائمـة للمال، فقد ضيّق أبواه عليه في هذه المرحلة أكثر من أي وقت، فظل المال المُمرَّر عبر بوابة الجدّة يتناقص حتى انعدم تمامًا، فلم يعد ثمة ما يخسر. دلف عبر أبـواب المعهد الخلفية إلـى عالم الحفلات الليلية والموسـيقيين

المهمّشين، الذين يصطادون بأوتارهم أقوات أيام ضنك، من بحيرات الحياة الآسنة. تعوَّد الأقراص المُكيِّفة، وصادَق الراقصات وجليسات الملاهي، رويدًا تعرّف إلى سيّاح عرب من هُواة العود، كان يُقدِّم إليهم نفسه باعتباره خبيرًا في فنون صناعته، قادرًا على إرشادهم لصُنّاعه المُتميِّزين، بل وإفلاتهم من براثن الأسعار السياحية. مع الممارسة، صار خبيرًا في التعامل مع ذهنية الزبائن، التي تُحبِّذ الأعواد البرّاقة ذات الزخارف المبهرجة، ويُسكِرها زهو الشعور بإحراز الصفقات، وإمكانية تكبيد الصنّاع الجشعين خسائر مؤثرة. ومع تطوّر مهارته البَيعيّة، صار يُحمِّل صورًا من شبكة الإنترنت لأهم أعلام العود في الموسيقى الخليجية؛ طلال المداح، عبادي الجوهر، أحمد فتحي، وغيرهم كثيرون، يحتضنون فيها أعوادهم بحميمية مؤثّرة، فتبدو كأسباب جوهرية لتفوق موسيقاهم. يعرض هذه الصور على مريدي الفن الرفيع، ثم يستخدم برامج مُعالجة الصور في تزيين شمسية العود الذي يُحبّذه أحدهم باسم صاحبه المُحتمل، فيكتمل اقتناعه بالصفقة ويطلب سعرًا نهائيًا. يضيف زياد نسبةً قد لا تتجاوز العشرين بالمائة فوق المبلغ المرغوب، مما يمنح الزبون مساحة آمنة للمساومة وإحساسًا مُطمئنًا بالمهارة التفاوضية، وفي ذات الوقت لا تُبدي زياد في صورة التاجر المُستغِل. هكذا اكتسب شهرة محدودة كسمسار ناجح للأعواد جيدة الصنع معقولة الأثمان، خاصةً حين استقرت قدماه عند محطة الأسطى عبيد، أقدم الصنّاع في وكالة الموصليّ، بعد تجارب مُتفاوتة النجاح مع صُنّاع عديدين، ومن خلال الورشة التقى ذاكر رسلان بعد أن صار من أهم زبائنها الصيفيين.

لـم يحتَج الشـيخ ذاكر مجهـودًا يُذكر كـي يضُمَّ زبون ورشـته إلى مسـعاه الأبدي- مدرسـة العود والطريقة الموصليّـة- فالطريقة كانت وسـيلة مُثلى لغسل سُـمعة زياد الليلية، إذ تُلبِسه حُلّة الموسيقيّ الورع فـي أعين الزبائن المُحتملين، وتُضفـي عليه هالة من الموثوقية، تعطيه دليـلًا مُبينـا على كونـه مدفوعًا لحياتـه الماجنة بدافع العوز فحسـب، كما تمنحه الوكالة قاعدةً أوسـع من مُحبّي العود، يلقاهم في أمسـياتها الأسبوعية، ويمارس على من يُبدي اهتمامًا إضافيًّا منهم دورَ السمسار العالِـم بأصول الصنعـة والجودة. هكذا طوّر زياد مـن تقنياته في البيع والعزف معًا، خاصة أساليب الريشة المُتفرّدة التي اشتُهِرت بها مدرسة الموصليّ، بينما اسـتمر عملُه الليليّ سـرًّا لا يعرفه إلا يوسف؛ صديق سنوات المعهد الخاص.

غير أن زبونه العراقي الأخير قد فاجأه منذ عدة أيام بطلب لم يتعثّر بـه من قبل؛ عـود قديم، جيد الصنـع، رنّان الصوت. لم يتبيَّن سـاعتها مـا إذا كان الرجـل جادًّا في طلبـه، أم أنه يُمازح جليسـتَه الممتلئة التي تكبُر زميلاتها سـنًّا وفظاظة، والتي كانت تشدو له بأغنية عراقية تراثية، بنبرة شـرخَها التدخين وأثملَها الخمر، فلا تُحسـن محاكاة الكلمات. زاد من شكّه مُداعبة الزبون بأنه سينقُدُه مقابل العود دواءً يشدُّ من عزمه الذكوريّ، كي يتمكن من التهام أطباقٍ دسمة كهذه على سفرة واحدة، مُشـيرًا بأصابـع نهِمة إلى جليسـاته الأربـع. ما كان زيـاد ليضيّع فرصة كهذه، حتى لو سـنحت على لسـان رجُل منتش يداعب أجسـادًا ريّانة ويهـزر بالقـول، فالرجُل يُمسَـكُ من لسـانه أيًّا ما كانت حالة اللسـان،

والعراقيـون أهل فن وطـرب أصيل، وهم أدرى النـاس بقيمة الأعواد القديمـة. سـيجيئه بعود بديـع الصنع، اختاره ذاكر رسـلان بنفسـه من بين عشـرات في ورشـة الموصليّ؛ عود التدريب. أغلب الظن أن أمر اسـتبدال العود لن يُكتشـف، خاصة وقد أسـرّ إليه يوسـف باستخفافه بهذا العود مرارًا. وحتى لو اكتُشِـف، فليتحمّل يوسف مسؤولية بسيطة كهذه ويقوم بتسوية الأمر؛ ثمن زهيد يُسديه لصديقه لا يُقارَن بما قدّمه إليه من قبل، حين ألحقه بالوكالة التي ستصنع مجده.

هـذه المرة، وجد زبونـه العراقي مُنتبهًا، لا يزال فـي كامل يقظته.. أخـذ الزبـون يُقلِّـب العـود ويتفحّصه بأصابع شـغوف، ومـع ذلك لم يُبـدِ قناعة صريحـة بادعاءات زياد. ولكـن زياد، بخبرتـه التي صقلتها التجـارب، أدرك أن هـذه النظرات المُلتمعة وهذا الريـق المُزدرَد فيما بيـن الكلمـات، لهما خير دليـل على قناعـة الرجُل ورغبتـه الضاغطة في اقتنـاء العود. ثرثر بحديث فارغ تتخلَّله قفشـات رخيصة وموحية، كـي يُرجئ التفاوض حول الثمن لما قبـل بداية العرض الراقص بزمن يسـير. حينها، سيتحوّل انتباه الزبون نحو جليسات الليل؛ أيهنّ ستتّجه نحو هذه الطاولة أو تلك، من سيشاركنه الشرب والمزاح، من أكثرهن دلالًا ومن الأمهر في محاكاة لهجته العويصة، وسيحاول إنهاء الصفقة سريعًا بأقل خسائر ممكنة، وبأقل مجهود. . وحتى تحين هذه اللحظة، ليس عليه سوى المزيد من الثرثرة.

***

أما يوسف فكان ابنًا لمُوجِّه لغة عربية في وزارة التربية والتعليم؛ آخر عنقود أسرته، تسبقه أختان بفارق كبير من السنوات. كان محطّ اهتمام المحيطين به، وكان تأخّره في النطق كفيلًا بجعل دفعه للكلام أكبر مهام الأسرة، خاصةً وأن أباه كان يُنطِق الفشلة من طُلاب المدارس، فما باله بابنه النابه؟! صاروا يستنطقونه كلما تعثّر، ويستنتجون الكلمة قبل إنجازها، فلا يحتاج لإتمام جُمَلِه. كبُر يوسف وكبُرت معه الأزمة، صارت مخارج الحروف تتحجّر في حلقه وفوق لسانه، فتكتُم أنفاسه وتسدّ بابه إلى العالم. أحب فتاته الأولى عبر ضفاف الصمت؛ ابنة جيرانهم اللُّصقاء، الملآنة بهجة وحيوية، والمُنطلِقة في أحواش البيوت الصغيرة. كان يتعمّد المرور بمحطات لهوها المُترامية، مُتعطّرًا وأنيقًا، ولكن صامتًا، وصار يعزِف الميلوديكا المدرسية آمِلًا أن تجتاز نغماته حاجز السكوت، وتبوح بمحبّته.

كان أبوه عاشقًا لحفلات الموسيقى العربية، يحصل على دعواتها باستمرار من زميلٍ في الوزارة، فكان يصطحب يوسف إليها ويحلم أن يراه أشهَر «صوليست» عود في الأوبرا، مثل حسين صابر أو وليد سلامة، ففي التعبير الصامت عن المشاعر راحة كبيرة لآخر عنقوده. سُعِد الأب كثيرًا حين طلب يوسف أول آلة عود، بعد عدة عثرات وكلمات مُتردِّدة. سارع بشرائه غير عابئ باعتراض زوجته، وراح يُتابع تأتأة النغمات عبر باب الغرفة بينما تتماسك وتتعلّم الإفصاح، ثم تهيم في أرجاء البيت، فتحملها النسمات عبر الشبابيك المُشرَعة على الدوام. استبدل يوسف العود بالميلوديكا، وصار يُحمّله الرسالة تلو

الأخـرى لابنة جيرانـه، حتى فوجِئ بانتقالهم لبناية مُطِلَّة على الشـارع الرئيسـيّ، فأحدث وداعهم جلبةً في الشـارع تابعها يوسـف من شرفة المنزل، حامِلًا عوده وخيبته وراء ظهره.

كبُر يوسـف، واكتسـب جسمًا مشـيقًا ووجهًا مليحًا، ولكْنةً خاصة في نطق الأغاني الأجنبية، فيما اقتصرت عثراته على المواقف شـديدة التوتُّر، فاكتسب شيئًا من الثقة وصار أحبّ الشباب إلى جيرانه، خاصّة بعـد أن افتُتِـح معهدٌ موسـيقيّ صغير في شـارعهم كان يوسـف نجمه الأول، يحمـل العود في جرابٍ مُبطّن ويجتاز الشـارع مُسـتقبِلًا تحايا الجارات والجنائني؛ «تفضّل يا فنان»، «اعزف لنا حاجة على مزاجك»، «هـل سـمعتَ بفريد الأطرش؟ أتحفظ شـيئًا من أغانيـه؟» كان يُجيب بأريحيَّة ولا يُحرِج أحدًا، ويُشـارِك في المناسبات السعيدة بعزفٍ بارع لأي أغنية تخطر في أذهان الحضور. تعرَّف إلى زياد في معهد الشارع، قبـل أن يلتحق بأكاديمية الفنون ومعهد الموسـيقى العربية، ولكنه ظل يـداوم على الحضور في المعهد الصغير لأجـل خاطر صديقه، وكثيرًا ما كان يدعوه للطعام في بيته، مُذكِّرًا أمَّه بأن زياد يعيش مع جدّةٍ مُسِـنّة ولا يجـد مـن يرعاه، فكانت تسـتجيب وتطلب إليـه أن يدعو صديقه، وتسعد لكَون يوسـف يجد من يؤانس وحدته، خاصة بعد زواج أختَيه من شـقيقين يعملان في ليبيا، وسـفرهما الذي أفرغ البيت من أنفاسـه الدافئة. ثم كان أن أُفرِغ البيت تمامًا ممن عمروه، حين استسـلم الأب المُتقاعد لشـيخوخةٍ شـرِهة، فخطـا مودِّعًـا حياتَه وما تبقـى من أفراد أسـرته. ولـم تمر ثلاثة أشـهر حتى لحقت به أم يوسـف، بعدما ساندها

طويلًا في وجه المرض، فألفى يوسف نفسه وحيدًا حِيال الحياة، يلوك الحزن والعزلة مع صديقه زياد.

ولكن التعويض الإلهي لم يتأخّر طويلًا، وكان ينتظر الصديقين في الصحن المفتوح لوكالة الموصليّ. كان زياد آنذاك كثير التردُّد على ورشة الآلات، وشديد الإعجاب بمدرسة العود التي يرعاها الشيخ ذاكر. دعا صديقه لحضور أمسية تُقدِّم خلالها فِرَقُ الوكالة عروضها الموسيقية. استغرب يوسف الأجواء منذ ظهور الفرقة على قاعدة المسرح الخشبية؛ سمْت العازفين، تفاوت أعمارهم، ملابسهم التي تنتمي لعصور أهملتها كتب التاريخ، وطريقة مجلسهم على وسائد واطئة تفترش المسرح، بحيث لا تسمح للعازف بالجلوس منتصبًا في احتضان آلته، كهيئة عازفي الأوبرا المحترمين. عندها، قرَّر أن يُبدي اعتراضه مع أول استراحة تتخلَّل العرض. استمع للمعزوفة الأولى بنصف اهتمام، وبأُذن تتردَّد في استقبال النغمات، خاصةً وقد وجد تقنية العزف الجماعي شاذَّةً وساذجة، وفاقدة للقدرة التعبيرية. واصل السماع عازمًا على استكمال أسانيده في نقد هذه المدرسة، التي تُهدِر شخصية العازف وتُفرغ العزف من مضمونه الذاتي. مع المقطوعة الثانية، تقدَّم أحد العازفين إلى منتصف قوس الوسائد الواطئة. كان صغير السن أمرد الوجه، يبدو راغبًا عن النظر للحاضرين، ما فسّره يوسف بالتوتر وضعف الحضور. جلس الفتى مُطأطئًا لبرهة، قبل أن تُفصِح أنامله عن جملة موسيقية مُتماوجة سلبت أنفاس يوسف، تهادت إليه كتكبيرات عيدٍ تنشد السماء، وإذا بالعازفين من خلفه يرُدّون

بزخمٍ هـادر من ضربات الأوتار، كأنها آهاتٌ عفويـة تُجاوِب التكبير.
لم يشـعر يوسف بجسـده وقد راح يتمايل مع توالي التكبير والآهات،
وتسـاقط منه الحسُّ النقدي في دوامة الوجْد، التي سـحبته حتى نهاية
المعزوفـة. مـع الثالثة، كاد يخرج عـن طوره الهـادئ الرزين، ويرتقي
المسـرح ليقارعهم نشـوةً بنشوة. هكذا استبق يوسـف صديقه صعودًا
إلى المسرح، مع أول اسـتراحة أثناء العرض، لا لينتقد الطريقة الشاذّة
كما كان يعتزِم، بل لينضم إليها سابحًا نحو جرف الوجْد الخالص.

4

سريعًا ما سيقُصُّ عليك أحدهم تاريخ الموصليّ، الذي كان صانعَ أعـواد، قبل أن يصيـر إمامًا صوفيًّا في زمن لاحق. سـيحكي لكَ كيف شـرُفت مدينـة الموصل بمولـده، تلك التـي أنجبت من قبلـه نبي الله يونـس، كمـا أنجبت أفذاذ الموسـيقيين فـي أزهى عصـور الحضارة. لذلك أسـماها العرب بالموصل، كونها ملتقًى يوصِل الشرق بالغرب. سـيقول لكَ إن أبـاه كان صانعَ أعـواد عُرِف بالمهارة والورع، وسـقى ولده الفنَّ والصنعة، كما زكّاه بالإيمان. شَـبَّ الصبي عبادة على محبة العود والألحان، وابتدع في سنٍّ صغيرة مقامات موسيقية لها العجب، لـم يعرفها أهـلُ زمانه ولم يُقَم لهـا وزنٌ في حينها، فقد سـادَ في زمانه الوغى والصراخ، واندهس الناس أسفل أحذية جلدية مُلطَّخة بالدماء، وسـنابك خيلٍ حادة كالنصال، حيث وافقت تلك الأيام البائسة زحف المغـول على الموصـل؛ تيمورلَنك وأشـياعه. تابع عبـادة مدينته وقد سـجَّتها المعـارك على فـراش الموت، وما كان قد اكتسـب بعد صوتَه الرجولـيّ، الـذي سـيعلق بأذهان مريديـه لزمن مديد. في تلـك الفترة المُربِكـة، الصاخبة، وفي غمـرةٍ من الخوف والأمل، سـيوعِز صَحْب الأب فـي رحيلـه بولده إلـى مصر، حيـث المماليك البرجيـون الذين

يخشاهم المغول، والذين يحفَلون بالفن كما يُعنون بالجُنديَّة، ولكن عبادة سيرحل وحيدًا مع جماعة من النازحين، سيحمل عودًا موصليًّا حلو الرنين، وصرَّة تحوي الكفاف من رثِّ الثياب والخبز الجاف. سيكسب عيشه بالضرب على العود لمواساة النازحين؛ منهم من سينفحه تمرًا، ومنهم من سيُلقي عليه عباءة شتوية. ثم إن ملابسه تلك ستبدو غريبةً إذ يصل مصر، وسيستغرب الكثيرون تخفيفته- عمامته الصغيرة- كما سيسخرون من لهجته، التي نبتت من عربية أخرى غير التي يعرفونها. ولكنه لن يعبأ بهم، فقد كان في انتظاره أمرُه الجلل..

***

كونٌ جديد هو ما استقبل يوسف صباح اليوم التالي. أبكرت شمس يونيو الصعود لبرج السماء، وأرخت سريعًا ثوبها النورانيّ، فصارت الموجودات كأنما تضيء من ذواتها، كما عبِق الهواء برائحة بللٍ نديَّة كأن أمطارًا سخيَّةً هطلت لساعات.

وصل يوسف مبكرًا موقَف الميكروباص على مشارف حي الدرب الأحمر، ومشى بمحاذاة الجامع الأزهر صوب الغورية، قاصدًا الوكالة. واظب خلال عامين على استكمال مشواره مشيًا لمسافة ثلاثة كيلومترات، تقطع الحارات الأثريّة والأقبية المُتداعية في مدة تتجاوز ثلث الساعة؛ مسافة تنتقل به من صخب المدينة إلى وداعة الوكالة وسماحة الذِّكر. لكنه قطعها هذا الصباح في زمن أقصر، مدفوعًا بحماس البداية والتوق للقاء رحمة. جاهد ليقي عينيه من الوهج الشديد الذي غلَّف كل شيء؛ الأسفلت، الأرصفة، زجاج

السيارات، واجهات البيوت، حتى عبر ممرًّا ضيقًا بين بنايتيْن ينتهي إلى بوابة الوكالة الشمالية. ضبط هاتفه المحمول على الوضعية الصامتة كالمعتاد، ودفع البوابة قليلًا كي يعبر للداخل. استُقبِل بأدخنة البخور المستكيّ المُتطاير من مبخرتين على جانبي البوابة، وبوهج الصحن غير المسقوف، الذي بدا كبِركة من الضوء المُذاب. هرب بعينيه نصف المُغمضة لأطراف المبنى، حيث تجمَّع الظل وحرَّر مساحاته من سطوة الشمس. عبَر قوسًا في الجدار الأيمن، وارتقى السلم قاصدًا قاعة التدريب، ليدخلها كمُوجِّه لأول مرة. كان يأمل أن يجد رحمة في انتظاره، أن تكون أول من يلقاه وأول من يختار في فريقه، ولكنه صادف فراغًا موحِشًا يملأ قاعة التدريب، فقرّر ألا يرهن نفسه للانتظار هناك، وأرقد العود فوق سطح المكتب كعلامةٍ على حضوره. فكَّر كيف يُزجي الوقت فخطرت لهُ ورشة الآلات؛ صومعة الأسطى عبيد. حتمًا سيجده في مكانه الثابت كأعمدة الصحن الحجرية. لم يغِب يومًا عن الورشة منذ ما يناهز الأربعين سنة، يجيئها غداة كل نهار، ويشرع في معالجة الآلات وتصنيع أجزاء نمطية لا تنتهي، فلا يبرح مكانه حتى تُعلن الشمس انقضاء دوام اليوم. تتلمذ على يديه عددٌ من أمهر الصنّاع، بينما تساقط منه كثيرون فلم يأسف عليهم. يأنس يوسف لمجالسته منذ وطئت قدماه طريق الموصليّ. يتعلّم الإتقان من أنامله المُشرَّبة بلون المشربيات، ويقرأ الصبر في غضون وجهه المدبوغ.

تشغل الورشة مساحة حاصِلتين من حواصل التخزين في الدور الأرضي، بجوار البئر الجافة والميضأة الملاصقة للواجهة الجنوبية،

وتُستخدم كذلك كمخزن للبخور المستكيّ. يُقال إن الورشة لم تبرح مكانها منذ أقامها الشيخ الموصليّ. لستة قرونٍ سرمدية، تستقبل ألواح أخشاب مُنتقاة، فتُحيلها إلى صناديق مُجوّفة، وتسدها برقائق خشبية مُفرَّغة كملامح وجه حميم، ثم تشدّ فوق الوجوه أوتارًا وتثبِّت أزنادًا صلبة وبناجق متماوجة، تُرصِّعها بمفاتيح مصقولة، وتُقدِّمها آلة عزفٍ أو مسبحة عِبادة، تبعًا لمشيئة حاملها. ردّدت جدران الورشة رنين الأوتار لمئات السنين، وشهدت خيبات صُنّاع ونجاحاتهم، كتمت أسرارهم وسدّت أغوارهم، فتعلّم منها الأسطى كل هذا، ومنها اكتسب كفّين في صلابة الأحجار وخشونتها، وأنامل في سُمرة البناجق والمفاتيح.

هبط يوسف السلم ومرّ بمحاذاة الأعمدة الحجرية، شاعرًا بأن عينيه اعتادتا الوهج. لمح حمامة تحُطّ فوق حافة البئر، وأخرى تنقر بُحيرة الضوء الذائب على الأرض. حافظ على مسافة تفصله عنهما كي لا تفزَعا لخطوه، ودلف أخيرًا عبر باب الورشة. فوجئ برحمة تستند إلى «البنك» بجوار الأسطى عبيد، ترفع على امتداد ذراعها آلة عود مصقولة كحبّة لؤلؤ، تقرِّب الشمسية من أذنها اليسرى المُختبئة خلف حجابها الرقيق، ترهِف السمع لنغمات الأوتار المشدودة للتو. «أنتِ هنا!» قال يوسف، فالتفتت إليه وابتسامة المفاجأة تُعيد ترسيم ملامحها. أردف ممازحًا: «ماذا جاء بكِ إلى الورشة أيتها المُتدرِّبة؟ مكانكِ في قاعة التدريب». مدّت نحوه العود المصقول، وقالت: «تفضّل.. هذا ما جاء بي».

تناول العود مُحاذرًا، رمقهُ باستغراب وشغف، «أهو لي؟!» سأل مندهشًا، بينما يتأمل فتحة الشمسية التي زُيّنت باسم صاحب العود: **يوسف**، مُفرَّغًا ومُرصَّعًا بأصداف متلألئة.

اكتفت رحمة بإيماءة مُرتبكة، كأنما فعلت ما يستدعي الخجل، وتمتمت بأنها لم تضبط الدوزان جيدًا، ولم تصل للريشة الأنسب بعد. أجابها مُبتهجًا: «سيختارها عم عبيد بأصابعه الذهبية».

- الآن تذكّرتَ عمك عبيد؟.. سأل الأسطى المُسِن بصوته الموحي بحزن فطريّ، بينما يتأمّل شريحة أبنوس ويقربها من أنفه، يشتمّ في مسامها عبق الزمن.

هتف يوسف: «صـ.. صباح الخير يا عم عبيد، يا عم الناس كلها». هزَ الرجل رأسه بلا اكتراث، في حين أفرجت رحمة عن ضحكة حاولت كبحها بكفِّها الرهيف. همست بالشكر للأسطى وحثّت خطواتها نحو الخارج. تبعها يوسف بعد برهة، فما إن شعرت باقترابه حتى أومأت إليه أن يبتعد. يعلم كم تتحرّج من انفراده بها، كما تخشى غضب والدها إن رآهما يتمشيان منفرديْن. احترمت خطواتُه رغبتَها، ورفع صوتَه مُطمئنًا: «سألحق بكِ في قاعة التدريب».

في القاعة لقي زياد مُتكئًا على المكتب، يجول بأنامله فوق العود الذي تركه يوسف قبل قليل. حيّاه بكنيته المُفضّلة، فانحنى زياد بإيماءة استعراض، مادًّا يده بالعود لأستاذه الجديد. شكره يوسف مُستجيبًا لهزله، وأدار نحوه العود الجديد، كاشفًا عن وجهه المُشرِق الذي يتوسطه الاسم. نطقت ملامح زياد بانبهار خالص، بينما اقتربت

رحمة تراقب الموقف عن كثب، والقلق يُزاحم البهجة فوق قسماتها. سأل زياد: «من نحت هذه الآلة البديعة؟!».

– هل يروقني صانعٌ غيره؟

– لا يمكن طبعًا.. الأسطى عبيد لا يصنع تحفة كهذه، بأصابع الشحّامين التي يملكها!

ردّه يوسف بصرامة: «هو عم عبيد لا غيره».

حوّلت رحمة مسار الحديث، بأن ناولت يوسف ورقة وهي تقول: «أعددتُ لك إعلانَ التقدّم لعضوية الفريق. نحتاج لتعليقه على باب القاعة».

– آه، شكرًا جزيلًا. كدت أنسى الأمر!

اقترب زياد والتقط الورقة: «سأقوم أنا بهذه المهمة النبيلة، وإن كنت أرى عددًا لا بأس به يتوافد علينا قبل تعليق الإعلان».

شكره يوسف وخطا صوب الباب يستدعي المنتظرين. صافحوه تباعًا وهنّؤوه بالتنصيب. قدَّر في ذهنه العدد وحمد الله أن منحه ثقة هؤلاء، رغم أن بينهم من سبقه على الطريق. لمح أحدُهم الإعلان وقد عُلِّق للتو، فخفّ لتسجيل اسمه على رأس القائمة، وسرعان ما انتبه لكون القائمة مشغولة الرأس بأول اسم ثلاثي، كُتِب بخط مُنمّق بجوار الرقم (1): رحمة ذاكر رسلان.

***

عادت رحمة لعُشِّها الصغير؛ غرفتها التي تحمل ملامحها كأقرب ما يكون الشبه، بساطة تفاصيلها، ألوانها الشاحبة، حامل لوحاتها الثابت على قواعد لا تتزحزح. انتزعت لوحة الكانسون الأخيرة حيث خطَّت آخر تصميمات العود، وأخذت تتأمَّل التصميم الذي صاغه الأسطى عبيد كحقيقة ماثلة. قبل هذه اللوحة، ثبّتت العديد من الأوراق البيضاء، ودفعت فوقها بسنّ الفحم لتنقش خطوطًا أوليّة، ولكنها سرعان ما كانت تُكرمشها وتُواريها سلة المهملات. وما إن واتاها الإلهام بالتصميم الأخير حتى شرعت في تنفيذه بسرعة غير مُعتادة، ثم صنعت منه صورة ضوئية أضافت إليها مقياسَ الرسم والأبعاد الدقيقة، ووضعتها بين أنامل الأسطى الساحرة.

منذ أنهت دراسة الفنون التطبيقية في الجامعة الألمانية، تشغل أكثر أوقاتها في رسم الاسكتشات؛ أكثرها يجوب عوالم العمارة الإسلامية، ويلتقط الآلات الشرقية من زوايا مختلفة. شُغِفت مؤخَّرًا بوضع تصميمات للعود تُبرز تفاصيله من منظورها الخاص، وتضفي شاعريتها على أجزائه الأثيرة. العود بالنسبة إليها أخٌ لم يمنحها أبوها غيره، تَربَّت بجواره على حِجر أبيها، تسلَّقته في صغرها عدة مرات، من بينها مرة تسبَّبت فيها بكسر البنجق. بكت لأيام، كأنما كسرت قدم أخيها الأصغر. اصطحبها أبوها لورشة عم عبيد كي تشهد إعادة التثبيت بنفسها وتهدأ، ظل يُمازحها بينما يتابعان أنامل الأسطى، مُدّعيًا أن العود سيصبح أقوى بكثير بعد الإصلاح، وأنه من الجيد أنها اكتشفت نقطة الضعف هذه كي يتلافاها الأسطى. كانت تضحك

لمزاحه، وتذرف الدموع في ذات الوقت. منذ ذلك اليوم صارت الورشة أقرب الأماكن لقلبها، كما صار عم عبيد ساحر طفولتها وصباها، الذي يبُثّ الروح في جمادات تقع تحت يديه. يُسطِّر عليها أشكالًا لا يدرك غايتها سواه، ويُبادر في قصِّها وتهذيبها، وصنفرتها وتثبيتها، ثم تلوينها وصقلها وتجفيفها، حتى يتبدّى وجهُ العود المليح ويشرع في الغناء. اليوم صار الساحر العجوز ذو الأنامل السمراء يُحيل أوراقها البيضاء ذات النقوش الرمادية والسوداء لأعواد مُجسّمة، تنطق بالنغمات والتسبيح.

كان العود المخصّص ليوسف آخرَ تصميم وضعته، وعلى عكس عادتها بدأته برسم الشمسية الدائرية في المنتصف، ونقشت اسمه بداخل الدائرة بحروف مُستوحاة من الخط الديواني، ثم أتبعتها بباقي الخطوط والتفاصيل بسهولة واعتياديَّة أدهشتها، حتى التقطت صورةً للتصميم ومحت الاسم. أحسَّت بأنها تعي تمامًا ما يروق يوسف، وبإمكانها رسمه ببساطة تحريكها لحبّات المسبحة، وكانت تتخيّل نفسها جالسةً بجواره، تُداعب بأناملها زندَ العود الذي يحتضنه، بينما يعفق هو الأوتار.. عود واحد يبوح بما يُضمِره القلبان، تتلاحم فوق أجزائه اليدان، وتنتقل عبر أوتاره مناجاة الروحيْن.

من يعرفون رحمة رسلان قد لا يُصدِّقون مجرى علاقتها بيوسف. هي ذاتها تستغرب مشاعرها التي لم تنتبه إليها أول الأمر، حتى فارت كالقهوة إذ تسهو عنها. لم يقع في حياتها شيء مُشابه. كانت كلما أحسَّت باستلطافٍ نحو شخص ما، تنصُب في خيالها محكمةً للقِيم،

تُخضِعه خلالها لقياسٍ سريع على مسطرة ذاكر رسلان- أبيها الذي لم تُعجَب برجل سواه- فتتداعى صفات الشخص واحدة تلو الأخرى حتى يسقط من نظرها، ولا يترك وراءه غير ذكرى لطيفة تحتفظ بها كصور المناسبات. لذلك لم يترك أحدٌ على وجدانها بصمة دائمة، حتى ظهر يوسف. رأت فيه نموذجًا مُصغرًا من أبيها، أكثر مرحًا وجاذبية، حتى في تلك المواقف التي يبدو فيها مُرتبكًا بطريقة مُحبَّبة لقلبها. ربما كان أبوها مرحًا في الماضي، قبل أن يحمل هموم الوكالة، وإدارة العلاقات المُتشابكة والأطماع المُشهَرَة حولها، التي يُشير إليها أحيانًا دون تفصيل، ويُصِرّ ألا يزعج بها أسرته الصغيرة، حتى بعدما اختُزِل قوام الأسرة لشخصيْن مع رحيل زوجته؛ هو ورحمة. تجاسرت مرة على التدخل في شؤون الوكالة، حين سمح أبوها لجماعة المسجد السلفيّ المقابل بتنظيم دروسهم في الحواصل الخلفيّة، بينما تصدح منابرهم بذمّ الطرق الصوفية ولعن الآلات الموسيقية. بدأ الأمر بتحفيظ القرآن لمراحل سنيَّة مُتفاوتة، ثم تطوّر ليشمل دروس الفقه والعقيدة والسيرة لثلاثة أيام في الأسبوع. مع الوقت، حصلوا على نسخة من مفتاح البوابة الخلفية، وصاروا يدخلون ويخرجون أيام الدروس دون استئذان، يتمشّى من يأتي منهم مبكرًا حول الصحن، أو يجلس مُستنِدًا لحافة البئر ويرصد الطلاب والذاكرين. لم ترتَح أبدًا لوجودهم؛ تقرأ في عيونهم سوء الطالع، فالأنثى تتعلّم قراءة النظرات قبل الحروف. نظراتهم تترصَّدها، تعيد نحت مُنحنياتها ثم تسقط سريعًا إلى الأرض إذا ما حدَّقت نحوهم. لم تُفصِح يومًا لأبيها بهواجسها تلك، وإن أعربت عن قلقها إزاء وجودهم. ظل على موقفه من ضرورة مراعاة

الجيرة والمودة المتبادلة مع كافَّة المساجد، وأنه يُقيم توازنات تصب في مصلحة الوكالة نهاية المطاف، ولكنها ظلَّت غير مرتاحة رغم ثقتها في حكمته.

عادت من شرودها، وشكرت في نفسها عم عبيد. حسبُه أن تآمر معها وصنع عودًا مُخصَّصًا ليوسف، سيتذكَّرها به كل حين، ولن يشغله عنها سعيُه وراء التحقُّق في كل اتجاه، ولا مناورات زينة ديناري، التي لا تني تجتذب الجميع بهيئتها اللافتة وطريقتها المُتساهلة. خطرَت لها فكرةٌ جديدة استحوذت عليها، رغم إدراكها استحالة تنفيذها الآن.. لماذا لا تطلب من عم عبيد أن يصنع عودًا يحمل اسميهما معًا، فيربطهما برباط لا ينحلّ أبدًا؟! آه لو يوارِب أبوها البابَ قليلًا، فيتجاوز يوسف ارتباكه ويُفاتِحه في أمر الزواج.. عندها سيُرحب الأب، بعد تمهُّل قصير ومحسوب بالطبع، فيصير الطريق ممهَّدًا لإعداد هدية زفاف تليق بأنامل الأسطى الساحر، ولن تكون أبدع من هذا العود.

5

منـذ أفصحت عن رغبتهـا في الحديث إليه، تحمّس يوسـف للقاء زينة، بدافع الفضول ربما أو بفعل جاذبيتها المغناطيسيّة التي تستقطب الموافَقات كبُرادة الحديد. اسـتغرب نفسـه منذ استقبل رسالتها صباح اليوم، إذ وجد في نفسه رغبةً في طمس آثار اللقاء، خاصة عن رحمة.. وقـف يتأمّـل المكان قبـل الموعد بقليـل؛ مقهى عجيـب يحتجِب في الطابـق الأول لبنايـة في حـي الزمالك، أثـار بداخله الدهشـة منذ عبر بوابتـه. رائحة بخـور هنديّ حرّيـف تُغلّف ديكورًا حداثيًّـا في تناقض فـجّ، إضـاءة خافتة تثير الفضـول وتفتـح الأبواب لاحتمالات شـتّى، صـور لدراويش المولويّة تحتشـد فـوق الحوائط الداكنـة في مواجهة صامتـة. سـأل فتاة الاسـتقبال عن زينة دينـاري، فاسـتمهلتهُ دقيقة كي تسـتدعيها، ثم إذا بزينـة تُقبِل عليه من جهة ردهـة داخلية تتصل بإدارة المكان، وهو ما أوغل في صدره الدهشة. لم تمنحهُ الفرصة للتساؤل، وجرفتهُ بجاذبيّتها الزاعقة كأبواق الشاحنات. دعتهُ للجلوس في ركنها المفضّـل، فتتبَّـع أمواج شـعرها الذهبـي التي تنزلـق نحو نهايـة مُدبّبة أسـفل ظهرها، تُشـير كالسـهم نحو خصرها المنحـوت، عند الفاصل الحـدودي بين بلوزتها القصيرة وبنطالها الجينز مرتفع الوسـط، حيث

تظهر شحوبة جلدها مع كل خطوة. اطمأن يوسف قليلًا حين اتخذا مقعديْن متقابليْن على طاولة مُنعزلة، فقد اختفت نصف مفاتنها خلف دثار المفرش الأحمر فصار بإمكانه استدعاء دفاعاته من جديد. بادرها كي يدفع صخرة الصمت: «مكان جميل»..

- أرجو أن يعجبك. اخترته لكونه مزيجًا بين عالميْن؛ عالمكَ الصوفي، وعالمنا الواقعي.

ابتسم لمقولتها: «مـ.. من قال إني أنتمي لعالم آخر؟! ثم إن هذا المكان لا يمُتّ للصوفية بحال».

- كل هؤلاء الدراويش لم يقنعوك؟! ماذا عن نقوش السقف؟ والمسابح التي تتدلى من مصابيح الإضاءة، ألا تستهويك؟

تأمّل التفاصيل لبرهة وقال: «جميعها يعجبني، ولكن ليس لطابعها الصوفي.. في الحقيقة لا أؤمن أن للصوفية طابعًا خاصًّا، إنما هي منهاج قلبي، نستطيع حمله في أي مكان وبين أي مجموعة من البشر».

«لستَ عازفًا بارعًا فحسب».. انتظرت حتى وضع النادل حاجياتها فوق الطاولة؛ هاتفها المحمول، حقيبتها، علبة السجائر الأنثوية النحيلة. سارعت بسحب سيجارة وأشعلتها بلهيب شمعة على جانب الطاولة، ثم سألته باعتيادية: «أبِكَ رغبة في شُرب شيء؟».

- ربما بعد قليل.

زفرت تجاهه سحابة دخان ناعمة، وقالت: «إذًا ندخل في الموضوع مباشرة».

- نـ.. نعم، بالتأكيد.

- حدِّثني أولًا عن مشاريعكَ المستقبلية.

- مشـاريعي! لـ.. لا أملـك رؤية واضحة عند هذه النقطة، أسـعى للاسـتقرار والتحقُّـق بشـكل أفضـل، أمامي رسـالة ماجسـتير مُعلّقة، وأطمـح في التعيين في الأكاديمية أو دار الأوبرا، فلا زلت أعتمد على معاش أبي الذي لن يصمد طويلًا أمام الغلاء.

- والوكالة؟

«ماذا عنها؟» سأل باستغراب، ثم أكمل حين بقيت صامتة: «الوكالة هي الجزء الأهم في حياتي، كما تُمثِّل موضوع بحثي للماجسـتير، و.. ولكنها ليست مشروعًا.. لا تُدِرّ عليَّ دخلًا إن كنتِ تعنين ذلك».

- لم أعـنِ ذلك تحديدًا، ولكني أملك مشـروعًا يخصّ الوكالة قد يعنيـكَ أن تكون جزءًا منه، كما سـيُغنيكَ عـن أي دخل إضافي تطمح فيه.

- أتقصديـن مشـروعًا تجاريًّا؟! ليسـت الوكالـة إلا طريقة صوفية ذات طابـع خاص، ولسـتُ أنا إلا مُريدًا للطريقة، لـم يمضِ يوم واحد على تنصيبي موجّهًا لباقي المريدين!

«سأشرح لك، ولكني سأبدأ بتمهيد قد يكون مفيدًا». أومأ بحماس فأكملت: «لا بد أنك تراني أتردَّد على الوكالة منذ أكثر من سـنة، أُتابع العـروض وأتعرَّف إلـى الناس، وأقضي أوقاتًا في القـراءة والتأمّل هنا وهناك، أصطحب أحيانًا شخصًا أو أكثر وأجتمع بهم مع السيد رسلان القائم على إدارة الوكالة، أو بالأحرى هو الإدارة نفسها!».

– نعم، لـ.. لاحظتُ ذلك مرارًا.

– لا بـد أيضًـا أنـك تسـاءلتَ عن سـبب تـردُّدي عليكـم، ولكنك تحرَّجت من سـؤالي مباشـرة، رغـم أنك تعرفني منذ شـهور وكثيرًا ما تحدثنا معًا.

أغمض عينيْه مُبتسمًا، وقال: «صحيح»..

– سـأجيب تسـاؤلكَ الآن؛ أنـا زينة دينـاري كما تعرف، موسـيقيّة نصـف مصريـة ونصـف ألمانيـة، مُهتمّـة بشـكل خـاص بالموسـيقى الشرقية.. إلى هنا لا توجد مفاجآت.

– عظيم، فما الجديد؟

– الجديد أني أملك مشـروعًا واعدًا لوكالة الموصليّ، تفصله عن طمـوح الإدارة الحاليـة فجوةٌ زمنية واسـعة؛ حُلمًا كبيرًا، من شـأنه أن يجعل من هذه الوكالة الأثرية مُلتقًى لموسيقيّي العالم. يمكنكَ تصوُّره كمطار مركزيّ، تصب فيه روافد الشـرق والغرب، وتنبع منه موسـيقى شرقية حديثة ومُتطورة تمتد لأبعد بقعة في العالم.

رنا إليها بدهشـةٍ تتلصّص من عينيه. سـألها: «كيـف يتحقّق ذلك؟ هل يمكن أن تصِفي طبيعة المشروع بـ.. بتفصيل أكبر؟»

– التفاصيل يطول شـرحها، ولديّ دراسـة تفصيليـة عن الأهداف والآليّات التنفيذية، ولكن بالنظر إلى الصورة الكبيرة، ستتحول الوكالة لمركز عالمي لموسـيقى البوب والجاز ذات الطابع الشـرقي، ومصنع متطـور مُجهَّز بأحـدث التقنيات لإنتاج آلات شـرقية قياسـية، نمطيّة؛

خامات مُوحَّدة، تصميمات حداثية بسيطة، إضافات إلكترونية تفتح أبوابًا لخيارات لانهائية، لن يمكنكَ التفريق بين آلة وأخرى، فلن نعتمد على مهارة الصانع أو حِرفته الفطرية، بل على مواصفات وإجراءات قياسية دقيقة.. سنملك أيضًا خطًّا لإنتاج آلات شرقية إلكترونية؛ تكنولوجيا رقمية تتوافق مع برامج التأليف والإنتاج الموسيقي الحديثة. تخيَّل معي كيف ستُسهم آلات حديثة كهذه في إنتاج تسجيلات ذات مستوى عالمي، تخصّ مركز الوكالة للجاز والبوب الشرقي.. سنخترق أسواق أوروبا وكندا وأستراليا.. لديّ اتصالات بمجموعة من أهم الوكلاء الموسيقيّين في ألمانيا والنمسا وإنجلترا.. سنلِج بالموسيقى الشرقية عالم التكنو والموسيقى الرقمية، وستُكتَب النوتات للآلات الشرقية في المؤلفات الحديثة بشكل مباشر.. .

- مـ.. مهلكِ قليلًا، ما كل هذا الحماس؟!

- لِمَ التمهُّل؟! هذه مشكلتكم في الشرق، تتمهّلون وتتمهّلون فلا تتقدّمون خطوة للأمام.

- أعني التمهُّل لدراسة الأمر بشكل وافٍ، والرجوع للأستاذ ذاكر رسلان..

- أتظنّ أني لم أطرح عليه الفكرة طوال هذه المدة؟ حدّثته عدة مرات، وقابلته بمندوبين لوكلاء عالميّين، حاول جميعهم إقناعه بجدوى المشروع وإمكانية تسويقه، فلم يستجِب.

- عجيب.. لم يأتِ ذِكر لأيّ من هذا في حديثه معي.

– في الواقع ليس عجيبًا على الإطلاق. السيد رسلان لا يناقش إلا نفسَه، هذا إن وَجد ضرورة للنقاش من الأساس.

– زينـة، ا.. اسـمحي لـي أن أطرح مـا يعنيني في المشـروع بصفة شخصية..

– لنطلب قهوة أولًا تمنحنا بعض التركيز، ماذا تحب؟

– قهوة تركية.

– هنـا لا يُقدِّمـون القهـوة التركيـة. القهـوة هنـا تعنـي الإسبرسـو بتنويعاته.

– كل هـؤلاء الدراويـش لا يشـربون قهـوة تركيـة! اختـاري لي ما يروقكِ إذًا.

– الإسبرسو الدوبل يُغنيك عنها..

«وليد».. أشارت زينة للنادل النحيف، فدنا منهما ودوّن الطلبات.

عاد يوسـف ليقول: «كنت أقول إن مـا يعنيني هو الإبقاء على روح المـكان، الوكالة ليسـت مشـروعًا تجاريًّـا كي نُجري عليها حسـابات الربـح والخسـارة بشـكل مُجـرَّد، الوكالة أثر إسـلامي، مورِسـت فيه العبـادة لقـرون بطريقـة تُسـخِّر الموسـيقى لهـدف أكبـر. أ.. أعني أن الموسيقى ليست هدفًا في ذاتها».

– يوسـف، أرجوك، لا تسعَ لأن تكون نسـخة جديدة من أستاذك، فهو في الحقيقة نموذج تجاوزه الزمن. أنت موسـيقيّ، موسـيقيّ بارع

إن شـئت، يتّسـع خيالـه للعالـم بأسـره، بينما هو شـيخ، يحبس نفسـه بداخل جلباب مُتوارث عبر مئات السـنوات.. لقد اخترتُ أن أحدّثكَ أنـت لسـببين: الأول أنـك تملك من الشـغف الفني مـا يجعلكَ تضع الموسـيقى كأولويّة دائمة، أنت تدرك كم تُحتضَر الموسـيقى الشرقية، بينما هي في الأساس أغنى موسيقى عرفها البشر، وذلك بفعل عقليّات جامدة تُصِرّ على حبسها في كهوف التاريخ.. لا أتصوّركَ تملك عقلية من هذا النوع!

سـألها: «ماذا عـن السـبب الثاني؟» تمهّلـت لبرهة وضـع خلالها النادل الطلبات، وجاسـت نصف ابتسـامة فوق وجههـا المُضيء بينما تنفـض ذؤابة السـيجارة الهشّـة. ثم قالت: «سـأكون صريحـة معك.. لأنك تُعجِبني».

وارى يوسـف ارتباكه في ابتسـامة سـاخرة، وأردف بسـرعة: «لـ.. لا حاجـة لإطرائـي، فليـس لـديّ صلاحيـة الموافقة على مشـروعكِ الحالم».

ببرود قالت: «صدّقني، لا أحد يملك صلاحية الرفض أو المُوافقة، قطار التحضّر لا يتوقّف عند محطات مُهدّمة، بل يدهس في طريقه كل من يُجابه الزمن».

أدار الفنجـان حول محوره، وقال: «أنتِ لا تفهمين ذاكر رسـلان، وفي حديثكِ عنه ظلم كبير».

قالت بهدوء: «ستثبِت لكَ الأيام أني أكثرُ من يفهمه».

شرد باحثًا عن عبارته التالية، ثم قال: «أترغبين أن أُحدّثه في الأمر؟».

– حدّثته مرارًا كما أخبرتك، حالته شبه ميئوس منها، ما أريده هو أن تقتنع أنت، أن تشاركني الحلم والإيمان بالمشروع، لا بأساطير الموصليّ!

لاحت فوق جبهة يوسف تقطيبة مُتردّدة، وقال: «عذرًا زينة، إ.. إيماني بالطريقة غير قابل للمقايضة، قد يصنع مشروعكِ طفرة هائلة للوكالة، وهذا يروقني تمامًا، ولكن بشرط: ألا يتعارض مع موروثها الروحي».

طالعتهُ بابتسامة ثابتة وقالت: «روحيّ! عن أي شيء تتحدّث؟ عن الروح، ها؟ عن مادة لا يُمكنكَ التعامل معها مُختبريًّا، ورغم ذلك تقول إنها صاحبة الأمر في كل شيء. ماذا لو أصابها خلل ما؟ نعجز حينها عن الإصلاح ونركن لحجّة سهلة نُغلّفها بقناعة يائسة!».

– لـ.. ليست حجّة على الإطلاق، إنما هي حقيقة من حقائق البشر..

– أعذرني، كان البشر بحاجة لهذه التفسيرات في عصور الظلام، كي يستطيعوا التعامل مع غموض الحياة. كانت الخرافة جزءًا هامًّا من ثقافتهم، وكانت مؤسسات السلطة توظّفها في التحكّم بمصائرهم. كل هذا مفهوم ومنطقيّ، أما غير المنطقيّ فهو تمسُّك الشرق بخرافاته إلى اليوم!

– أتعنين أن الشيخ الموصليّ خرافة هو الآخر؟!

- لِـمَ لا؟ تأمّـل تلـك الخرافـات التـي يتناقلونها عنـه، ألا تدفعك لإعادة التفكير في وجوده؟

أطرق يوسف يتأمّل فنجانه الفارغ، ثم استدرك قائلًا: «زينة، لنحترم اختلافنا، و.. ونعمل معًا لصالح الوكالة».

- عظيم. سـنتعاون علـى تحقيق طفـرة هائلة، وسـأترك لك تقييم الموروث ومدى تعارضه مع المنطق.

غادر يوسـف بعد قليـل، مُصطحبًا قلقه الذي سـيلازمه طويلًا، لم يسـبق لأحد أن ذكر أسـتاذه بسـلبية كتلك، ولم يخطر بباله أن أحدًا قد يُشـكِّك في وجود الشـيخ، ولا دفعـه حديث للتفكير فـي الوكالة بهذه الواقعيـة المُجـرّدة؛ مبنـى حجريّ يضمّ مسـاحات يُمكِن اسـتغلالها، يحـوي أصولًا يُمكن تحويلهـا لأرصدة رقمية. بل كانت دومًا صومعة عبادة، ونقطة انطلاق نحو السـماء. كما كان الأسـتاذ ملهمه ومرشده. لكن، منذ هذه اللحظة، باتت هذه الرؤية مهتزة وباهتة.

6

سيقصّ عليك العارفون ما جرى للفتى عبادة، إذ وصل مصر. كيف التجأ للمبيت في وكالة لتجارة السمسم، حيث يَكثر الأغراب والتجار من شتى الأنحاء، وكيف قوبِل بالتضييق والازدراء، لكونه فتى يافعًا يزاحم عائلات التجار في مبيتهم، ويلتقط أسماع بناتهم وحلائلهم بنغماته الساحرة وصوته الرخيم. سيُضطر ساعتها للاحتماء خفيةً بصُحبة الدواب، في إصطبلٍ مُلحق بالوكالة، داعيًا على من احتقره وأذلَّه بسوء العاقبة، كما أنه سيقول فيهم رباعيّة من الشِّعر، شبيهة بما اشتُهِرت به آنذاك فارس والعراق، ستَعلَق الرباعيّة في أذهان الناس، وسيردّ بها البائسون من متسوّلي الوكالة إذ ينهرهم تاجرٌ أو صرّافٌ أو أمير. وإذا بعام المجاعة يزحف أشدّ وطأة من زحف المغول، فيُنظَر لتجارة السمسم كرفاهةٍ لا تُحتمَل، ويصيب الوكالةَ ركودٌ تام بعدما كانت تفيض بالحياة، ثم يُشنَق السلطان مؤسّسها أعلى بوابتها الضخمة، ويُدقّ حديد مزلاجها في لحم كاحله، فتصير شؤمًا على من يسكنها.. إلا أن البائسين المُتحلِّقين حول الأسطى عبادة صانع الأعواد سيعِدّون تلك الوقائع كرامةً أظهرها الشاب الورِع، وسيُفشون أشعاره الروحانية في ربوع الدرب الأحمر والجمالية. سيعتبرونه وليًّا

مَهما أنكر عليهم، وسيشاركونه سُكنى الوكالة المنكوبة، ويشيرون إليها باسمه.

***

في ذات اليوم، خلت الوكالة كعادتها من الطلاب والذاكرين، حين استلم القمر ورديَّة الليل. ولكن، وعلى غير المعتاد، كانت المصابيح المُثبتة في أرضية الصحن مُضاءة، فقد أضاءها ذاكر رسلان قبل أن يخرج لصلاة العشاء. عاد إلى الوكالة بعد الصلاة، ليس وحيدًا هذه المرة، ولكن بصحبته مهندس إنشاءات يُداوم على الصلاة في مسجد الأوقاف. تمشّيا في حارات مُظلّلة بحبال الغسيل واللافتات المُهترِئة، وتجثم على أنفاسها وحدات التكييف المُترَّبة، بينما تكتمها تمامًا أكوام القمامة مع كل انعطافة. عبرا بيوتًا مُتلاصقة ذات واجهات غضّنها الزمن والإهمال، اصطفّت كعجائز في انتظار الموت. دُهِش المهندس حال دخوله الوكالة، فلم يتصوّر أن ينبثق جمال كهذا عن هذه الجولة الكئيبة المُظلمة. خلبه المشهد الأخّاذ لصحن الوكالة المفتوح، المسقوف بصفحة سماء صافية. أليست هي ذات السماء التي غلّفت مشهدًا كئيبًا بالخارج؟! شغله التساؤل قبل أن يبدي إعجابه للشيخ، في حين أمهله الأخير الوقت ليتذوّق مفردات المكان.

- تحفة معمارية فريدة يا حاج ذاكر!

- أعزك الله يا باشمهندس، ذلك أنكم أهلٌ لاستيعاب خصوصيّتها.

- خصوصيتها لا تخفى على أحد، بل إن فيها غموضًا وسحرًا.

- تلك هي روح المكان. لكل مكان روح تتشكّل، حسبما يطرأ عليه من أحوال. هذه الجدران لم تشهد شجارًا قط، لم تسمع جدالًا لمئات السنوات، لم تُرَق دماء فوق هذه الأرض ولم يعبرها فاسق. حتى المساجد يدنّسها لصوص الأحذية، أما هنا فالله خيرٌ حافظًا.

- ونعم بالله يا حاج.. عجبتُ فعلًا كيف حلّ الهدوء بالداخل على هذا النحو، بينما الضجيج بالخارج لا يتوقف..

- هذه البقعة على اتصال دائم بالسماء، فلا تُرهِف جدرانها السمع لضجيج البشر. لهذا أطلب من كل من يُشرّفنا هنا أن يغلق هاتفه المحمول أو يجعله صامتًا على الأقل.

- أتُحبّذ أن أقوم بذلك؟

- سيكون لطفًا كبيرًا منك.

سارع المهندس بضبط هاتفه، فيما دعاه ذاكر لجولة في أنحاء الوكالة. غمرته سكينة الذاكرين الذين شهِد آثارهم في كل ركن، وأبهرته الورشة برائحتها المميزة، وآلاتها المُجزّأة وتلك الكاملة المصقولة، سُعِد بالشرح الوافي الذي قدّمه ذاكر أمام كل قاعة وعند كل حاصلة من حواصل المبنى، أما ما افتُتِن به فكان قاعة مبيت الشيخ الموصليّ، حيث احتُفِظ ببقاياه الخالدة؛ قفطانه، حزامه القطني، محبرته وبعض أدواته، ريشاته المأخوذة من قوادم النسور، وأهمها على الإطلاق قصاصات ورق صبغتها السنون وقضمت حوافّها

الداكنـة، فتآكلـت بعض الرموز المُبهمة التي دُوِّنـت عليها. كانت هذه الأخيرة محفوظة في صندوق زجاجي مُضاء من الداخل.

– «ما هذه الأوراق؟» سأل المهندس بنبرة شحذتها الدهشة.

– إنهـا أهـم آثار الشـيخ؛ بعض النوتات الموسـيقية التي سـبق بها زمانه.

– أكانوا يستخدمون النوتة آنذاك؟

– بل كان الشيخ مُلهَمًا، وكان يدرك أهمية موسيقاه، فسعى لتدوينها كي تُلهِم الأجيال من بعده وتُمهِّد طريق السالكين.

– عبقري!

– هـذه المقتنيـات لم يرَها كثيـرون، ولكنْ ثمة شـيء آخر أريد أن أطلعكَ عليه.

– أثر جديد؟

– بل إنها المشكلة التي حدثتُك بشأنها.

– لا بأس.. هل توجد إنارة كافية؟

– نعـم، يوجـد كشـاف قوي الإضاءة سـيفي بالغـرض.. لا تحمل همًّا.

قصـدا واجهـة الوكالـة الجنوبية وعبـرا بوابتهـا الخلفيـة، فتناهت إليهمـا أصـوات الخارج؛ أبواق سـيارات ونبـاح كلاب وعويل امرأة. تحسّـس المهندس طريقه خلف ذاكر، مُسـتعينًا بـرذاذ فضة نثره القمر

على الأرضية الخشنة. سرعان ما أضاء ذاكر كشافًا مُتحركًا، وسلّط ضوءه على ركن قصِيّ في الواجهة الجنوبية، فإذا بشرخ يتّسع لقبضة يد، يمتدّ مُتعرّجًا كما نبات مُتسلق من قاعدة الجدار. تأمله المهندس بانزعاج بادٍ، تقلّصت قسماته بينما يغرز أصابعه بحثًا عن منتهاه. سأل: «هل ظهر أثر لهذا الشرخ في الجهة المُقابلة؟».

- أي جهة تقصد؟

- أعني في الحائط من الداخل.

- لم ألحظ شيئًا كهذا..

- علينا التأكُّد، إذ يبدو الشرخ عميقًا.

مال ذاكر بجذعه ليحمل الكشاف، فاندلع لهيبُ الغضروف أسفل ظهره كسيخ محمّي، انقبض وجهه وانحنى مُكبَّلًا بألمه. انتبه المهندس، فسارع لسند الشيخ من أسفل إبطه، وقال مُتوسّلًا: «لِمَ تنحني يا مولانا؟! دعني أحمِل عنك!».

- لا عليك، لقد سهوتُ عن توصية الطبيب بأن أثني ركبتيّ قبل حَمل أي شيء، مهما خفّ. نحن ضعفاء يا باشمهندس، نعبر الحياة حاملين النقائص والأوجاع فوق أكتافنا.

رفع المهندس الكشاف، وتابع خطوات الشيخ المرتبكة عبر البوابة. بدا سطح الجدار سليمًا من الداخل. تحسسه المهندس ونقر عليه بحجر أملس جلبهُ من الخارج. بعد برهة، رفع الكشاف وأخذ ينشر وهجه على الجدار رواحًا وجيئة، وبين فينة وأخرى يطرق

بالحجر على مواضع متفرّقة، ثم راح يشير إلى شروخ دقيقة لافتًا لكونها امتدادًا للصدع الخارجي. تساءل بعد قليل: «لماذا لا تبلغ مُفتِّشي الآثار بهذه المشكلة؟».

– لا أرجوك، أبعِدني عن عصبة المُرتشين هؤلاء، فلا شأن لهم بإصلاح التالف. بل إنهم الأحوج إلى الإصلاح.

– ولكنهم أهل اختصاص يا مولانا، هذا المبنى ليس خرسانيًّا كي أتعامل معه كمهندس مدني، بل إنه من قوالب حجرية يستلزم ترميمها موادَّ خاصة.

– لسنا بصدد ترميمها بعد. أريدكَ فقط أن تقدِّر جسامة المشكلة.

– تبدو جسيمة بالفعل؛ الصدع عريض وعميق، وقد يزيد اتساعًا خلال مدة قصيرة. هذه المباني الأثرية تعتمد على جدرانها الحجرية في توزيع الأحمال، وكتل الحجارة جسيمة في ذاتها مهما فرغ المبنى من أي وزن إضافي.

– ألا يوجد سبيل لإصلاحه تحت إشرافك؟ لا تحمل همًّا للتكاليف، ويمكننا أن نستعين بخبرات أجنبية لو أحببت. غاية ما أريد هو أن تبعدني عن الآثار ومفتّشيها.

وضع المهندس الكشاف على الأرض وقال مُتلطِّفًا: «أعفِني يا حاج من هذه المسؤولية، نحن في حاجة لمختصّ، ولا يمكننا التهاون في معالجة صدع بهذا الحجم بطريقة غير منهجية».

رنا إليه ذاكر بابتسـامة متماسكة، وتابع بنبرة تشي بالاقتناع: «معك حـق.. اتـرك الأمر لـي كـي أعالجه علـى الوجـه الأكمل. لـن يعوزنا المختصّون بعيدًا عن وزارة الآثار».

– أرجـو لكَ التوفيق. وأتمنى لـو تخبرني بتطورات الموقف، ربما أمد يد العون بطريقة أو بأخرى.

«لقد مددتها بالفعل يا باشمهندس». قال ذاكر بينما يُطفئ الكشاف، ثـم جـذب المهندس مـن مرفقه وأكمـل: «أنـا ممتن جدًّا لتشـريفك، وسأُطلِعكَ على المستجدات أولًا بأول».

عند البوابة الشمالية، ضبَّب ذاكر المزلاج النحاسيّ وصافح ضيفه. كرّر الشكر للمهندس وحيّاه مُودِّعًا، ثم عاد ليُطفئ المصابيح الأرضية المُحيطـة بالصحـن. حـلّ الظلام علـى الأعمدة الحجريـة من جديد، فالتحفـت بدثـار فضيّ من أشـعة القمـر، وغفت لسـاعات قبل مطلع النهار.

***

انتفخت سـتائر الغرفة الصغيرة، احتجزت خلفها نسـمات مسـائيّة صامتـة، تفيـض عـن حاجـة الجسـدين العاريين، فلـم يحتاجا لسـتار إضافـي. صـارت هـذه الغرفة العطنـة ملاذًا مُعتـادًا لزيـاد، منذ عادت أمُّـه مـن الخليج بصفـة نهائيـة، واسـتقرت في بيـت الجـدة الراحلة. تعـوّد الوحـدة منذ طفولته، حتى إنـه رفض اللحاق بأبويـه حينما أبديا رغبـة مُهتزَّة في اسـتدعائه، بعدما تركاه لسـنتين مُتّصلتين. تعلّل آنذاك

بعـدم الرغبة في تغيير المدرسـة، وبارتباطـه بالعيش مع جدته. كان قد توصّل لانسـجام ما مع حياته، لمعادلة صار فيها الطرف الأكثر امتلاكًا لمصيره، ولم يعُد مسـتعدًّا للتعامل مع مخاوف جديدة غير مُجرَّبة. لم يعُد أهلًا لأن يُشارك أحدًا حياة مستقرّة، لا يشتاق أحدًا ولا يعبأ لأحد، راضيًا بـأن تمكث غُصّـة الماضي في قـاع عميق من نفسـه، وأن تظلّ تناوشه بين حين وآخر.

لبِث زياد يرمق قشور السقف، يجمعها ويُفرّقها في تكوينات شتّى، يرسـم على صفحة الجير خرائط عشـوائية، دولًا تضُـخّ بترولًا يمتصّه أبـوه؛ ذلـك الرجـل الذي لـو التقاه لمـا ميّـز أحدهما الآخر. يـراه في قشـور السـقف يتملّق شـيخًا يعتمر غطرة وعقالًا، يملك أن يمدّ بقاءه بجـوار حقـول البترول التي عشـقها، حتى تُدركه النهايـة هناك ويُدفَن فـي رحابها، فيتحوّل جثمانه بعد ملايين السـنين لبترول جديد يعشـقه شـخص آخر في زمـان بعيد، ويُهمِل في سـبيله بنيـه.. راح زياد ينفث الحشـيش المُحترق صوب خرائط السـقف، عازمًا أن يحرق المدائن والبلـدان التي لا تكترث لوجوده، فيما أخذت ياسـمين- أو مبروكة- تجـذب اللفافة من بين إصبعيـه وتمتصّ منها مذاق النعيـم لهنيهة، ثم تعود لتعبث بشعيرات صدره المُلتوية وتغزل منها خيوط جولة حميمة ثانية.

همست: «أنت في قارة أخرى الليلة»..

سـاورته نفسه بأن الفتاة مبروكةٌ بالفعل كما أسماها أبواها- إن كان ثمـة أبـوان معلومان- فهو بالفعـل حائر بين قارات شـتى، وناقم على

الجميع. عادةً ما يمنحه الحشيش مزاجًا ناعمًا، أما الليلة فمزاجه حادٌّ كشَفرة، والفتاة تأمل في جولة أخرى قد تكبّدها معاناةً لا تُحتمل. ولكنها لا تأبه لتلك الشكليات، فهي أشبه بمنفضة سجائر لا تجد المعنى الحقيقي لوجودها إلا حين يُطفِئ نيرانه في أحشائها الرطبة. تزايد احتكاكها على امتداد جذعه، فرشقها بنظرة ميّتة ونفث في وجهها دخانه الحارق؛ سيحرقها كما أحرق الخرائط والدول قبل قليل. استقبلت لهيبه بسعادة ماجنة، واعتبرته إيذانًا بخطوة أكثر سخونة. فاجأها: «سأذهب الآن..» انتفضت: «لماذا؟! ألم تقل إنك ستبيت الليلة؟!» نهض بحزم. أخمد لفافة الحشيش في المنفضة وانتشل قميصه حسمًا للجدل. أما هي، فاستسلمت لشعور قاهر بالهزيمة؛ أولته ظهرها وجذبت ملاءة السرير تستر عريها، كمن يُسدِل الستار على مشهد النهاية.

تحسس أموال الزبون العراقي في جيب القميص، وسألها مُمعنًا في امتهان اللحظة: «أتحتاجين نقودًا؟»فاكتفت بالصمت.

في الشارع، استقبلتهُ النسمات الأكثر جسارة. حفَّت بجسمه الممتلئ واقتحمت رأسه الحليق، وزحفت بجوار أقدامه المُسرِعة مثيرةً حوله زوابع واهنة. أعمدة النور ترصد خروجه، والنوافذ تُصغي لخطواته المُتلاحقة الكتوم، بينما يخُبّ نحو خروج آمن من المشهد. كم يمقت حي الطالبية هذا، بصعاليكه غير المُتوقّعين وعجائزه الفارّين بنظراتهم خارج الزمن، كأنما ينتمون لعالم آخر.

أبطأ بجواره سائق أجرة. ساومه قبل أن يسمح بركوبه ويمنحه تذكرةً للأمان. راح يقود ببطء نسبيّ في الشوارع شبه الخاوية، ويثرثر.. سئم زياد حديثه، ولكنه لم يوقفه. هو أيضًا يُثقِل بالثرثرة على الآذان الضجِرة كي ينجز عمله. هرب من رغاء الرجل إلى ذكرى جداله مع أمه صباح اليوم. لم يطلب منها الكثير، أتُعَدُّ الخمسون ألف جنيه مبلغًا يُذكر اليوم؟! بل إنه لا يُكافئ شيئًا وحيدًا مما حُرِم منه لسنوات.. دفء أمّه وصدرها اللدن.. حكايات قبل النوم التي هجرتهُ معها.. ابتسامتها الحانية المُتستِّرة حالما يبلّل سريره.. يكفيه أن تحمّل الجدّة ذات اليد العجفاء والمُعاملة الخشنة. يكفيه أن حمل وَحده عبء طفولة نكِدة، وصبا يُؤرشَف لأيامه بعدد المُشاجرات. يكفيه أن ضنّ عليه أبوه بتعليم خاص لائق بعد رسوبه في التعليم الثانوي. يكفيه أن تكبَّد من عرقه وكرامته ثمن الحشيش و«الكروسّات»، كي يدفع الأيام والمسؤولية عن الجميع. كم هيَّأ لأبيه المناخ الأمثل ليستدفئ بحرائق البترول، ويُعبّئ أجولة النقود، مُحصيًا مخزونها كل مساء دون همّ! ألا يحق له اليوم تعويض مناسب؟! أقرانه من أبناء العاملين في الخارج يُنافسون نجوم الكرة في الثياب والسيارات، ويصطحبون نساءهم إلى غرف الفنادق خماسية النجوم، بينما يخشى هو أي زيادة طفيفة في سعر الحشيش، ويسدّ رمق جسده في غرفة الطالبية الحقيرة، العفِنة!

لا بد من تعديل في الخطة، طالما نال رفضًا صريحًا من أبيه على المشروع. سيبيت في المنزل بدءًا من اليوم، سيمد خيوط التفاهم مع أبيه وأمه على السواء، بل ويوحي لأبيه بإمكانية تحقيقه النموذج المثالي

الذي ينشـده فيه. سيمنح أمّه الأمل في اسـتقراره بجوارها. سيُصلّي.. ليس الجمعة فحسـب، بل أكثر الصلوات. ولن يُعاود الحديث حول المشـروع قبل أسـبوع، ربما أسبوعين، تبعًا لتحسّـن الأمور. لا بد من احتـواء الموقـف الذي احتـدم صباح اليـوم، هو الخاسـر الأوحد في معركة العناد تلك.

غريب شـأنكِ يا أماه! تطوفين في مدار أبي ما شـئتِ من السنوات، وتدفعين بي نحو المحاق التام، ثم ترغبين في استعادتي عند أول نزاع جـادّ معـه! الخـوف كل الخوف مـن خروجـكِ البائن من مـداره، فلا تتمكنين من مسـاعدتي فـي الضغط عليه. أما الكارثة الكبرى فسـوف تحلّ حالما تُثمر زيجته الجديدة عن ثمرة سـامّة غير مُتوقعة، سـتقضم الأمل الباقي.. خافت نفسه: «الصبر»..

قاطعه السائق: «أتقول شيئًا يا هندسة؟»

انتبه لمحيطه وقال: «لا أبدًا»..

يضحـك الآن من نفسِـه؛ كيف كان مُطمئنًّا لموافقـة أبيه؟! لم يتفقا أبـدًا من قبل، فلمـاذا الآن؟! هو نفس الرجل الـذي لطالما ضنّ عليه، فأي شـيطان يحملـه اليوم على الجـود معه؟! ربما اسـتبعد أن يُرفض مشـروع كهذا؛ اسـتوديو للتسـجيل الصوتي مضمون النجاح، يصعُب حصـر زبائنه.. بعضهم يحلم بالتلحيـن أو الغناء، أو التعليق الرياضي، البعض مُدبلجون ومنتجو إعلانات أو كتب مسموعة ورسائل صوتية.. سيفتح ذراعيه حتى لمهووسـي الإنشاد الديني، وأصحاب المحطات الإذاعية المُتفشّـية على الإنترنت كبثـور الحصبة. تعرّف إلى الكثيرين

مـن كل هؤلاء، أنفق الكثير من الوقت لتأسـيس المشـروع، كان ينتظر لسـاعات علـى مقهى مجاور للملهـى الليلي، حيث يقـع في مواجهته استـوديو شـهير للصوتيات، كم اختلق حججًا ليُحادث زبائنه، وانتهز الفرص لدخوله واسـتطلاع غرفِـه. وعَدَهُ صديقُه مهنـدس الصوتيات - الـذي يقـوم بصيانة أجهزة الملهـى- ألا يتكلّف المشـروع أكثر من إيجار شـقة صغيرة مـن غرفتيـن، وتجهيزها بخامات بسـيطة وأجهزة مسـتعملة معقولـة الأثمان، أكـد له أن خمسـين ألف جنيه تفـي تمامًا بشـرائه تذكـرة النجـاح.. مبلغ لن يُضيـف أو ينقص ما اكتنـزه أبوه في خزانـة غيابـه الأبديّ. لا بـأس. لن يقف عاجـزًا أمام المبلـغ، حتى لو اضطُـر لاختلاسـه من أمّـه. لا شـك أنها تدّخـر ذهبًا في مـكان ما من البيـت، يُكافئ قيـظ الصحراء الـذي تحمّلته لسـنوات. كل ما عليه أن يستقر في البيت لبضعة أيام، أو أسابيع، حتى يتكشَّف له الأمر ويقبض الثمن..

7

«بعض الأشياء يزداد وضوحًا حين نراه من مسافة أبعد».

كانت هذه عبارة الأستاذ، وكان يُقابِل بها ما يطرحه يوسف من أسئلة تخص المنهج، أو بالأحرى اجتهاداته المُبطَّنة بالنقد. جرّب يوسف مرارًا أن يُقنع الأستاذ بإدخال تعديلات على المنهج؛ طريقة تكوين الفرق، طريقة تحفيظ المقامات.. اقترح أيضًا دمج تدريبات الصولفيج في المنهاج التدريبيّ. حاول إرجاء مُشاركة المتدربين في حلقات الذِّكر لما بعد إتقانهم مهارة العزف. كان يعتقد أن المهارة والوعي الموسيقيّ يمهِّدان طريق العازف للاندماج في الذِّكر، ويستشهد بحالات نشاز وخروج عن المقام يقع فيها المبتدئون، فتُلقي بسائر الذاكرين خارج دائرة الخشوع. كانت جميع مقترحاته تُقابَل برفضٍ قاطع، وكان ذاكر يُطمئنه بأن الأمور ستتضح أكثر حين يجلس مكانه، فيراها من نقطة أبعد ومنظور أوسع. ورغم الإحباط المتمثِّل في موقف الشيخ، فقد ظل إيذانًا بأن يوسف سيخلفه ذات يوم في التوجيه.

بدأ يوسف مهامه بقلقٍ كبير وطموح مطلوق العنان، عازمًا على مُفاجأة الجميع بتعديلاته التي سيُجريها. انشغل عن مشروع زينة

بأولـى مهامه العاجلة؛ تكوين فريقـه الأول. قرّر أن يجعل قوام الفريق سبعة أعضاء، مُخالفًا بذلك ما درَجَ عليه الموجِّهون السابقون من عدم تقييـدٍ لعدد المتدربين. قدَّر أن المثاني سـبع، وكذلك مقامات الطريقة الموصليّة: النـدم، التوبة، الإنابة، ثم المراقبـة، والمجاهدة، والرجاء، والفنـاء. كما أن مقامـات النغم التي تعبَّد بها الموصليّ سـبعة: الصَّبا، الحجاز، البياتي، الكرد، الراسـت، النهاونـد، العجم. ألهمتهُ خاطرتُه، فقـرّر اعتمـاد الرقـم (7) في سـائر اختياراتـه. خصّص لفتـرة التدريب التمهيديّ سـبعة أسـابيع؛ أسبوعًا لحفظ واسـتيعاب كل مقام، مُفضِّلًا ألا يتخلل هذه الفترة نشاط آخر، كحلقات الذِّكر أو الحَضرات.. سبعة أسـابيع مُكثفة من التأهيل، يسلك بعدها المتدرّب طريقه الذي يختار؛ مُريـدًا كان أو مُغرمًا بعزف العود فحسـب.. لن يُفـرّق بين مُريد وهاوٍ، فالمُريد الحق يولَد من رحِم الهواية في أية لحظة، ولأهون سبب.

أمـا قـراره الثاني فـكان خاصًّا بتنظيـم الفريق. سـيضع رحمة على رأس المتدربـات، وزياد على رأس المتدربين. أما في غيابه فسـيكون زيـاد قائـدًا للفريـق ككل، حيث قـدَّر أن الأيام القادمة قد تشـهد غيابه لفتـرات، خاصـة مـع تقدُّمه فـي بحـث الماجسـتير. بهذيـن القرارين أمضى يوسـف نصف نهار مع رحمة، يسـتمع لمعزوفـات المتقدّمين، حتى اختـار أفضلهم كفاءة وأصدقهم إحساسًـا؛ ثلاثة شـبّان وفتاتين، فصـار جاهـزًا لبداية الـدرس الأول. شـكّل دائـرة من ثمانية كراسـي وأَولـى ظهرَه لمكتب المُوجِّه، منضمًّا لأعضـاء فريقه دون حائل، عن يمينه رحمة وعن يسـاره زياد. طلب من كلٍّ منهم تعريف نفسـه، وذِكر

طريقة تعرُّفه بالوكالة. بدأ بنفسـه، فقصَّ عليهم قصة انضمامه لمدرسة العود والطريقة الموصليّة، مُشيرًا لزياد كصاحب الفضل في اصطحابه للعـرض، واسـتماعه للمعزوفـة الثالثـة التـي سـلبت لُبَّـه. تسـابقت المطالبات ترجوه أن يُسـمِعهم تلك المعزوفة الآسـرة، فبشّـرهم بأنها سـتكون أول معزوفة جماعية يؤدّونها بعد مُقدّمة المقامات، وإتقانهم مهارات العزف الأساسية على الطريقة الموصليّة.

«ما هي المقامات؟» بادرهم يوسـف، «من منكم يملك إجابةً لهذا السؤال؟».

اسـتمع لثلاثة تعليقات تحوم حول المعنـى، ثم أكمل: «هذا جيد؛ تملكون مفهومًا معقولًا عن المقامات الموسيقيّة؛ هي بالفعل مجموعة من السلالم الموسـيقية المُتنوعة، لكنها في طريقتنا غير مقصورة على ذلـك، بـل إن لها بعدًا آخـر أكثر أهمية علينـا أن نعيه قبل الشـروع في التدريـب». مسـح بعينيـه الوجـوه المحيطـة وأردف شـارحًا: «دعونا نتصوّر مبنى من سبعة طوابق، تربط فيما بينها سبعة سلالم هي مقامات الطريقة، ببلوغ كل طابق تبلغ درجة أعلى في اتصالكَ بالسـماء، كأنك تنتقل بين سماوات سبع، حتى تتجاوز المعلوم، وتبلغ المُطلَق».

«وكيف نصعد من طابق لآخر؟» سـألت هايدي- إحدى الفتاتين- وهي تميل بجذعها وتنظر بجانب وجهها نحو يوسـف، فتنسدل ستارة شعرها على الجانب المقابل.

– في المرحلة الحالية لن نبلغ أيَّ شـيء. سنؤهِّل أنفسنا فقط حتى نتمكن من الصعود لاحقًا. سنتعرّف كل أسبوع إلى مقام من المقامات، ونستشـعر إحساسه الذي امتلأ به مولانا الموصليّ. ستكون بدايتنا مع مقـام الصّبا؛ مقـام حزين باكٍ، بعث في قلب مولانا شـعورًا بالحسـرة على ما فاته، وبتعاسة الابتعاد عن جناب الله. هو أيضًا مقام ناقص من الناحية التقنية، فهو على عكس المقامات الأخرى، لا يبدأ وينتهي عند نفس النوتة الموسيقية، ولهذا يبقى سلمًا ناقصًا مُتفرِّدًا في إحساسه.

أسـند يوسـف العود على حامـل جانبـي، وأكمل: «اختـار مولانا الموصليّ الصَّبا كنقطة انطلاق لتعليم مريديه، كي يغرس فيهم شـعورًا بالنقصـان، بعدم الاكتمال، بالوحدة والتعاسـة التـي تعمر القلب حين يفقـد اتصاله بالسـماء. سـنبدأ به كمـا بدأ، ثـم نتناول المقامـات تباعًا حتى نُتقن طريقة عزفها الفريدة، التي تعكس مغزاها كما فهمه الشـيخ، وكيف استخدمها لولوج الطريق».

نهض يوسف إيذانًا بانتهاء الدرس. فضّل ألا يُثقِل عليهم في البداية، فاكتفـى بالتعـارف وتوضيح المنهج وأرخـى العنان لتبـادل الأحلام. انفـضّ الحاضـرون مُنتشـين بالحمـاس، بينمـا عجَّـل زيـاد بالذهاب مُعتـذِرًا بموعد عاجل. أمـا رحمة فتلكّأت في مكانهـا، وأخذت تحِل وتـرًا مـن عودها دقيـق الحجم، ثم تعيـد تثبيته في البنجـق مرورًا فوق الوجه الأنيق، وصولًا للفرسـة الأبنوسـية الموشّـاة بألماسة تتلألأ في ركنها الأسـفل. اقترب منها يوسـف وقد وشت قسـماته بتَوقه، مدّ يده صـوب عودها فأراحتـهُ بين يديه. حـلَّ الوتر الأخير وسـلَتَهُ عبر فتحة

دقيقـة في جانب الفرسـة، وتشـاغل بربطه من جديد بينمـا يقول: «ألا زلتِ تتمسّكين بهذا العود الأنثويّ؟».

طأطأت تُخفي ابتسامةً خجِلة، وقالت: «لِمَ تسخر منه؟».

– ليسـت سـخرية، إنما الإعجاب بإصراركِ على عـود تركيّ، ذي قصعة صغيرة ورنين ضعيف!

قالـت بتحنـان: «أحـب صوتَـه.. الجلبة سـهلة وتصنعهـا أرخص الأعواد، أما الصعوبة فتكمن في الإحساس».

تبسَّـم قائـلًا: «هذا كلام خبراء، لا أسـتطيع مجاراتـه». وأعاد إليها العـود بعـد أن مسَّـد قصعتـه الملسـاء بأنامل اشـتياقه، سـألها: «كيف وجدتِ الدرس؟»

قالـت بابتهاج: «رائع.. أثرتَ شـغف الجميع، أتوقع أن تصنع هذه المجموعـة فريقًـا يبقـى طويلًا فـي ذاكـرة الوكالة، ولكن العـدد قليل بشكل لافت. لِمَ هذا التقييد الشديد؟».

– خـ.. خاطرة ألهمتنـي. قد تكون تجربة أريد خوضها؛ عدد قليل وزمن مُكثَّف، ثم تتسـع الدائرة. لا أدري إن كنت سأنجح. الحقيقة أن القلق يملؤني بنفس قدر الحماس.

– لا تخشَ شـيئًا. أنت مُلهَم، وتملك شـغفًا صادقًا وأنامل عبقرية. سيمنحكَ الله توفيقًا فوق ما تتصور.

– أتعتقدين ذلك؟ ليتني أملك نصف طمأنينتك.. الماجستير أيضًا يشغلني، وفرصة التدريس في الأكاديمية أو التعيين في الأوبرا.. لم تعُد أمامي فرصة عمل آخر.

اقتربت من كرسيّه وقالت: «كيف تقول ذلك؟! أنت عازف لا يتكرر كثيرًا، أعظم الفرق الموسيقية ستسعى لضمِّك، والأوبرا لن تغفل عنك طويلًا. المهم ألا يشغلك شيء عن رسالة الماجستير، وأن تظل على قمة أولوياتنا»..

قاطعها: «أولوياتنا.. ؟ ستعاونينني إذًا!».

دفنت خجلها في باطن كفَّيها ولم تُعقِّب، فانتشلها يوسف سريعًا، مُحوِّلًا مجرى الحديث لإعجابه بتصميماتها للعود، وخاصة هذا العود الذي صمّمته خصيصًا لأجله. أخبرها بأنه يقوم بتحميل التصميمات على الإنستجرام، وكيف يرتفع عدّاد الإعجاب بها كل يوم. كان يُحدّثها بامتنان صادق، شاعرًا بأن لفتتها لم تبُح بالمحبة فحسب، بل بالمُؤازرة، بالرغبة في التساند حتى آخر العمر، أي كل ما يحتاجه البشر كي يَمضوا في الحياة مُطمئنّين. غمرهما شعورٌ بالاكتفاء، بالاكتمال التام والنعمة الصافية، حتى تنبَّها لمُضِيّ الوقت وهما على حال من انعدام الوزن. قامت رحمة تلملم أغراضها وتُعيد عودها لجرابه الورديّ، فإذا بأبيها يرقب الموقف عند باب القاعة، بنظرة حانية يشوبها اللوم.

قام يوسف مُصافحًا أستاذه، وقد بدت عليه ربكةُ المفاجأة. أفاض في شكره على المجيء، وحكى كيف مرّ اليوم الأول بنجاح، ولكن

نظـرة الأسـتاذ ظلـت تُحلِّق فـوق العود الجديد، وتسـتقر فوق اسـمه المحفور بداخل الشمسية. شعر بثقل النظرات، فتخلّص من عبئها بأن ناوله العود: «أرأيتم آخر إبداعات الأسطى عبيد؟».

تأمله الأستاذ من جميع الجهات، وعلَّق بفتور: «عود جميل، صُنِع بمحبة».

وخزتهمـا مقولتـه. سـاورهما اضطـراب حـاولا إخفاءه. اسـتعاد يوسف العود، واستأذن الأستاذ للحاق بأصدقاء أعدّوا احتفالًا صغيرًا بمناسبة تنصيبه. رنا إليه ذاكر، أوصاه بإعداد فريق يليق بسمعة المدرسة ويسـتعيد أمجادها، وألا يشـغل ذهنه بسفاسف الأمور، فكل ما يطمح إليـه يُمكن إنجازه لاحقًا. أومأ يوسـف موافقًا بنصـف انتباه، فدائمًا ما تحمل كلمات أسـتاذه تأويلات عدّة. انطلق خارجًا من الوكالة، عازمًا أن يمنح نفسـه راحة البال ولو لليلة أخرى، لكنه ما إن التقط هاتفه كي يُشغِّل الصوت، حتى تنبّه لرسالة من زينة، تدعوه لعشاء عمل في مطعم بالزمالـك، للحديث عن مهمة تنتظره بصفة عاجلة وبمقابل سـيُرضيه حتمًا، فلم يُبطئ في تغيير وجهته.



كان متـردّدًا فـي لقـاء زينـة قبـل مُناقشـة الأسـتاذ فـي مشـروعها والاسترشـاد برؤيتـه، وكان ينوي الابتعـاد عن مجالها المغناطيسـيّ، ولكنهـا جذبتـه من خيـط لم يسـتطِع مقاومتـه؛ حاجته للعمـل. قابلته بإشـراقتها التي لا تُزايلها، وبحفيف فسـتانها القصيـر الذي يمتزج مع طرقـات كعبها، فيصنع إيقاعًـا خاصًّا. اصطحبته لمطعـم صغير قالت إنه يُقدّم الهامبرجر بطريقة مميزة، ويصنع الأصابع المقلية من البطاطا

الحلوة، ستعجبه كثيرًا. مع توالي الأطباق حدَّثته عن صديقٍ ألماني؛ مؤلف موسيقيّ يدمج الآلات الشرقية في موسيقاه، قالت إنه يحتاج لعازفين بارعين مؤهلين لقراءة النوتة وكتابتها، كي يُضيفوا إسهاماتهم لمؤلفاته. «فرصة كبيرة لإثبات نفسكَ كصوليست عود محترف، والحصول على تسجيلات من تأليفك ذات جودة عالمية، تستطيع التقدُّم بها لدار الأوبرا».

فتحَت كلماتها بوابة الحلم على مصراعيها، أزالت الحواجز المُعتادة ببساطة، تحدَّثت عن علاقتها الوثيقة بأهم المسئولين والموسيقيين، وعن تعيينه ولمعان اسمه اللذَيْن باتا وشيكَين. تأمّل يوسف طريق المستقبل بينما يرتسم أمامه، يتمهّد الجزء تلو الآخر، فيُدعى لاجتيازه بعيدًا عن قوائم الانتظار. طلبت زينة من النادل أن يُسرع بجلب الفاتورة، وخافتت يوسف بحاجتهما للذهاب فورًا. مدَّ ذراعه كي يلتقط الفاتورة فقطعت عليه الطريق. اعترض بانزعاج بادٍ، فطمأنته أن كليهما لن يدفع شيئًا؛ الحساب بدءًا من هذا العشاء على نفقة شركة الإنتاج الفنيّ التي يُديرها صديقها الألماني. سألها بدهشة: «وما أدراكِ إن كنا سنتفق على التعاون معًا؟» أجابت قبل أن تُطيِّر نحوه قُبلة في الهواء: «إذا لم تتفقا ستنقذني ثمن العشاء، إضافة لأجر ساعات عملي المهدَرة!».

وصلا بناية الاستوديو متأخرَين. في المصعد الصغير، وقفا على مسافة سمحت بالكاد بولوج العود الجديد، امتلأت نفسُه بعطرها الناعم حتى باب الاستوديو. تحدّثت زينة عبر الإنتركوم، بينما وقف يوسف يتأمل الباب العجيب؛ بابًا عتيق الطراز ذا لون جنزاريّ، يُحيط

به من ثلاث جهات حائطٌ زجاجي مضاء بزرقة ناعمة. فُتِح الباب ذاتيًّا، فانطلقت زينة للداخل ساحبةً يوسف وراءها.

كانـت اللافتة المُضـاءة على باب حجرة التسـجيل تطلب الهدوء، ولكـن زينة لم تستجِب، بل علا صوتهـا مرحًا وأفـاءت على الجميع بدعابات صاخبة وأحضان سخيّة. سريعًا عرَّفت يوسف إليهم، وقدّمته لصديقهـا المؤلـف الموسـيقيّ بصفتـه أبرع عـازف عود مـرَّت به، ثم قالت: «سنعود بعد قليل».

سحبت يوسف ثانيةً، ودخلت به حجرة انتظار مُلحقة بالاستوديو. أجلسـتهُ علـى الأريكـة وراحت تهتزُّ فـي مكانها كما النابـض، قالت: «اعذرنـي، فأنـا في حالة سـعادة اسـتثنائية اليـوم!». صـاغ ارتباكه في ابتسامة مُشوَّشة، وسألها: «تــ.. تُرى ما سبب هذه الحالة؟».

«لا أدري.. ربما لأنك تدخل عالمي لأول مرة، وربما لسبب آخر!» جلسـت على الكرسـي المُجاور وقالـت بحماس: «هل سـمعتَ عن الميدي كونترولر من قبل؟» أومأ باسـتغراب، فأردفت: «إنها شـريحة إلكترونيـة لاسـلكية تعمـل باللمـس، يمكنهـا أن تحوِّل آلة موسـيقية واحدة لأوركسترا كاملة».

ظـل على ترقُّبه، فأشـارت لشاشـة هاتفها وقالت: «انظر، سـأُريكَ واحدة». تابع الفيديو بذهول. لم يتخيّل وجود شـيء مماثل؛ شـريحة مرِنة مطّاطية، مصمّمة للتثبيت على وجه الجيتار، تملأ المساحة حول الشمسـية وتُضـيء ذاتيًّا في مواضـع عدّة، كأنهـا أزرار تعمل باللمس، يضـرب العازف مواضع الأزرار المضيئـة بالتبادل مع الأوتار، فيُصدر

تأثيـرات وإيقاعـات لانهائية، كمـا لو كان يتحكم في اسـتوديو صوتي كامل. نقل يوسف بصره بين الشاشة ووجه زينة، فتهلّل وجهها لمرأى انبهاره. قالت بنبرة حماسـية: «صرنا على بعـد خطوات من الحصول على كونترولر شـبيه للعود، سـيكون نقلـة حضارية فـي تاريخ الآلة.. أيُلهمكَ ذلك؟».

أومـأ بالإيجـاب ولا يزال مبهورًا، فأسـندت زينة الهاتف لسـماعة جانبية، وبطريقة اسـتعراضية قالت: «لديّ المزيد.. سأُسـمِعكَ أعظم صوت عرفه البشـر». لمسـت بأنملها شاشـة الهاتف، فترقرقت أجواء الحجـرة بافتتاحية كونتـي بارتيرو، بتآزر من آلات النفـخ والوتريات، صدح من بينها صوتٌ سماويّ يسلب الروح. لم يكن أندري بوتشيللي الذي اشـتُهِر بأداء الأغنية، ولكنـه صوتٌ لا أبدع منه، تلألأ كالألماس وسحب أنفاس يوسف كسقوطٍ من شاهق.

– مـ.. ما اسـم هذا التينور؟!.. سـألها بذهـول، وقد أحلّه الصوت في بُعد آخر.

«تينور؟» قالت ضاحكةً، «اسمع هذه قبل أن أخبرك». أدارت أغنية أخرى؛ تآلُفات لم يعتَدها يوسف، وتريات شرقية وغربية، ميَّز من بينها الجيتارات بوضوح، والتقط صوتًا أشـبه بالقانون، ربما البُزُق، لم يكن واثقًـا. صـدح من بينها الصوت السـماويّ فجأة، بدخـول مذهل على درجة حادّة للغاية. كان ضربًا من خيال. «بأيّ لغةٍ يُغنّي؟!» سألها بنبرة تحشـوها الدهشـة، فأجابت وقد شـرعت فـي الرقص: «إنهـا اليونانية القديمة يا قيصري الوسيم».

- أ.. أين وقعتِ على هذه المُعجِزة؟! كيف لم أسمع به من قبل؟! و.. وكيف يُتقِن كل هذه اللغات؟!

- مهلك حتى تسمعه يشدو بالعربية.

- العربية؟! مستحيل.. سأكشف زلّاته بسهولة إن نطق بالعربية.

«لنـرَ».. التقطت زينة الهاتف وفتّشـت فيه بتركيـز أطلّ من جبينها، بعـد برهـة عـاد إليها الصفـاء، وأخـذت تُهدهِـد الهاتف فـوق راحتها كرضيع نام لتوِّه. قالت قبل أن تنقر الشاشة: «اسمع».

لا موسـيقى افتتاحية هـذه المرة، بل صوت صافٍ سَلسـال، كأنما يسـيل مباشرة من نبع السـماء. صدى خافت، وحروف مُحدّدة كزوايا حجر كريم..

أشـرق الحـقُّ بالهـدى واطمأنّا وتهـالَـتْ أنـوارهُ تتـثنّى

أي طرب! وأي صفاء. أدهشـهُ أن يتجاسـر أحدهم على أداء ابتهال لنصـر الدين طوبار. ما أبـدع صوته! ما أصعب عُرَبَـه! يتلوّى كخيوط الذهب في حاشـية مُطرَّزة. تشـكّك يوسـف لأول وهلـة: لعله صوت آخـر؟ لكنـه اختبر مسـاحته وتأمّل مواطـن قوّته وركوزه، تـذوّق نبرته التـي تنتمـي لعالـم آخر.. لا يمكـن إلا أن يكون نفـس الصوت. نفس المعجـزة. تلعثم في اضطرابه قائلًا: «ز.. زينة، أرجوكِ.. خـ.. خبِّريني من هذا العبقري!».

ببسـاطة قالت: «تؤسـفني هزيمتـكَ يا فنانـي البارع، فليـس صوتًا بشريًّا.. إنها التكنولوجيا تُغنّي لا أكثر».

8

لم تُلهِمه رؤيا، ولا انكشف له حجاب عن طريقة تسبيحه العجيبة. بـل إنها فتاة صغيرة من ألهمته، ذات بشـرة خمريـة وعينين خضراوين فـي لـون حبات العنب. كفلها زمنًا حين مـات أبوها في حريق وقع في شَـونة حَلفـاء، بجـوار مطابخ السـكّر السـلطانيّة، ثم حضـر أعمامٌ لها يعملون بسـوق الرقيق وحملوها معهم. أحبّت الفتاة العود والإنشـاد، وألحّـت عليه كي يُعلّمها، فرضـخ. علّمها ثلاثين صوتًا تنطق بها أوتار العـود؛ سـتة أوتـار، يُصـدِر كل منها خمسـة أصـوات. صـارت تعفق بدأب حتى تشـقّقت أناملها الرهيفة. بكت. عالجها بعجينة زيت اللوز وعسـل النحـل، فارتاحـت ونامت. أزعـج نومتها حريـق الحطب في ورشـة الآلات. قامـت مفزوعة. طمأنها الموصليّ، وأمـر ألا توقَد نارٌ ثانيـة حالما تنـام الصبية. وضع لها إنـاء تمر مبلل بمـاء البئر، فأكلت، واستبْقت النوى كي تصنع مسبحة. قالت: «علَّمني أبي تسبيح الأصابع، أما هو فكان يسـبّح بحبّات النوى». أراد الشـيخ أن يُسرّي عنها، فقال: «علِّمينـي كمـا علّمكِ». قالـت: «أنت تعـرف؛ أنت شـيخ». قال: «قد يكون أبوكِ أعرف مني بالتسـبيح». فقالت: «إذًا أنصِت جيدًا.. خمسـة أصابع بست عدّات لكل إصبع؛ هذه ثلاثون، ثم زد ثلاثًا على الإصبع الأخير». ثـم أضاءت عيناها كحبّتي زبرجد مصري، وقالت: «علّمتني

ثلاثين، فعلّمتكَ ثلاثين». وضحكت. فجَرَت على لسانه عبارة كانت بدايةً لكل شيء؛ قال: «إذًا سبّحي ثلاثين، بينما تعفقين الثلاثين، فلا تشعرين بألم التشقّق».

❋ ❋ ❋

لم يرتَح ذاكر لمّا بلغه عبث يوسف بالطريقة الراسخة منذ قرون. لم يُمضِ بضعة أيام في إمارة التوجيه، ويتجاسر على إدخال التعديلات على نظام عبَر بالوكالة فوق مئات السنوات والعثرات، ودون مشورة شيخه. أمر غير متوقع من شاب في رزانته. كان على يقين من حُسن نواياه، ولكن ليس هناك بد من معاتبته وإلزامه بالمستقر من أمور الطريقة. هذا ما انتواه حين أمر عم عبيد أن يبعث في طلبه، ويرسله إلى المكتب متى وصل الوكالة. دخل عليه يوسف بينما ينهض من صلاة الضحى، جلسا متجاورَيْن على الأريكة الأرابيسك، وشرع ذاكر يصنع القهوة على الموقد النحاسي- السبرتاية- ثم صبّ محتوى الكنكة في فنجانيْن دون أن ينبس، قرّب من يوسف الفنجان ذا الحافة السليمة، وراح يرتشف من الجهة العكسية لفنجانه المشروخ، تاركًا يوسف ليرزح تحت ثِقَل الصمت. أخيرًا قال يوسف: «اشتقتُ لهذا البن اليمني».

– إنه من تراث مولانا الموصليّ.. كان يستعين به على السهر وقيام الليل.

– لأستاذي قدرة خاصة على ربط كل صغيرة وكبيرة بـ.. بموروث مولانا الموصليّ!

– لازم يا يوسف، إن لم تربط خطواتكَ بمبتدأ الطريق ضاع من قدمك.

أومأ يوسف موافِقًا، فأردف ذاكر: «لهذا خشيتُ عليكَ واستدعيتك».

بقلق سأل يوسف: «هل حدث مني ما أغضب أستاذي؟».

دوَّم ذاكر ما ترسب في الفنجان، وارتشف رشفة أخيرة وهو ينهض متجهًا صوب المكتب، جلس إليه قائلًا: «ليس الغضب يا بني، ولكنها الخشية من غرور الدنيا وغشاوة الحماس، الذي يحدو بصاحبه بعيدًا عن المقصد. وحده المنهاج هو ما يصل بكَ حيث تريد، وما تعتقده إصلاحًا هو دون شك سراب خادع».

ازدرد يوسف ريقه وقال: «أي إصلاح تعني يا أستاذ؟».

بهدوء أجاب ذاكر: «عبثكَ بالمنهاج؛ تقييدكَ عدد المتدربين، تغييركَ أزمنة التدريب كي توافق ظروفكَ الشخصية، إلزامكَ المريدين بتدريبات تقنية كما لو كانوا طلبة معهد موسيقيّ.. والأدهى من كل ذلك تجاوزكَ عن حضورهم حلقات الذِّكر».

– أستاذي، لم يجرِ الأمر كما تتصوّرون!

– يوسف، لقد بلغني ما تحدّثتَ بشأنه مع زملائك، وأرى فيه حيدة عن الطريق. أعرف أنك دائم التفكير، ولكن المنهاج لا يوزن بعقولنا القاصرة عن الإحاطة بمراد الشيخ، لم يُفتَح لكَ كما فُتِح له، وما تظنه إضافة مفيدة قد لا يعدو كونه نزغًا شيطانيًّا.

– اسـمح لـي أسـتاذي، الطريقة تــ.. تحتاج لرؤية جديـدة لا تضر بموروثهـا المسـتقر. لِمَ لا نسـعى لتطوير أداء المريديـن؟ لِمَ لا نصنع منهم مــ.. موسيقيين حقيقيين، قادرين على وضع مؤلفات أكثر تعقيدًا وحرفيَّة؟ لماذا نقصِر التعليم على مريدي الطريقة فحسـب، دون هواة العود؟ وكيف نترك ورشـة الآلات دون تطوير ولا تحديث بــ.. بآلات أكثر دقّة طيلة هذه السنوات؟

– أهذا صوتكَ الذي أسـمعه أم صوت زينة ديناري، تلك الأجنبية التي لا تعرف شيئًا عن موروثاتنا؟

– و.. وما علاقة زينة بما أقول؟!

«علاقـة وثيقة. بل إنه تطابق تام يا بنـي. رأيتها تُحدّثكَ عدّة مرات، وأحسـبها صبغـت أفـكاركَ بصبغتها». أطـرق يوسـف صامتًا يجذب أنفاسـه من أشـواك صدره، فأكمـل ذاكـر: «الوقت لا يتّسـع لجدالكَ الحاذق الآن، لديكَ حصّة تدريب لا أريد أن أؤخّركَ عنها، كما أستعد للذهـاب إلى السـفارة الألمانية بعـد قليل.. أعِد التفكيـر فيما حدثتكَ بشأنه، ولنعاود الحديث فيما بعد».

فـور خروجه من الوكالة، عجّل ذاكر باسـتدعاء سـائقه، الذي ظهر سـريعًا كعفريت مصباح. ضبط ذاكر كرسي السـيارة المرسيدس على الوضع الأنسـب لصـدّ هجمات الغضروف، واسـتقبل عطايـا مُكيّف الهـواء متمتمًـا بدعـاء الركـوب. راقب الشـوارع المشـحونة بالبشـر والسـباب. الشـمس تصهل في السـماء بقوة همجية، فتصهر العقول،

والغبـار يثيـر الأنفـس ويهيّج مكامن الشـر. عافت نفسـه المشـاهدة، فطلب إلى السـائق تشـغيل ابتهالاتٍ للشـيخ محمد عمران، وأغمض عينيه غافيًا حتى نبّهه السائق للوصول.

لـم يجـد عبـوره حصـن السـفارة الزجاجـي حميميًّـا هـذه المرة. أحصى عدد السـنوات التـي تفصله عن آخر زيارة. كـم تبدّل المكان! كم تتغيّر الأشياء سريعًا في هذا العالم اللاهث نحو التحوُّر باستمرار! سـبع سـنوات لا بد أن تعني الكثير. تأمّل التجديدات التي طرأت على المبنى بينما ينتظر في طابور مكتب الأمن، لم تكن كثيرة، المُعاملة هي ما تبدّل بطريقة مُثيرة للاسـتفزاز، سواء من أفراد الأمن خارج الأسوار أو من موظفي المبنى البارد المحصّن.

اسـتقبلته موظفـةٌ باشّـة بابتسـامة تحمـل التهديـد والترحيب على السواء، في شفتيها حُمرة دماء طازجة، وفي أسنانها لمعةٌ معدنيّة تواري أخاديـد التدخين. اجتازت رائحة أنفاسـها طاولة المكتب، واقتحمت صدرَه حين قالت: «تفضّل سيد رسلان. هل انتظرت طويلًا؟».

- لا بأس.

- اسمكَ الأول، ثاكِر، هل أنطقه صحيحًا؟

- ذاكِر.. ذا، كِر. هكذا.

- امم.. لم يمرّ بي هذا الاسم طيلة سنواتي هنا. ما معناه؟

- ذاكر تعني: كثير الذِّكر، أي الذي يذكر الله كثيرًا.

– أرى أنـك حذفـت لقـب العائلة منـذ زمن طويل.. جواز سـفرك القديم يحوي اسمًا إضافيًّا.

– نعم، قمتُ بذلك فعلاً. دائمًا ما تملكون معلوماتٍ وافية.

وضعـت نظارة قـراءة حمراء، في لون شـفتيها الدقيقتين، وأردفت تقول: «دعني أرى.. سجلّك حافل بزيارات كثيرة لألمانيا».

– بالفعل. أعتبرها وطني الثاني، وأحمل منها أجمل الذكريات.

رمقَتـه من فوق إطـار النظارة، وقالـت: «أرى أن زياراتكَ انقطعت منذ مدة طويلة»..

– تقدمتُ في السنّ كما ترين، وتغيّرَت ظروف عملي.

– كنتَ تسافر للعمل إذًا؟

اعتدل في كرسـيّه ينشد وضعًا أقل إيلامًا، قال: «قديمًا، كنت أزور بـون مرة أو مرتين في العام، بصحبة الموسـيقار عبـدُه داغر، أحد أهم عازفـي الكمان في التاريـخ. كانت ألمانيا بكبريائهـا المعروف تنحني احترامًـا لموهبتـه، لدرجة أن يُشـاع خطـأً أن له تمثالًا مُجـاورًا لتمثال بيتهوڤن في حديقة الخالدين».

عادت لمطالعة الملف، وقالت: «أمر مثير للاهتمام. أوراقكَ تضم أيضًا شهادة في اللغة الألمانية من معهد جوته، وزواجًا مدنيًّا من سيدة ألمانية، منذ ثمانٍ وعشرين سنة».

تمتم بالاستغفار وأردف بوجه ممتقع: «كان ذلك منذ زمن بعيد».

– هل لزواجكَ ذاك علاقة بسفركَ هذه المرة؟

– لا على الإطلاق، إنها رحلة عمل إن شئتِ الدقة، ولكني فضلت الحصول على تأشيرة سياحية للإسراع بالإجراءات..

– سنحتاج لتوصيف مكتوب لأسباب الرحلة، والمدن المُراد زيارتها. سيعزِّز من موقفكَ أن تُلحقه بدعوة من جهة العمل التي ستستقبلكَ.

حدجها بفراغ صبر: «هذا ليس مُتضمّنًا في الإجراءات المُعلَنة للحصول على تأشيرة، وليست سَفرتي الأولى لألمانيا كما تقول أوراقكم، بل إنني أقمتُ في بون لثلاث سنوات في الماضي، فما الداعي لهذه التعقيدات؟!».

– على رِسلكَ سيد رسلان، لم تعُد الإجراءات كما في الماضي، وما تُسمّيه تعقيدًا من شأنه حمايتكَ وحماية زوجتكَ السابقة من أخطار الأصوليّين وأعداء المدنية.

أمسكَ لسانه عن التعليق، وسألها إن كان ثمة نموذج لملئه بالتوصيف المطلوب، فناولتهُ قلمًا وورقة بيضاء فارغة، وانشغلت بشاشة حاسوبها إفادةً بانتهاء المقابلة.

***

في طريق عودته إلى الوكالة، ساور القلق ذاكر من تعذُّر حصوله على التأشيرة في الموعد المأمول. الأمر لا يحتمل التأخير، ومستقبل الوكالة على المحكّ. ثمة بدائل تملكها هيلجا بالتأكيد؛ تأشيرة

علاجيـة، دعـوة لحضور مؤتمـر أو مهرجان، شـيء من هـذا القبيل.. لا بـد أن يتَّصـل بها، ولكنه يحتاج لترتيب أفكاره أولًا. ماذا لو فشـلت المحاولة؟ أو نجحت، ثم فشل في إقناع المؤسسة باستمرار التمويل؟ كيف يضمن مسـتقبل الوكالة؟ يلزمه حل مؤقت يوقِف اتسـاع الصدع ويحمـي الواجهة الخلفية من الهبـوط، كما يمنع مياه الصرف الصحيّ التي تسـري أسـفل قواعدها كصديد الأسـنان. الفكرة لم تختمر بعد، ولكنها تُلح عليه كمُتسوّلي الأسواق. يُدرك ما ستجرّ عليه من متاعب، ولكنهـا الضرورة. «الضـرورة!» ردّدها ذاكـر بتهكّم مَغيظ؛ اسـمٌ آخر للشـر الكامـن في الوجود، والـذي ينبني عليه نظام الكون. سيسـتخير الله مرة أخيرة قبل حسم الأمر، وإن كان يميل لهذا الحل الآن أكثر من ذي قبل. أقل القليل أنه سيُهش ذئاب الحي بعيدًا عن أعمال الإصلاح، وسيُغشّي أعين الأوقاف والآثار فلا تُفتح أدراجهم.

حل معقول هدَتهُ إليه اسـتخاراتُه المتكررة؛ سـيُقيم ساترًا «شرعيًّا» لا يُمكـن إزاحتـه، مظلّـة بطـول الواجهـة الخلفيـة قوامهـا الحديـد والأسبِسـتوس، تقي المُصلّين شـمس الصيف ومطر الشـتاء، ويُغطَّى الرصيف أسفلها بحصير أخضر من مسجد الجمعية الشرعية المقابل، ثم تُقام بمحاذاتها دواليب خشبية لحفظ الأحذية والمصاحف، بارتفاع عـالٍ يُـداري أعمـال الحفـر وتدعيـم القواعـد بالقمصان الخرسـانية المسـلحة، كما تُثبَّت بامتدادها مكبرات صوت تذيع الدروس والقرآن باسـتمرار. بهذه الطريقة سيُعينُه أصدقاؤه السلفيّون على مداراة أعمال الترميم، فيما يكتسـبون هم مجالًا لتوسيع رقعة مسجدهم الصغير، بل

واستقطاب عدد أكبر من المصلّين على حساب مساجد الأوقاف.. الضرورة تُقلِّص الخيارات، والسلفيّون لن تعوزهم فرص التوسُّع سواء كان ذلك عن طريقه أو أي طريق آخر. «لا حلاوة بغير نار»، هكذا قال بصوت خافت، بينما يُربِّت ساق السائق الحائرة فوق دوّاستي القيادة. هذه البسمة العالقة بوجهه هي أكثر ما يميّز سائقه، فدائمًا ما يلزم الصمت حتى يُقدّم ذاكر مزيدًا من الشرح حين يُريد. أما ميزة السلفيّين فهي صعوبة إزاحتهم. هذه حلاوتهم، فلن يقترب ذئاب الحي من مظلة تُقيمها الجمعية الشرعية، ولكنها في ذات الوقت نارهم، فهم سيسعون لدقِّ أوتادهم أعمق وأعمق مع كل عمود في المظلة. حتمًا سيثير هذا الحل حفيظة رحمة، ولكنه يختار ما فيه صالح الجميع. سيطلب منهم المقابل مُضاعفًا نظير هذه الفرصة؛ لن يكتفي بأن يقوموا بأعمال الإصلاح على نفقتهم، بل سيُطالبهم بكفِّ صغار مشايخهم عن قذف الوكالة والطريقة بالخُطَب النارية، التي تنال من الصوفية وتلعن الآلات الموسيقية. سيُطالبهم بحسن الجوار واحترام المصالح المشتركة. اطمأن أخيرًا لجدوى هذا الحل، وإن ظل القلق يطن في عقله بجملة متكرّرة: «إلى أي فخ تستدرجكَ الأيام يا ذاكر، يا ابن رسلان الديناري؟!».

9

لمـاذا تصـوّر أن ثمـة مجـالًا للحديث مع غربـاء كأبويـه؟! جميع ذكرياته تقول العكس، تُؤكد أن الغربة تنصب أسـوارًا بين المتحدّثين، أسـوارًا من سـلك شـائك أو زجاج مُغبَّـش كاتم للصـوت، يضطرهم لرفـع أصواتهم أعلى من المُعتاد، وصياغة عبـارات أقصر من اللازم، ثم تُلجِئهم للصمت. الصمت بيت الغرباء، أما الحديث فسـفَر شاق.. «نعـم. لا. نعم. لا أسـمعك جيدًا. صوتكَ يصلنـي مُتأخرًا. فلنتحدّث لاحقًـا. انتبِـه لنفسـك. لا إله إلا الله. سـلام». كيف يُحـاور أمّه الآن، بعدما أمضى عشرين سنة ينحت كلامه معها في صخرة صمت هائلة؟ ليس ثمة هويسٌ يُفتَح فتنسـاب الكلمات. بـل إنها تتكلَّس مع الوقت. لذلك صمتت أمُّ زياد حين فاتحها في مشروعه، ولذلك تبعثرت كلماته حين حاول إقناعها، حتى عاد للصمت واستراح.

أبوه يخشـى عليه، لا يثق في حسـن تصرّفه، سـيُضيع شقاء عمره.. المـال ليس كل شـيء.. عليـه ألا يتحدث عن أبيه بهـذه الطريقة، تلك الحدأة أجبرته على الزواج بها، سـيتركها ذات يوم، علينا ألا نخسـره، ألا نغضبـه، ليـس لنا سـواه.. الآن فقط، لم يعُد له سـواه! الآن، تخلى المال عن كونه كل شـيء، وصار أبوه- بحنان بالغ ومفاجئ- يخشـى

عليـه! والمطلـوب منه أن يبتلع هذا الحصى بِريـقٍ جاف، دون أن يُفنّد أكذوبـة واحـدة!! لـم يجد أمامه إلا تـرك البيت، خاصةً وقـد تأكد من خلـوِّه من المجوهرات والحُلـيّ، والعودة لفراش مبروكة المُنكشـف للريـاح والأتربـة. مكتوب عليه أن يملـك أبوه الكثير، بينمـا يعاقر هو العاهرات ويتدبّر طريقة لبيع أجسادهن، قبل التفكير في التلذّذ بها.

فـي غمرة البؤس هـذه، خطرَ لذهنه الزبون الكويتي؛ شـاب لطيف يصغره بقليل، ينضح بالبهجة والشبق للحياة، يغوص في معمعة الملهى وهيجانه كل ليلة، يسـامر الجميع، ولا يُعير بالًا لفروق سـِّن أو تفاوت طبـع. يضحك ملء شِـدقيه، ويعُبّ الخمر من طـاولات الآخرين، ثم يأمر بالزجاجات للمحيطين كأنها آخر ساعة سعادة في رصيده. تعرف إليه زياد منذ أيام، راقبه وهو هائم أسـفل المسرح يُشاكس الطاولات. حاولـت إحدى الراقصـات لفت انتباهه، فلم يُعِرهـا اهتمامًا. فيما بين الفقـرات، وبينما كانت الراقصـة غائبة لتبديل بدلـة الرقص، راح زياد يدق نغمات ذات إيقاع خليجي، مُسـدِّدًا نحو الشـاب نظرات مُتهلّلة، فإذا به يسـتجيب مُلوّحًا بكأس مُتأرجحة. أدرك التقاطه للطُّعم، واعتبر تلويحه دعوة لمشاركته الشراب. أنهى فقرته واستأذن مدير الصالة في النـزول إليها حامـلًا العود، حيّاهُ عن قـرب بذات النغمـات التي لفتتهُ مـن قبل، وأخذ يقترب ولا يزال مسـتمرًّا فـي العزف، حتى توقف أمام طاولته.

أفاض علـى الكويتي إطراء مرحًا، فسـأله: «أتحفظ ألحانًا خليجية أخـرى؟» قال زياد: «بإمكاني عزف أي أغنيـة دون حاجة لحفظ». بدا

الحمـاس على الشـاب وهو يقول: «أسـمِعنا شـيئًا آخـر». تراجع زياد بكرسـيّه قليلًا وشـرع يعزف الأغاني تباعًا، يتنقّل بينها بحرفية مُعتمدًا علـى إيقاعهـا الثابـت. توقف بغتة وسـأل جليسـه: «أترغب فـي تعلُّم العود؟».

– لـي صديـق ماهر في الدق على العود، أمهر منك، نسـهر معًا في الديوانيّـة كل مسـاء، نلعب الورق ونسـمع الموسـيقى ونتبادل مقاطع الڤيديو.. سأسجّل لكَ مقطعًا أدخِلكَ به التاريخ.

أخذ الكويتي يضحك بصفاءٍ مع صديق نحيف يتناول المكسّـرات بـلا توقُّـف. تعجَّـل زيـاد الدخول فـي الموضـوع: «أتحـب أن تُهدي صديقكَ عودًا مميزًا؟».

– هل تُسمّي ما تبيعون في مصر أعوادًا؟! العود العراقي أو السوري يفوقها بمراحل.

– مـن قال هذا؟! هـذا كلام غير العارفين. أفضـل العيدان تُباع في مصر.

«أنـت خبير إذًا!» تهكّـم الكويتي. «بالطبع»، عاجلـه زياد، «أغلب زبائني من خيرة العازفين في الكويت، ومن العراق ذاتها».

«مـن العراق؟ تُـراكَ تماديـتَ يا مصـري.. عادتك ولّا تشـتريها!» ضحك ثانيةً.

ببساطة قال زياد: «كما تُحب».

– إن كنت خبيرًا بحق، قل لي كيف أحصل على عود مرتفع الصوت.

– حجم الصوت ليس بهذه الأهمية، فدائمًا يمكنكَ استخدام مايكروفون.

– عُدنا لفتاوى المصريين! أتظنني لا أعرف أن بإمكاني استخدام مايك؟ ماذا دهاك يا رجل؟! تهرّب من السؤال بطريقة أذكى..

تقبّل زياد مزاحه بمودّة، وقال: «أنا عوّاد محترف منذ ما يقرُب من عشر سنوات، أتعامل مع أفضل صُناع في الوطن العربي، أمكث في ورش التصنيع أطول من بيتي. أهم ما يُميِّز العود الجيد تكامل أجزائه، الانسجام فيما بينها، والسر في ارتفاع الصوت ونقاوته يكمُن في اهتزاز الوجه؛ حُسن انتقاء الوجه وتجفيفه يضمنان صوتًا ممتازًا.. هذا كل شيء».

علَّق الكويتي بعامية مصرية متعثِّرة: «ده انت طلعت أستاذ يا عم، وانا كنت ظالمك!» ضحكا معًا. أسهب زياد في الحديث عن صناعة العود وجودة الأخشاب، كيف أن الصناع المتميزين يشترون آلات موسيقية قديمة من صالات المزادات، يفكّون أجزاءها ويتخلّصون من المعطوب، ثم يُبدِعون في استخلاص أجزاء العيدان منها. هكذا يضمنون أعوادًا ذات خشب جاف ورنّان. تحدّث باستفاضة تشي بالثقة، واحتفظ لنفسه باقتراح أخير حتى اطمأن لكونه لم يرِد في ذهن جليسه. باغته أخيرًا: «لِمَ لا تشتري عودًا كهربائيًّا؟» طفرت عينا الكويتي بالحماس، ولمح زياد لحظة تحوّله من شاب هازر لزبونٍ مُحتمَل، حين قال: «أرِني واحدًا»..

جرفـت زياد نشـوة الصيد، ولكنه لم يُسـهِب فـي الحديث. اكتفى بهـزّ رأسـه ودعوة الشـاب للعشـاء خارج الصالـة. «لا داعـي يا عم»، قال الكويتي بحماسـة البحث عن تسـلية، فأصرّ زياد: «لنجعلها عيشًـا وملحًا». استأذنه ليُبدِّل ملابسه، ووعده بطاولة عشاء مميزة على تخوم القاهرة القديمة، تطلّ على بوابة الفتوح مباشرةً. هناك ضحكا وتواعدا على اللقاء كل يوم.

الآن، بعدمـا فقـد الأمـل فـي أبويـه، يُمكنـه التفكيـر بحريـة أكبر، واستكشـاف الفرص في مجال أوسـع.. لماذا لا يُقنع الشـاب بتمويل مشـروعه؟ سيبيعه عودًا كهربائيًّا، ثم يسـتدرجه لتسجيل مقطع بداخل استوديو التسجيل الصوتي القريب من الملهى. سيجعله يُغنّي ويستمع لصوتـه مصحوبًـا بالصدى، ربمـا يعزف له لحن عيـد الميلاد ويمنحهُ التسجيل هدية لميلاده القادم.. ماذا أيضًا؟ أي شيء. سيفعل أي شيء يُرضيه ويُسلّيه، سيذهب به لسرير مبروكة، سيُقدِّمها بوصفها ياسمين. تذكّـر أن الشـاب لم ترُقـه الراقصة كثيـرًا. من يدري؟ ربمـا لا تجتذبه النسـاء. سيرى. المهم أن الشاب سـيموّل مشروعه بطريقة أو بأخرى. مجموع ما ينفق الكويتي في سـهرتين يكفيه! سـيكون سهلًا إقناعُه، أو صعبًا لا بأس، لقد تعوّد ارتياد الصعاب منذ الأزل.



تحسّـن مزاجه كثيـرًا إذ وصل الوكالة، واشـتمّ بخورها المسـتكيّ الذي يُفزع الشياطين والأفكار المُلِحّة. وصل مُتأخرًا عن حلقة الذِّكر. شـاهد المُريدين ينفضّون منها كأنفاس شـمعة تذوي. أهمل النظرات

المحدّقة نحوه، من وجوه المُريدين الأكبر سنًّا، الذين يفرضون وصايتهم بقانون النظرات والإيماءات. لا طاقة به لنفاق هؤلاء، حتى لو سعوا لتسميم أفكار الشيخ. صار يوسف أهم الجميع الآن، وطالما احتفظ بمودّته واحترامه فليس ثمة خسارة جسيمة.

لمح هايدي في ردهة الدور الأول، وقد دسّت هاتفها تحت نسيج شعرها المهدول. كانت تهمس بحديث خافت لغريمٍ ما. فرسة برية بحق، والفرصة سانحة ليُناغشها ويسحبها لمضماره. وقف قبالتها مُتّكِئًا على السور الخشبي فسارعت بإنهاء المكالمة. بادرها قبل أن تُغادر: «أظافركِ المصقولة هذه خسارة في عفق الأوتار»..

قالت بلهجة قاطعة: «أُفضّل أن أتخلّص منها إذًا، فعفق الأوتار أهم».

- شذّبيها بعض الشيء، وسأجعل منكِ أفضل عازفة على الإطلاق.

- اهتم بنفسكَ أولًا كي تصير أفضل عازف، واصنع لي معروفًا بالاهتمام بشخص آخر.

أنهت عبارتها ومرقت سريعًا نحو قاعة التدريب، تابع زياد قوامها المنحوت مُمنّيًا نفسه بانتصار وشيك، دلف وراءها ورمق دائرة الكراسي نصف الممتلئة، انتقى كرسيًّا بين هايدي ونادر، تاركًا مقعده الخالي بجوار يوسف. بعد قليل امتلأت المقاعد، وفرغ يوسف من مُطالعة أوراق كانت رحمة قد جلبتها، فاستأذنهم كي يبدأ الدرس.

«ثانـي مقامـات الطريقـة هـو الحجـاز.. ليس مقـامَ بكاء وحسـرة كالصّبـا، ولكنه مقام شـفقة وحزن نبيـل، أقرب ما يكون لحـال التوبة والإنابة إلى الله. هل بيننا من يعرف لحنًا من مقام الحجاز؟»

«أقول أنا؟».. مازحه زياد، فأومأ إليه لكي يصمت، وطالعَ الآخرين. بتردّد قالت هايدي: «أعرف لحنًا، ولكنه لأغنية شهيرة وليس ابتهالًا!» فسارع زياد: «عظيم جدًّا، اذكريه!» لمحتهُ بجانب عينيها وعادت تنتظر التصريح من يوسـف، الذي علَّق باسـمًا: «وما المشـكلة؟ لا فرق بين أغنية وابتهال، فالموسيقى لغة وجدان، لنا أن نفهمها كما نحب».

بثقـة مهتزّة قالت هايـدي: «إذًا: الحلوة دي». هلّل زياد: «الله! الله عليك يا شـيخ سيد!»شزرَتهُ غير مُرحّبة بتعليقه، بينما أشار يوسف إلى عود التدريب، وسأل زياد أن يحضره ليعزف مطلع الأغنية. دارى زياد أثـر المفاجـأة، وبعجالة جذب عودًا من نادر وقـال: «لن أضيع الوقت في دوزَنة عود مُهمَل.. معنا عودٌ جاهز».

شـرع يعـزف اللحـن بطريقة جافـة، متوترة، حتى قال يوسـف بعد برهـة: «يكفينـا هذا القـدر، ربما لو قُـدّر لمولانا الموصليّ أن يسـتمع لهذه الأغنية لاستشـعر فيها روعة الفجر، عجين الخبيز، دفء الأفران والأسِـرّة، وأذان وديكة وأصوات تفُوه بالتـوكل على الله.. هكذا كان مولانا يفسّـر الكلمات». صمت لبرهة ثم أكمل: «دعونا نسـتمع لسلم الحجاز.. لنُنصِت معًا».

10

لـو قُـدِّر لـكَ أن حضـرتَ يومًا حلقـة الذِّكـر، فلا تُسـرع بالذهاب فـور انفضاضهـا. تلكّأ قليلًا، إذ ربما تُغريـكَ أحاديث الكبار للمكوث والاسـتماع. ستسمع أحدهم يسـرد حكايات عن الموصليّ وأحواله؛ يحكي كيف كان الشـيخ يتذوق لذة الوجد في أغانٍ شـعبية، يتغنّى بها السّـوقى فـي حانات الليـل.. كان يتربّـع لصق مداخلهـا، ويحفظ عن روّادهـا ما يغنون من أشـعار، ثم يحمـل معانيها على مـراده الخاص. سـيقصّون كيـف كان العسـس يمـرّون عليـه، فينهرونـه علـى انتحاله سمت المشايخ بين المخمورين، ويزجرونه بعيدًا. ثم يمرّ عليه مُرتادو الحانـة، فيدعونه لمجالسـتهم بالداخـل. سـيقولون إن مولانا لم يكن ليصُـدّ أولئك ولا هؤلاء، بل كان يقـول لصَحبه إن ثمة برزخًا بين باب الدخول وطريق العودة، من يأنس إليه يعرف الكثير.



في يوم مشـحون لهذه الدرجة، يكون طبيعيًّا أن يهرول مُسرعًا عبر الأزقـة الضيقـة، أن يصطـدم بالباعة والمـارة، ويعتذر من رجل مُسِـنّ يصيح بالسباب إثر صدمة أفزعته، أو يفوته أن يُحاذِر من مياه التكييفات المُتساقطة كالمطر، ولكنه يبقى من غير المنطقي أبدًا، وفي خِضَم تلك

الرحلة العصيبة، أن يتذكر أباه. قبل ساعات، وأثناء محاولة فاشلة لتصوير أبحاث تُعينه في رسالة الماجستير، بشّرته زينة بحجز مكانه بين عازفي الأوبرا.. حصلت له على موعد لإجراء مقابلة روتينية، تمهيدًا لتعيينه مع أول انعقاد للجنة التعيينات. كعادته، ارتجف قلقًا لذكر المقابلات الشخصية، ولكنه اطمأن لإمكانية تحقيق حلم أبيه بأن يراه أشهر «صوليست» عود. لا بد أن يعتذر لأمه لاحقًا أمام قبرها، فلطالما تمنّتهُ تاجرًا مُتخم الجيب بالنقود، كأخوالها تجار قطع غيار السيارات في ميدان الجامع.

قرأ يوسف الفاتحة لأبويه أسفل القوس الحجري، إذ وصل الوكالة. طوى ذكراهما الناعمة بلفظة «آمين»، ولا يزال العرق المالح ينزُّ من جبينه ويحرق نسيج عينيه. ألحق نفسه سريعًا بحلقة الذِّكر التي شارفت على البدء. سدّد نظرة خاطفة صوب حاصلة خلفيّة مُخصّصة للفتيات، فلم يلمح رحمة. لم يعُد يُمضي معها ما اشتهى من الوقت في الأيام الفائتة، رغم ابتهاجه بمشاعرها التي صارت تُفصِح عنها أوضح من ذي قبل. صارت أعباء يومه فوق ما يحتمل، منذ قلبت زينة حياته رأسًا على عقب. فبالإضافة لانشغاله بتجاربها الإلكترونية واختراعاتها التي باتت تُطلعه عليها كل مساء، كان يترقّب لتعيينه في الأوبرا بتوصية من معارفها. انشغل أيضًا بالعزف يوميًّا مع صديقها الألماني، الذي أوصته أن يرصد ليوسف راتبًا أسبوعيًّا يفوق ضِعفَي معاش أبيه الشهريّ. وكي يتمكّن من إنجاز مهامه دون إهمالٍ للماجستير، وضعت له برنامجًا يوميًّا لا يشمل فراغًا لالتقاط الأنفاس..

مـع أول النهار، وقبل أن تُعلن الشـمس جديّتها فـي إذابة الوجود، يكـون جالسًـا منتصب الظهـر في اسـتوديو التسـجيل، يحتضن عوده ويرمق إشـارات مهندس الصوت. مـا إن ينتصف النهار حتى تمرّ عليه زينـة، فتصحبـه لغداء عمـل تتحمّل نفقتَه شـركة الإنتـاج، كل يوم في مطعم جديد يُقدّم قائمة طعام مُلغِزة. بعد العصر توصِله لأقرب محطة ميكروبـاص، كـي يهرع إلى الوكالـة ويلحق بالكاد بحلقـة الذِّكر، كما فعـل قبـل قليل. ثم يُلقي الـدرس بعجالة ويترك لزياد مهمة اسـتكمال التدريبـات، ويذهـب سـريعًا لمقهـى الزمالـك، حيث أعـدّت له زينة غرفـة بيضـاء مُجهـزة بطاولة مكتـب وكمبيوتر مُدمج يتصل لاسـلكيًّا بلوحـة مفاتيح رقيقة و«ماوس» مبطّط، كلها في بياض سـحابة صيف. يبقى لسـاعات في عُزلـة الغرفة، في رحاب المكيّـف الصموت وعبق الإسبرسـو الدوبل، يقرأ مراجع تاريخية تشـتريها زينـة عبر الإنترنت، تتناول موسيقى الشرق من عدّة زوايا.

تأمّـل ما ينتظره من روتين هذا اليوم، وزفر تنهيدةً تطلب المدد، في حين نقر الشـيخ الضرير أوتاره كعلامة على الشروع في الذِّكر. أمسك يوسف بالعود سريعًا وتأهّب لمتابعة الشيخ، الذي ضرب الأوتار تباعًا صانعًـا تآلفَ نغمات افتتاحيًّا. لحِق به سـائر الذاكريـن بصعود مُتناغم لسـلم الصَّبا وصولًا لدرجة الجواب، حيث ارتكزوا معًا في أنّة طويلة وموجِعة، ثم هبطوا السلم رجوعًا نحو القرار الباكي. هنا استلم الشيخ الضريـر الزمـام ثانيـةً، واعتصر جملة شـجيّة على مقـام الحجاز، راح فـي إثرها المريدون يرتقون السـلم صوب الجواب الشـجيّ، وهبطوا مُسلِمين أرواحهم لشعور عميق بالأسى.

ضبط يوسف نفسه شاردًا عدّة مرات، كما استشعر فارقًا طفيفًا في دوزانه أوقفه عن نقر الأوتار. كان بإمكانه ضبط أوتاره سريعًا ومعاودة الذِّكر، ولكن ثمة شيئًا مفقودًا حال بينه وبين اندماجه الكامل. أدرك كذلك تأخّره عن صلاة العصر، فأنام الريشة على وسادة المفاتيح، وانسحب من الحلقة مُتجهًا صوب الميضأة. غسل وجهه، وسكب الماء فوق رأسه مُطفئًا حرارتها، ثم خلّل أصابعه بين خصلات شعره وخطا وئيدًا فوق حصير المُصلّى المُتآكل.

حين سلَّم خارجًا من الصلاة، لمح كفًّا تمتد نحوه، فإذا بأستاذه يجذبه ويشدّ على يده. كان وجهه شاحبًا وعيناه منطفئتين على عكس طبيعته. سأله يوسف إن كان قد وُفِّق في الحصول على التأشيرة، فقال: «ليس بعد». سأله متى السفر، فأجاب بأنه قد يُضطر للتأجيل بعض الوقت. لاحظ مشيته المتثاقلة، ففهم أن آلام الظهر عاودته. سأله: «لماذا لا تستريح في البيت قليلًا؟».

– سأفعل، ولكني جئتُ لأُتمِّم اتفاقًا مُسبقًا مع الجمعية الشرعية؛ سيقومون بعمل مظلة خلف الوكالة تخدم المصلين في مسجدهم، فعددهم يفوق استيعاب المسجد وقت صلاة الجمعة، ولسنا في حاجة لرصيفنا الخلفي.

– أيستدعي أمر غير عاجل كهذا حضوركَ وأنت مُتعَب؟!

– حضرتُ لأُسلّمكَ المسؤولية يا بنيّ، فقد أغيب لمرض أو سفر وشؤون الوكالة لا تنتظر. هذه مفاتيح البوابات، أريدكَ أن تتعاون مع إدارة الجمعية الشرعية لإنشاء المظلة، وفِّر لهم الكهرباء والماء، ولا تسمح باستخدام الداخل في غير وجودك.

- سأفعل.. عليكَ فقط أن تستريح.

حـرّك ذاكر حبة إضافية في عداد مسـبحته، وقال: «أرجو أن تكون قد وجـدت الفرصة للتفكُّر فيما قلناه». ابتسـم يوسـف وظـل صامتًا، فأكمـل ذاكر: «أريدكَ أن تنتبه لأمـر آخر؛ لا تضع جلَّ ثقتكَ في زياد». تعجّب يوسـف وقـال: «زياد صديقي منذ أمد، ولـم أرَ منه إلا الخير». تبسّـم ذاكر قائلًا: «عليك بالحذر، زياد طائش، قلبه يمور بما لا يُفصح به، وعيناه تبوحان بشيء مُقلِق».

بفتور قال يوسـف: «سـآخذ حـذري». ربّت عليه ذاكـر ورنا يرمق الفراغ، فعاوده يوسـف: «ألا زلتَ غاضبًا مني؟». قال: «لسـت غاضبًا يا ولدي، أنا حريص عليك حرصي على الوكالة، فلم يرزقني الله ولدًا يرث الرسـالة، ثـم رزقني بك. الرسـالة حمل ثقيل، والعبـث بها يزيد التكليف صعوبة».

- لم أقصد العبث، وإنما التجربة..

- خطـأ كبير.. تلك مسـالك الشـيطان يُزيّنها لك. عُـد لما درجتَ عليه، وإياك وإعفاء المريدين من حلقة الذِّكر.

- أسـتاذي، ليسـوا مؤهلين بعـد.. أكثرهـم لا يُحسِـن العزف ولا يُدرك المغزى.

- ليس مقصودنا حُسـن العزف يا يوسف، ولن نعرف أيّنا الأصدق في الذِّكر.

- هو كذلك، سأفعل كما تقول.. يكفيني أن منحتني ثقتك.

- لا جديد في ثقتي فيك، وإلا لما منحتكَ التوجيه والمفاتيح. ولكني أرى بذرة الشك المغروسة في قلبك، وأعرف أن لا سبيل للخلاص منها دون تمحيص. ولكن، ثمة مخاطر في التجربة أحاول أن أعفيكَ منها.. الشك منظار للعقل يا ولدي، يرى به ما احتجب عنه، ولكنه أيضًا بوصلةٌ للضياع.

تفكَّر يوسف لبرهة، ثم قال: «سأتذكر ذلك». عانق أستاذه طويلًا، وتابع مِشيته المتثاقلة بينما يرقى للدور الأول، مُتسنِّدًا على الجدران الحجرية. أحسّ باليأس يجتاحه من سبل مجهولة، ولم يجد في نفسه العزيمة للحاق بالذِّكر. تمشّى صوب البئر الجافة، تأمّل حافّتها الحجرية التي صقلتها السنون، وحمّمتها أشعة الأصيل الأرجوانية فبدت كمسبحة مستديرة من كهرمان. أزاح غطاء البئر بصعوبة ورَنا لجوفها المُظلم على الدوام، مهما طوَّفَت الشمس بمَداراتها. تذكّر كيف يقول البعض إن الموصليّ مدفون في قاعها، وإنها استمدّت البرَكة من وجوده لقرون. تساءل: لماذا شحّت البَركة إذًا؟ ماذا لو أطلّ الشيخ من جوف البئر واستطلع أحوال مُريديه، وزَعَق في وجه زينة مؤكّدًا وجوده؟ أقعى بجوار العود مُسندًا ظهره لجدار البئر، طارحًا أوجاعه فوق سطحها الأملس. تسلّلت إليه طنطنة الأذكار كخرير ماء يسيل هدَرًا. التفت نحو البوابة الخلفية الواقفة على بُعد أمتار، مُحتجِبة بأستار الظل. بدا مزلاجُها الصدِئ كضمادة سوداء تُغلِق جرحًا قديمًا.

سيعود بعد انتهاء الدرس لغرفة المقهى، سيغوص مجدّدًا في أكوام ورق تجلبها زينة، لا يوزَن بجوارها الفُتات الذي يحصل عليه من مكتبات الجامعات، ولا بما أمكن رحمة أن تجمعه من مكتبة أبيها. نسخ ورقية وإلكترونية من مؤلفات الكِندي والفارابي، دراسات عن إخوان الصفا، وأخرى عن ابن الطحّان، أجزاء من كتاب الشفاء لابن سينا، وأكثر ما سطرهُ صفيّ الدين عبد المؤمن عن موسيقى العرب. من جديد، سيُربكه التناقض بين حداثة الغرفة البيضاء كغمامة والكتب المشرّبة بظلال الزمن، التي نقشتها أصابع مصبوغة بِحِبر السُّخام ومسحوق الكربون. سيتأمّل بدهشة كتاب «الفهرست» لابن النديم، و«مفاتيح العلوم» للخوارزمي، وكتبًا عن مقامات إيرانية ساسانية ومقامات عربية قديمة غير معروفة اليوم، بعضها من نَسخ وترجمة مؤلفين يهود وأسبان.. وفي خضم تيار المعلومات الهادر، ومع هذا التوثيق الدقيق لأعلام الموسيقى في الأزمنة البعيدة، لن يقع على ذِكر للشيخ الموصليّ، لا بين موسيقيّي العراق ولا مشايخ مصر! هذا ما حدث في الأيام السابقة، وهذا على الأرجح ما سيحدث اليوم.. سيتساءل كما تساءل من قبل: كيف لمؤسس طريقة عابرة للزمن كطريقة الموصليّ، وصاحب إنجاز موسيقيّ يوصف بالإعجاز، أن يتغافل عنه المؤرِّخون والدارسون، بينما يُدوِّنون أعلامًا أخرى بدقة مُذهلة؟! عليه أن يتوقّف مؤقتًا عن البحث، ويعود للاندماج في حلقة الذِّكر. غدًا سيحاول من جديد، لا حاجة للتعجّل في الذهاب للمقهى؛ المزيد من البحث لن يُحقِّق مزيدًا من الإنجاز اليوم، بل مزيدًا من الشتات.. من القلق واللايقين.

في الليلة الفائتة، صدمته زينة برؤيتها؛ «لا بد أن الشيخ بكليّته خرافةٌ من خرافات الماضي». كذا قالت بينما تُشعل سيجارة تركيز. قال بثقة مشوبة بالتوتّر: «مستحيل طبعًا». ابتسمت قبل أن تقول: «لا تقفز لأحكام مُطلقة. فكِّر في الأمر».

قرّر أن يلتجئ للورشة، طالما استحال اندماجه في الذِّكر عصيًّا لهذه الدرجة. وجد الأسطى يُشذِّب مفاتيح العيدان باستغراق أقرب للتبتُّل. جلس يُتابعه دون أن ينبس بكلمة. بعد قليل لاحظ الأسطى وجوده، لمحهُ بجانب وجهه المُشعِر الخالي من التعبير، واستمرّ في تسوية مفاتيح مُتطابقة في الشكل والحجم بتكرار بدا أبديًّا، حتى شرع في المرور عليها بقُطنة مُشبّعة بالصباغ، فمنحها سمارًا برّاقًا يُبرز انحناءاتها ويزيد من ألَقها. ذكّرته أصابع الأسطى بأنامل مُدوِّني المراجع القديمة، الذين غفلوا عن ذِكر الموصليّ، فسأله: «عم عبيد.. ماذا تعرف عن الشيخ الموصليّ؟».

قال العجوز كمن يَكسر صيامًا: «ما يعرفه جميع الناس».

– أ.. ألم تتشكّك يومًا في وجوده؟

توقّف الرجل عن صبغ المفاتيح، واستدار يرمق يوسف بنظرة بكماء، قال أخيرًا: «لو شككتُ في وجوده لشككتُ أيضًا في وجودنا أنا وأنت، هنا في رحابه».

– ولكني لم أجد أحدًا يذكره، باستثناء المريدين من أتباعه.

– وهل أدَلّ عليه من الوكالة التي عمَرَها، والطريقة التي علّمها؟ ماذا دهاك اليوم؟!

– لا شيء يا عم عبيد، مـ.. مجرد تساؤل عابر لا أكثر.

– ما عابر إلا ابنَ آدم. كلنا عابرون. الوكالة هي الباقية. وشيخ الوكالة.

«نعم سيدي، صدقت».. قال يوسف، شاعرًا باستعجاله طرح السؤال. عاد الأسطى لصبغ مفاتيحه بلون أصابعه، فنهض يوسف حاملًا عوده. طرح مفتاح البوابة الخلفيّة أمام الأسطى، وطلب إليه أن يُسلّمه لزياد حالما يظهر. خرج شاردًا فيما أقدم عليه. هل بإمكان زياد أن يتحمّل مسؤولية التدريب؟ لا بد من تجربته، وإلا فشل مسعاه في التوفيق بين الأعباء.

سيرى كيف تسير الأمور..

***

11

«أقسمتُ بالله ألا تخطو خطوة أخرى خارج الباب! لستُ ضيفًا يا حاج أعزّك الله»..

برَّ ذاكر بقسَم الشيخ أيمن، صافحهُ أمام باب المكتب وتركه يخبّ سريعًا نحو الخارج. تأكّد الآن أن السلفيّين لا يكتفون برصيف الوكالة، بل يسعون للاستئثار بعدة حواصل خلفيّة أيضًا. لمَّح الشيخ لأعباء الترميم بعبارات لا تتوارى، أعلن استعداده لتوفير المزيد من التمويل لصالح الوكالة، ولكن.. «لماذا لا تعُمّ الفائدة عددًا أكبر من المسلمين؟ الحي بحاجة لمركز طبي يخدم الأهالي، الذين ترفض استقبالهم مستشفى الحسين الجامعي. تصوّر يا حاج؟!» كان يُبدي اندهاشه كما لو كانت أحوالًا مفاجئة، ثم قالها بصريح العبارة: «لماذا لا تؤجّر لنا الورشة والحواصل المجاورة، فينتفع الناس؟نحن مستعدّون لأي أجر ترتضيه».

– يستحيل طبعًا. الورشة هي الوكالة يا شيخ أيمن، والوكالة هي الورشة.

– باستطاعتكم شراء المعازف من ورش أخرى، فتفتحون أبواب الرزق لصنّاع آخرين.

– عفوًا يا شيخ، أرجو ألا تزجّ بكلمة معازف في حديثك إليّ؛ نحن نسمّيها آلات.

ضحـك الشـيخ، وتهكّـم قائلًا: «هل أسـميتها من عنـدي؟! هكذا أسماها رسول الله: المعازف».

– هذا تفسير مشايخكم لحديث رسول الله، أما نحن فلنا فهم آخر. نحـن نصنع آلاتنا ولا نشـتريها، نبـذر فيها أرواحنا ونبتغـي بها مرضاة الله، تمامًا كما تُشذّب أنت مسواكك!

عندهـا تمتم الشـيخ باسـتغفار صامـت، وأغمد مسـواكه في جيبه وقام مُودِّعًا. عاد ذاكر لمقعده الأرابيسـك مستقيم الظهر. داهمتهُ غارة جديدة من آلام الظهر، قصفت بهمجيّة فقراته القَطَنيّة، وتسلّلت لقدمه عبـر باطن فخـذه. اتّكأ على المسـند مُحاوِلًا تفاديهـا دون جدوى. ما عـاد الألـم يتوارى كمـا كان في السـابق. حتى تحت غطاء المسـكِّن، صار يجد ثغرةً بين الفقرات لينفُذ منها وينشـب مخابله. حاول تناسـيه بالعـودة لمطالعـة الألبوم، الـذي واراه حين دخل الشـيخ. جذب آخر أدراج المكتب وسـحب الألبـوم من قاعه. يزيد عمـر هذه الصور عن عمر رحمة بخمس سـنوات. بون الجميلة، جنة ألمانيا الموعودة. كان طويـلًا ويافعًا كآدم، ولن تكون حواء أجمل من هيلجا. ابتسـم لمرأى شـاربه الأسـود المنمّق، ولم يجد أثرًا للحيته البيضاء؛ كأن جلد وجهه خُلِق للتوّ. اسـتوقفته صورته أمام تمثال بيتهوڤن في حديقة الخالدين، يُحاكـي وقفة الموسـيقار النابـغ المزهو بعظَمَته. صـورة أخرى تحت سـقيفة من أشجار الكَرَز المُزهِرة، كان الأطول قامة بين رفقاء الرحلة،

يمـد ذراعه عن آخرها مُطاوِلًا سـحابة ورودٍ تُظلّل الشـارع. صورة مع هيلجـا أمـام الأوبـرا؛ أول عهده بالحـب والحياة. كان مُزهـرًا كأزهار الكـرز، كوَجنتي هيلجـا المُتوهّجتين بالدفء. عيناه تنظـران للكاميرا بامتـلاء واثق، تـودّان لـو تحتضنان العالم بنظـرة أبديّة. صـور لهيلجا وقد اعتلت منصّة المايسـترو فوق مسـرح الأوبرا، شقراء كزهرة نُوّار، كسنابل القمح الذهبية.. كم بدّلتهما السنون.

«بابا.. كيف حالكَ الآن؟» لاحت رحمة عند الباب، في عينيها نظرة مُلتاعـة. حاول النهوض كي يُطمئنها. «حبيبتي أنا بخير. إنه الغضروف اللعين، يتربّص بي منذ صلاة الفجر». أمسـك بذراعها الناحل ونهض مُتّكِئًـا على الطاولـة، مُحاولًا مدّ قامته لأبعد ما يسـتطيع. اسـتند على كتف ابنته حتى بلغ الأريكة. استدارت رحمة لتحضر الألبوم، وعادت بـه إليه. جلسـت بجـواره تتأمـل الصـور بينما تقـول: «كـم تمنّيت لو تأخذني معك في سفراتك».

– أخشـى أن أتركَكِ وحيدة. متعة السـفر في الصحبة والتنقّل، وأنا لا أملـك وقتي كمـا تعلمين. الطريـق يملكني في الحِلّ والسـفر على السواء.

طالعَت صوره بوجوم، فأردف باسِـمًا: «سأخصص سَفرة لأجلكِ وحدك، أعِدكِ بذلك». ارتاحت قسـماتها. أراحت رأسها الصغير فوق صدره فربَّت عليه. سألته: «أين اختفى هذا الألبوم طيلة سنوات؟».

– كانـت أمـكِ رحمها اللـه تغار، فكنـت أخفيه فـي المكتب كيلا تتخلّص منه.

ضحكت قائلةً: «معقول؟!» أومأ مبتسمًا، فأردفت: «لها أن تغبط هذه السيدة الجميلة. ما اسمها؟».

- قصصتُ عليكِ حكايتها من قبل.

- ربما أثناء طفولتي، لم أعُد أذكر.

تناول الألبوم. طالع الصورة قائلًا: «كانت عازفة أوبوا بارعة، ضمن الأوركسترا الألماني المُصاحب لأستاذي عبده داغر، عازف الكمان العالمي. كنت أرافق الأستاذ في سفراته الكثيرة مع مجموعة من أمهر العازفين. كان ذلك قبل التزامي بالطريقة بسنوات.. أيام جميلة، ورائقة».

«يبدو أنها كانت تُهمل المجموعة كلها، وعبده داغر نفسه، كي تلتقط الصور معكَ!» تناسى ذاكر ألمه وضحك حتى ثار سعاله. قال: «ورثتِ عن أمكِ كل شيء، حتى الغيرة!».

- لا تتهرّب يا بابا، كنت طويلًا وسيمًا في شبابك، ولا زلت كذلك إلى اليوم؛ لذلك سأسامحها تقديرًا لضعفها الإنساني.

استمرّ يضحك ويضمّها إلى صدره. «أتعلمين؟ صارت هذه السيدة ذات وضع مرموق، تُدير مؤسسة هامة تدعم الأنشطة الثقافية حول العالم. تقوم بأبحاث ودراسات في أكثر الدول، وتُقنع الجهات المانحة بخطة دعم سنوية. عمل خطير، وأموال لا حصر لها تُديرها السيدة، التي كانت يومًا عازفة أوبوا بارعة».

سـألت بدهشـة: «أهي نفس المؤسسـة التي تدعـم الوكالة؟» قال: «نعـم بالطبع، كما أن هيلجا هي من دعّمتني قديمًا بوثائق ومسـتندات تعود لأيام الاستعمار البريطاني، لإثبات حقوق عائلتي في الوكالة، ثم سـاندتني في الحصول على دعم سنوي افتَتحتُ به مدرسة العود، ولا يزال يصرف على جميع الأنشطة إلى اليوم».

طالعـت رحمة الصورة مجدّدًا، كأنها تسـتوثق من قدرة هذا الوجه الرقيـق على القيام بتلك الأفعال الكبرى. أردف ذاكر: «لم أرغب يومًا فـي تحميلـكِ هموم الوكالـة. أردتُ لـكِ أن تهنئي بحياتكِ فحسـب. ولكنـي صـرتُ قلقًا على مسـتقبل الطريقـة، وأحتـاج لإطلاعكِ على التفاصيل».

قالت بعتاب: «بابا، لا تتحدّث هكذا أرجوك.. أنت تُخيفني!»

«حبيبتي، هذه سُنّة الحياة. مشيئة الله أن تغيب شمس لتطلع أخرى، وأنتِ شـمس ستشـرق يومًا على الوكالة كل نهـار». ظلّت رحمة على حالها، واجمة ومُشـفِقة، فأكمل: «ربما يكون من الجيد أني اضطررت لإرجـاء سـفري لأطلعكِ علـى الموقف كامـلًا. تُنظِّم المؤسسـة التي تُديرها هيلجا اجتماعًا موسـعًا، سـيُعقَد بعد شهرين، تحضره لجنة من ممثِّلـي الجهـات المانحـة، ودَعَتني لكـي أعرض أنشـطة الوكالة التي يُوجَّـه إليهـا الدعم، وكذلك سـيفعل غيري من مُتلقّـي الدعم من كافّة الدول».

– هل حضوركَ وجوبيّ؟

- الدعـوة وديّـة بطبيعـة الحال، ولكن من سـيتهاون فـي الحضور وحُسـن العرض سـيكون عرضة لفقـدان الدعم بالتأكيـد، حين تُصدِر اللجنـة توصياتها. كما أني علمـتُ بطلب جهات بعينها تقليص الدعم الممنوح للوكالة، لحساب جهات أخرى بالطبع؛ لذلك حاولت السفر مبكرًا لأبحَث مـع هيلجا أفضل طريقة لعرض الملفّ، ولكن الله قدّر ما شاء..

- ألا يُمكن أن تُنيب أحدًا للقيام بذلك؟

- يسـتحيل يا ابنتي. الأمـر جلل هذه المرة، ولا يمكنني التسـاهل معه. إنه مستقبل الوكالة والطريقة، مستقبلنا جميعًا.

- إذًا سأسافر معك، لا مفر من هذا الشرط.

- ومـن ينـوب عنـي فـي إدارة الوكالة؟ أثِـق في يوسـف، ولكنكِ صاحبـة الشـأن، أنـتِ سـليلة الموصلـيّ، حتى لـو بخلَت علينـا نقابة الأشراف بشهادة تُثبت نسبنا.

- بابا، لا يمكنني تركك في حالتكَ هذه!

- سأكون على ما يرام إن شاء الله. هيا، دعينا نتّصل بالأسطى غانم ليُقلّنا إلى البيت.

أمام البيت، سـاعدت رحمة أباهـا على الدخول للبناية، ثم خافتت الأسـطى بـأن يُسـلّم رزمـة أوراق وملفّات تركتهـا في حقيبة السـيارة للأستاذ يوسف، يدًا بيد. كانت هذه آخر أبحاث جمعَتها في الموسيقى الشـرقية، وجميـع مقالات أبيهـا وحواراته مع الدوريـات والصحف،

تتنـاول الطريقـة الموصليّة وحياة الشـيخ بتفصيل دقيـق. ضمّت إليها كراسـةً ورديّة اللون، كانت تدوّن فيها ما يُمليه أبوها من سـيرة الشـيخ في المحاضرات، وفي استهلاله لحلقات الذِّكر. لا يبدو البحث سهلًا كمـا تصـوّرت، فما ظنّتهُ أوراقًا لا حصر لهـا تكوّمت في رزمة لم تجد مشـقّة في حملِها. طمأنت نفسها بأن أباها- أطال الله بقاءه- موجود، سـيُكمل الفراغـات البحثيّة حالما تطرأ. المهم أن يداوم يوسـف على البحـث، أن يتوقّـف عـن التيـه بين أرفـف المكتبـات الجامعيـة، بين موظفيـن لا يحفلون إلا بتزجية الوقت وتكدير الدارسـين، لو لم تنفعه هذه الرزمة الأخيرة، سـيكون لزامًا عليهما طلب المعونة من أبيها، هو مـن بإمكانـه توظيف علاقاته لفتـح الأبواب المغلقـة، وبعث الأوراق الخبيئة من دهاليز المؤسسـات. شردت طويلًا في خواطرها، وتناوب عليها شعوران متناقضان؛ من جهة، زهوها باقترابها من أبيها منذ اشتدّ عليـه الألـم، وسـخاؤه المفاجئ في الحديـث عن ماضيـه، ومن جهة أخـرى قلقها من ضبابيّة ما أفشـاه. سـاورها هاجس شـيطاني آخر نثر فـي قلبها المزيد من الشـوك؛ ما الذي حمَـلَ أباها على الإفصاح؟ أهو شعوره بدنوّ أجله؟! أثار الهاجس أعصابها، فدفعَت به لسراديب قلبها قدر المستطاع.

القراء الأعزاء،

أرجو أن تكونوا مستمتعين مثلي بقراءة الرواية حتى الآن، ولكيلا تستغربوا موقفي، فإني تحسّبتُ منذ البداية لما سوف يتم سرده في الرواية؛ لهذا احتفظتُ عند التعاقد على نشرها بحق إجراء مداخلات لو تطلّب الأمر. بالمناسبة، أنا لا أتحدّث هنا بصفتي ناشر الرواية، ولا اعتدتُ هذه الصفة بعد؛ لكَونها أول رواية أنشرها، ولكني أحدّثكم بصفتي قارئة، مثلي مثلكم، وأحترم مثلكم حق الراوي في سرد الأحداث طبقًا لوجهة نظره، رغم كونها تتداخل- إن شئنا الدقة تتماهى- مع مرحلة فارقة من حياتي، كما أحترم أيضًا ترجمته لحواري، التي قد تُعطي انطباعًا غير دقيق أحيانًا، وحتى وصفه لإنجليزيّتي بالركاكة، وكذا حديثه عني باسم زينة ديناري عوضًا عن اسمي الرسميّ زينا كوهلر، الذي يحق لي أن أفرضه بموجب صفتي كناشر رسميّ للرواية. سأكون صريحة معكم، وأقول إن مناداتي باسم زينة ديناري تروقني إلى حدٍّ بعيد، خاصة في معرض الحديث عن حياتي في القاهرة- وهي السوق المستهدفة لخطة النشر المبدئية- وفي القاهرة الفاطميّة على وجه التحديد، فهذا الاسم يساعدني على الذوبان في نسيج المدينة المترع بتفاصيل متناقضة.

عشقتُ القاهرة منذ زرتها لأول مرة، قبل سنة من بداية أحداث الرواية. لجمالها نكهة حسيّة تُعجبني، تداعب كياني بأنامل خفية، أشتمُّها حولي أينما سرت. أما الوكالة، فقد أسرتني قبل أن أزورها بسنوات عديدة، منذ حدّثتني عنها ماما وأطلعتني على صورها مع صور أبي، الذي عرفته في مرحلة متأخرة

من حياتي. عمارتها الفريدة وأحجارها غير القابلة للتبديد أثارتا خيالي، كنت أسـمع موسـيقى الشـرق التي رضعتها مع ثدي ماما بمجرد مطالعة الصور. أبي أيضًا لا يقل جاذبية عنها، ولا يمكنني وصف دهشتي ولا سعادتي حين أخبرتني ماما أن لي أبًا معلومًا أستطيع مقابلته، فقد كنت أتصوّر قبلها أن والدي عشيق عابـر لمامـا في مرحلة من حياتهـا، وأنها قررت أن تحتفـظ بثمرة من علاقتها به؛ تذكار، إن شـئتم وصفًا أدبيًّا رفيعًا كما عوّدكم الراوي المحترم، وكان فهمي ذاك متماشـيًا مع كون ماما ألحقت اسمي بلقب عائلتها العريقة، فصرت رسـميًّا زينـا كوهلر. ولكننـي منذ علمـتُ بقصة والـدي الفعليّ- الموسـيقار المصـري- بدأت أتقبل الوجه الآخر لحقيقتي، المصاحب للقصة؛ والدي هو من أطلق عليَّ اسـمي، حيث كان ينشـد اسـمًا ذا معنى مقبول في الشـرق والغرب على السـواء، وعلمتُ مؤخرًا أن زينة تعني في العربية: الجميلة، حسـنة الوجه، فراقني اسمي الشرقيّ كثيرًا وشعرتُ بامتنان أكبر نحو والدي.

قـررت أن أزوره وأتعـرف إليـه، وأرى الوكالـة الأثريـة البديعـة التي يقوم بإدارتهـا، بل وأسـتمع لعزفه علـى العود الـذي طالما وصفته مامـا بالإعجازيّ. قـد يكون عزفه أهم سـبب لوقوع ماما في غرامه أيام شـبابها، فقد كان يزور بون باسـتمرار مع فريق من العازفين يصاحب موسيقارًا مصريًّا معروفًا آنذاك، وكانـت ماما ضمن أوركسـترا محليّ يُشـارك في عروضـه ذات الخصوصية الشـديدة، فهـي تمـزج الموسـيقى الشـرقية والصوفيـة بالمدرسـة الهارمونية الغربية. تزوجا، وأنجباني، فاسـتقرا معًا لعدة سـنوات، وساعدته ماما في إثبات حقوقه في الوكالة بدعم من جدّي، الذي عمل دبلوماسـيًّا في بلدان شـرقية عديدة. فهمتُ حين زرته لماذا لم يكن ممكنًا أن تسـتمر علاقته بماما، فهؤلاء الشرقيون- كما تصفهم ماما بدقة- يرتدون ساعات تدور عقاربها للوراء. والدي مثـال صريـح لهذه الصفة؛ كان موسـيقيًّا شـابًّا، رائعًا وناجحًا، تـزوج من ماما التي لا تقل روعة، وأنجباني أنا(أحيلكم هنا لوصف هيئتي كما جاء في سـرد الراوي، احترامًا للموضوعيّة والمهنيّة)، ثم قرر فجأة، برجعية غير معقولة، أن

يتراجع عن حلمه الموسيقيّ الطموح ونهج أستاذه العالميّ، ويتهاوى إلى منصب شيخ طريقة! يتقاضى الفتات من مدرسة مغمورة للعود وورشة آلات بدائية، ويتسوّل التمويل. شيء لا يُصدّق. بل إنه ترك ماما، التي هي سليلة عقد متلألئ من السفراء والدبلوماسيين، ليتزوج من سيدة أقل ما توصف به أنها بسيطة ونصف متعلمة، وأنجب منها بنتًا لطيفة في بساطة أمها (عجبتُ كثيرًا لكونها نصف أختٍ لي) لا يمكنها إدارة منزل فضلًا عن مشروع اقتصاديّ!

هذه التوضيحات ضرورية، ولست أهدف منها إلى أي تسخيف من شأن شخصيات أخرى، ولكنني لاحظتُ أن الراوي يتغاضى عن أبعاد أراها أساسية لاكتمال الصورة في مُخيِّلة القارئ، كما أراه يميل بوضوح لشخصيات على حساب أخرى؛ نظرًا لطبيعة الثقافة المشتركة والانتماء العرقي، وهذا ما أتفهمه تمامًا، ولكن للقارئ حقًّا أصيلًا في معرفة ما وراء الأحداث والتخييل السرديّ، طالما قُدِّمت الرواية على أساس استنادها لوقائع وشخصيات حقيقية.

أؤكد قبل إنهاء مداخلتي إيماني التام بحق القارئ في التأويل، ولكنني أتمسك في ذات الوقت بحقي القانوني في التداخل والتوضيح.. أترككم الآن لاستكمال الرواية، مع التأكيد على إمكانية تدخّلي في اللحظة التي أستشعر فيها وقوع تمويه على القارئ، أو محاولة لاستدراجه نحو رجعية مقيتة، أظنه من واجبي أن أنتشل الشرق من أنيابها.

أرجو لكم قراءة ممتعة..

زينا

***

12

عشـوة جرّت عشوات، ونكتة بذيئة سحبت خيط نكات وحكايات دارَ بـلا انقطـاع، تُغذّيه آلـة خيال لا يملك زياد أثمن منها. اكتشـف أن الشـاب الكويتـي ليس وافـدًا مؤقتًا، يـروم المتعة واللهـو خلال رحلة صيفيّـة قصيـرة، إنمـا طالـب مقيـم يـدرس طب الأسـنان فـي جامعة خاصـة، ويقطن مـع صديقه النحيف في شـقة ذات حديقة خاصة، في مجمّع سكني بالشيخ زايد. استبدلت قدماه أثناء عطلته الصيفيّة بطَريق الجامعة طريقًا أكثر تسـلية ووعـورة، يصل بالملهى الليلي الذي يعمل فيه زياد. هكذا سقطت أمامه الفرصة سائغةً كثمرة ناضجة أسالت لعاب نفسـه الجائعة، فعزَم ألا يُفلتها. قد تكون الخرائط تعاطفت معه أخيرًا، أو تكون آبار البترول قد أرسـلت مندوبًا دائمًا يُعيد بناء جسور هدّمتها فورةُ انفعال غير محسـوب. عاد لإهمال أُمِّه ورفيقته، وجعل من نفسه جنّي مصباح يسهر على رغبات الشاب وصديقه؛ يحمل إليهما أكياسًا سـوداء تحشوها علب المعسّل وزجاجات الخمور، يُبدّل لهما العملة بأفضل أسـعار السوق السوداء، ويحمل تفويضًا باتًّا في التعامل مع أية مشـكلة. كان مشعل- الشـاب الكويتي- سـخيًّا معه، وكثيرًا ما يُغلّف طلباتـه في ثوب الصداقة والامتنان الأخوي، سـريعًا تجذّرت شـجرة

الود في أرضهما المُشتركة، واستظلّا بها لفترة سمحت لزياد بعرض فكرته؛ إنشاء استوديو التسجيلات بالمشاركة مع الكويتي. أخذ يشرح المشروع ويوضح العوائد المنتظرة.

«أنا هنا لأدرس، لا لأستثمر». صارحهُ الكويتي بلطف، إذ لمح في عينيه بريقَ استدراج. تقنّع زياد بابتسامته المُريحة وقال: «هذا وذاك، لِمَ لا؟» ولكن الكويتي لم يُبدِ ترحيبًا بالفكرة، فلم يُمارس زياد مزيدًا من الضغط. صار يملك مفاتيح الشاب ويعرف كيف يستخدمها جيدًا. قرّر أن يُمهِله الوقت لاستيعاب الفكرة، لتنضج ثمارها في قلبه المترع باللذة، ولكنه أمضى الوقت في قصّ حكايات مُلهِمة، مُستأنِسًا بطقطقة الفحم وكركرة الماء في قعر الشيشة. كانت أكثر حكاياته مُختلقَةً، ملعبُها في الغالب أحد استوديوهات التسجيل التي خبرها، بطلاتها فتيات يتُقْنَ لنجوميّة عاجلة تفوز بها أصواتهن الواهنة المُرتعشة، يجئْنَ مُتّشحات بالغنج والإثارة وأوهام المجد والموهبة الفذّة، فيُسجِّلن مقاطع غنائية عربية وأجنبية، يُرسلنها لبرامج التسابق الغنائي التي صارت هوسًا مُتفشيًا بين الفتيات. قصّ حكاية فرقة غنائية من ثلاث فتيات، يُقلّدن فريقًا أجنبيًا من المراهقات، يرتدين ألوانًا مُوحّدة ويغرزن الأقراط ليس في شحمات الأذن فقط، بل في أركان الشّفاه والحواجب، ويمكثن طويلًا في محاولات بائسة لإيجاد تنويعات جديدة من النشاز، بينما يتشاجرن بصخب ورغبة أكيدة في تحقيق النصر. أما القصة الوحيدة الحقيقية، والتي قصّها زياد بعدما أثقلت دماغَه زفراتُ الشيشة، فكانت لفتاة حولاء العينين، حضرت

مع أبويها لتسجيل أغنية حزينة لوردة الجزائرية، بصوت شجيّ ترك في الجميع أثـرًا عميقًا، حتى في قلب مهندس الصوت المُقفَل بالتمرّس. ولكنهـا عـادت بعد عدة أشـهر فـي حالة بائسـة، بصحبة خـال يقربها فـي السـن، طلبت ممـن حضروا التسـجيل السـابق أن يشـهدوا معها أمـام ضابط التحقيق، فقد أرسـل أبواهـا المقطع الغنائي باسـم أختها الكبـرى التي تفوقها جمالًا وجاذبية فيما يبـدو- ليس في عينيها حوَل على الأقل- وتمت إجازتها للسـفر إلى لبنان والتسـابق مع الأصوات المُرشّـحة. ندم زياد أن قصّ هذه الحكاية غير المُختلَقة، فقد أشـاعت جـوًّا من الصمت الثقيـل، المُفعم بكركرة كئيبة مُتردِّدة، بعد أن هيّجت الحكايات المُختلَقة أجواء الضحك الصاخب، ولكن سرعان ما وافاه الإنقـاذ، ليس عـن طريق الشـاب الكويتي هذه المـرة، ولكن من جهة صديقه النحيف الذي لم يُبدِ اهتمامًا بالحديث في بدايته، بل ظل مُتّكئًا إلى الوراء يُكركر في صمت، ويزفر الدخان الكثيف نحو السماء.

«لِمَ لا أُموّل أنا هذا المشروع؟» سأل باعتراض كأن أحدًا قد حاول منعـه. أطرق زيـاد لبرهة يمتصّ تلـك الصدمة على مهـل. فكّر في رد الفعل الأمثل لهذا العرض المُفاجئ؛ مشعل هو محور الجلسة، وعليه أن يبقـى كذلـك سـواء تحمّـس للمشـروع أم لا، أما صديقـه النحيف فليـس إلا تابعًا أسـالت قصص الفتيات الغنِجات لُعابه، سـيكون غباءً تحويـلُ دفّـة اهتمامه إليه لمجرد حماسـه اللحظيّ للمشـروع. قرّر ألا يكشـف سـعادته، بل أن يُغيّـر الموضوع فلا يبـدو باحثًا عـن التمويل فحسـب. قام ليُلهِب جمرات الفحم على الموقـد دون اكتراث لعبارة

الشــاب النحيف، الذي تابعه باستغراب حتى عاد، وسأله بدهشة: «لِمَ لم تُجب يا هذا؟! أتمانع أن أقوم أنا بتأسيس مشروعك؟!».

رمـق زيـاد صديقه الكويتـي، كأنما يدعـوه لإدارة النقاش، فجذب الأخير صوته من سـحابة دخان كثَّفتها الجمراتُ المحمومة: «لِمَ تزج بنفسـك في حديث لا يعنيكَ سـعيًا خلف أدبار الحمقاوات؟ دخّن في صمـت!» ما إن تكاثف الصمت مع الدخان حتى وضع مشـعل مبسـم الشيشـة، وحاول أن يبعث المرح من جديد: «زياد، أريد أن أشـمّ هواءً نظيفًا. خُنِقنا من جو القاهرة يا عم».

– رغباتكَ أوامر.. أي هواء ترغب في شمِّه كي نأتيكَ به؟

– سنذهب إليه سويًّا. أتعرف مكانًا جيدًا في الساحل الشمالي؟

– الأماكـن كثيـرة. أمهِلني يوميـن لأقع على أفضل مـكان ممكن. لكن الأسعار في عز أيام الصيف هذه تطاول السماء.

«دعكَ من الأسعار والكلام الرخيص. احجِز لنا أفضل فيلا، وتخيّر مكانـًا هادئـًا نأخذ فيـه راحتنـا.. راحتنا علـى الآخر، فاهمنـي طبعًا». ضحك مشـعل فرِحًا بتجدّد اللذّة، وقام ليتحمّم ويتجهّز للسـهر، بينما اسـتأذن زياد فـي المغادرة لحاجته لزيـارة أمه. كان فـي الحقيقة ذاهبًا لمبروكة، التي أصرّت على لقائه الليلة قبل أن يبيت الطمث في فراشها لأسـبوع كامل، عندها سـيندم على تفويت فرصته. شـعر بافتقادها في الليالي الماضية، ثم جاء هذا التهديد المبطّن ليوغِل في نفسـه اشـتياقًا حارقـًا للالتصاق بها، ولثرثرتها التي تُشوشِـر على أفكاره المحمومة.

ولأول مـرة، وفـي فـراش مبروكة الدافئ الرطب، شـعر بإنهـاك الأيام الماضيـة يأكل خلاياه العصبية، ويتفُلُ بقاياها في بئر الزمن السـحيقة، التي لا تكف عن ابتلاع البشـر والأحلام. جرَفَه تيار السرَحان لأعماقٍ يعيـش فيها وحيـدًا، يحلم على انفراد ويتعارك مـع وحوش لا يُدركها غيره، ويتقنّع بابتسامة هي أكذب صورة لما يجيش في صدره.

«أنـت معـي؟» سـألته مبروكة بعـد أن بـذرت كثيرًا مـن الكلمات والحكايـات، ولـم تحصد إلا الصمت. حصلت كالعادة على ابتسـامة لا تشـي بشـيء، فعاودت السـؤال: «ما رأيـك؟» تمادت ابتسـامته في استفزازها، ثم قال فجأة: «موافق».

بتشكّك قالت: «فعلًا موافق؟ إذًا ستحضر معي التصوير».

استمرأ ادعاءهُ مُتابعة حديثها، فقال: «أين إذًا؟».

– لـم يُحـدّد مكانًا بعد، ولكن قال إن المـكان لا بد أن يكون غريبًا ومُثيـرًا، كي يصنع مني أسـطورةً شـرقية.. هكذا شـرحَها لي مسـاعدُه المصري. ماذا كان يعني بأسطورة؟ ها.

– أسطورة تعني حكاية قديمة، عجيبة، ربما يقصد أن تكوني جذابة لأبعد حدّ.

– هـذا يُحتِّم عليكَ أن تحضر التصوير.. لن يُرضيكَ أن يتحرّشـوا بفتاتكَ، أليس كذلك؟

شعَرَ بالحديث يُفلِت من بين يديه، عليه أن يفهم الموضوع، ولكنه تمادى قليلًا: «أُفضّل ألا أكون موجودًا حين يتحرشون بكِ، فوجودي

لن يمنعهم من شيء». لطمت صدره بعتاب هزليّ. قال: «أحتاج لمزيد من الشرح، احكي الحكاية من بدايتها، وبالتفصيل»..

– يـوه.. أنت كعادتكَ لا تنتبه لما أقول! قلت إن المصوّر اللبناني كان يصوّر سـابرينا، الروسية البلهاء، المُعرقَبة. طلبتُ منه أن يصوّرني ويُصيّتنـي كما يفعل معها، واتفقنا ألا أدفع مُقابلًا حتى يُسـوِّق صوري ويتعاقد لي مع فندق شهير. عندها، سأُعطيه أجره وزيادة.

– شاطرة يا بركة..

– لا تناديني بأسـمائكَ الغبية هذه! أنا الغلطانة أني حكيتُ لك عن حياتي السابقة!

ضمّهـا إليـه بعطـف حقيقي، غمرهُ شـعور صـادق بمحبتهـا، رغم احتقاره لحياته معها. بعد برهة شرود أعجبتهُ فكرتها، وألهمهُ طموحها، تلك الساقطة التي تمنحهُ نفسها دون مُقابل. مبروكة جميلة، جذّابة بلا شـك، ولكنهـا متواضعة وقليلة الحـظ مثله، على عكـس هايدي التي تُعاملـه بصلـف وتحتسـب عليه حتى نظـرات الإعجاب. استسـخف نفسـه لاسـتدعاء ذكرى هايـدي، صارت تقـضّ فراش لياليـه الأخيرة وتستثير بغرورها وفتنتها مراهقةً مُخجِلة، لا تليق به. ليست أكثر جمالًا من مبروكة، ولكن كل ما فيها خالص الإثارة؛ عينيها السـاخطتين على الدوام، شـفتيها المتورّمتيـن برغبة مكتومة، ردفيهـا المُكتنزين كدعوة مُجسّـمة للمُضاجعة.. كرِهَ حضورها الطاغي حتى في وجود مبروكة، وقـرّر أن يصُـب غضبه فوق فـراش رفيقته ذات الفتنة المُسـتكينة: «لِمَ لا تُبدّليـن ملاءة الفـراش الرطبة هذه؟ هل علـيّ أن ألفتَ انتباهكِ كل مرة؟!».

– أبدًا! لقد غيّرتها صباح اليوم، وعطّرتها قبل مجيئكَ بقليل!

– هـذا مـا تدّعينه دائمًـا! لا تزيدي في الـكلام. الأفضل أن تقومي وتُجهّزي العشاء.

قامت تُبرطم بحنق طفولي، بينما عاد لشـروده الأول.. لِمَ لا يكون حل مُعضلته الأزليّة في جلسـة التصويـر هذه؟ولماذا لا يكون المكان المثير الأسطوري المطلوب، وكالة الموصلي؟!

***

نهـار اليـوم التالي، عجّل زيـاد بالذهـاب للوكالة. سيسـتلم العود الكهربائـيّ أخيرًا من عم عبيد، مُدرِكًا تمامًا أبعاد الخطوة وما سـتجرّه عليه من تقريع وتوبيخ الأسـطى العجوز، الذي يُسفِّه من فكرة الأعواد الكهربائية منذ ولج صبيًّا عالم الصنعة، حيث كان صيحة حديثة آنذاك، بل إنه يُوافق على صناعته من باب إثبات وجهة نظره فحسب، فهو قادرٌ على صناعة هذا وذاك، ولكنه يؤثر هذا على نفسـه، بينما يؤثر أن يُلقي بـذاك في أقرب مقبـرة للآلات. أي جمال في ذلـك الإطار الفارغ ذي الصوت المصطنع؟! «القصعة حنجرة العود، والأوتار لسانه وشفتاه». هكذا يقول الأسـطى فيكون لزامًا على زياد أن يومئ برأسـه موافقًا لو أراد إنهاء الجدل.

ولكـن اللقـاء هـذا الصبـاح حمَـلَ مفاجـأة تضاءلـت أمامهـا هذه المنغصـات، فمرحبًـا بالجـدل وأهـلًا بالتقريع طالما اصطحبا سُـلطة المفتاح! السُّـلطة أشـهى طعم في الوجود، حتى لو دانت غيرَ مدعومة

بمـال. السُّـلطة تجيء بالمـال، وهذا سـر عظَمتها، في حين يتحسّـس المال طريقه طويلًا كي يفوز بالسُّـلطة، وكثيـرًا ما يضِلّ الطريق. المال بالنسـبة لزياد أشـبه بسلسـلة كبيرة تتعلّـق بها مفاتيح صغيـرة بلا عدد، تفتـح أكثـر الأدراج بهدوء، يُجـرب صاحبها المفتاح تلـو الآخر حتى يبلـغ مبتغاه. أما السُّـلطة، فهـي المفتاح العمومي الـذي يفتح أي درج دون حاجة لتجربة، وبضجيج لا يتورّع.

امتلأ زياد بالنشوة التي استلبها مفتاح الوكالة. سيملك منذ اللحظة زمام الأمر، سيُمسِـك برُسـن الدابّـة الحجرية التي تسـاوي الملايين، والتـي تضـمّ كنوزًا تنتظر من يُـدرِك قيمتها وطريقة اسـتخراجها. أُقعِد الشـيخ في بيته ورابضت بجواره ابنته، فيما انشـغل يوسف بسعيه وراء المجـد، فإذا بمفتاح الوكالة ينتقل مـن يد عاجزة لأخرى زاهدة، ويقع أخيـرًا فـي يده، لامعًـا ودافئًا. أمضى زيـاد وقتًا طويلًا فـي الوكالة، لم يسـتعجل الذهاب ولم يحتَر في تحديد محطته التالية، فقد صار يملك رحابًا يجوس فيه ليتدبّر شؤونه. هنا أمام البئر، سيكون موقع التصوير. سـتجلس علـى حافّته ياسـمينة– أطلق عليها ياسـمينة منذ قنَـعَ بفكرة تصويرها– تكشـف عن سـاقين سـمراوين لامعتين، وقدمين حافيتين يُطـوِّق كاحليهمـا خلخال «مدنـدش»، يُصدر رنينًا مسـموعًا حتى في الصـور الصامتـة. سـتجثو على ركبتيهـا أمام البئـر، هنا، سـتمُدّ يديها الليِّنتيـن لتلمس بسـحر أناملهـا حافة البئـر الميّتة، فينبعِـث من باطنها النبـض. سـترتدي ملابـس مَحظيّـة من زمـن المماليـك، جارية غضّة نبتت من جوف البئر، قطفة شهيّة من عالم بعيد وساحر، لم يعُد ممكنًا

الوصول إليه. وهنا، سيجعلها تستند إلى عمود حجريّ أكلتهُ السنون والوحدة، يتوق للمسة من حرير ياسمينة الرهيف. ستثني ساقًا وتفرد أخرى، وتُشهِر صدرها الكاعب كإعلان حرب، بينما يُمسِّد شعرُها سطح الأحجار الصمّاء. هذه الإضاءة أسفل العمود ستفتح شهيّة المُصوّر، ستُلهِمه صيد لقطات مُشتعِلة، تبدو فيها ياسمينة كقطعة لحم تتوهَّج فوق لهيب أصفر. إنه المكان الأسطوريّ المطلوب، لن يقِل إيجاره عن ألفي جنيه لجلسة التصوير الواحدة. قد يحتاج الأمر عدّة جلسات. فليدفع المصوّر الآن ثم يقتطع ما يشاء من أول عقد لمبروكة.. ياسمين.. . ياسمينة، نعم ياسمينة. أول الغيث قطرة، وإيجار المكان ليس إلا القطرة. طالما جفَّت البئر فلا مفر من اصطياد الغيث!

جلس زياد على درجات السلّم يستجمع نفسه. كان قد هاتف يوسف كما أوصاه عم عبيد، فحملت مكالمته فرصًا واعدة تحتاج لاستيعاب هادئ.. سيشرع السلفيّون منذ الصباح في بناء مظلّة، وهو من بحوزته مفتاح المنع والمنح، لا بد أن يَفيد من ذلك بطريقة ما. تمرق الفرص في سمائه كسِرب طيور مهاجرة، إن لم يُصِبها مضت إلى غير رجعة..

برقت هايدي في خياله. الأنَفة التي تُعامله بها لا تستشيطه الآن، بل تبدو كنشوز صبياني من إحدى رعاياه، يجب التعامل معه بصبر.. عليه اللحاق بموعد مبروكة. كانت تنتظره بصحبة المُصوّر اللبناني على المقهى المجاور لملهى الهرم. أوصاها بمعاملته بطريقة رسميّة

في حضور الرجل، وأن تُقدِّمه باعتباره سمسارًا لكل شيء، وسيقوم هو بالباقي. في المقهى، قال للمصوّر إنه عرف المطلوب من ياسمين هانم- تفاجأت باللقب الجديد وظهرت عليها غبطة حقيقية- وأنه تدبّر أمره عبر شبكة علاقاته مع مكاتب السمسرة، حتى وقع على أفضل مكان يُمكِن استئجاره لهذا الغرض. عرض عليه صور الوكالة التي التقطها قبل مغادرته؛ البئر، الأعمدة الحجرية المضاءة، العقد المنقوش في المدخل. سأله بينما يتصفّح الصور: «أتحتاجونه لليلة أم أكثر؟»

بفتور قال المصوّر: «سيستغرق التصوير نحو أربع ساعات، وأحتاج لمُعاينة المكان أولًا».

سارع زياد: «سيُعجِبكَ المكان. لقد فكّرت فيما تحتاجونه من ملابس.. ستناسبكم أزياء الحريم في البلاط السلطانيّ. الغنج، الأنس، الجاذبية اللاهبة»...

«سنهتم بهذه التفاصيل»، قاطعهُ المُصوّر باقتضاب، «متى يمكننا المعاينة؟»

كتم غيظه وجاهد كي يبدو لطيفًا: «في أي وقت بعد السابعة مساءً. ماذا عن الغد؟».

- وقتي ضيق. أُفضِّل الليلة.

- ولكني مرتبط بعدة مواعيد، لن تنتهي قبل الثانية صباحًا!

- إذًا نلتقي في الثانية والنصف، لا بأس.

فكّر زياد في طريقة لتأجيل موعد مشعل، فالوقت لن يتّسع للقائه بعد المعاينة، ثم قرّر أن يمرّ عليه سريعًا قبل موعد الملهى، لن يستغرق الطريق طويلًا من شارع الأهرام للشيخ زايد، ويُمكنه العودة في غضون ساعة ونصف على وجه التقريب. سلّم وتحرك من فوره، وبعث برسالة لمدير الصالة يستأذنه في التأخّر قليلًا لظروف ألمَّت بوالدته. في الطريق، راجع المعلومات التي أرسلها قبل قليل صديقٌ عرباويّ، يملك تجارة لمواد التشطيب على طريق الساحل؛ فيلات منزوية في منتجعات سيدي عبد الرحمن الفارهة. استذكر أيضًا بنود التكاليف التي سيعرضها على مشعل، حال موافقته على إقامة الاستوديو في الغرفتين الفارغتين في شقته. أدار حوارًا تخيُّليًّا مع مشعل.. سيُبدي الأخير تخوّفه بشأن الجيران. سيكون جاهزًا بالرد؛ الشقة في الدور الأرضي ولها حديقة خاصة بمدخل جانبي يُفضي للصالة مباشرةً، لن ينزعج أحد، كما أننا سنُغلِّف جدران الغرفتين بعوازل للصوت. سيؤكد حرصه على تجنُّب المشاكل، فهو أكثر من يهمّه نجاح المشروع، ويحرص على عدم الزج بالفتيات في أية مشكلة مع أسرهن، سيُكرِّر بأسلوب مُبطَّن أن أكثر الزبائن المتوقَّعين من الفتيات المراهقات. سيُتابع بجانب عينيه تعابير وجه الصديق النحيف بينما تكشِف عن باطن يتأجّج بالرغبة، يكاد يُطالِب بالبدء في اختبار الفتيات، حتى قبل تجهيز الاستوديو. أغلق زياد النوتة وقد اطمأن لحِفظه أكثر الأرقام. شعَرَ بارتياح وسيادة تستقر أخيرًا فوق المشروع، كما فوق الوكالة. تحسّس مفتاح السُّلطة في جيبه، مُستوثِقًا من وجوده أسفل كرشه البدين، فوجده قد استنام أخيرًا للدفء.

13

عـن مولاهم الموصلـيّ يحكـون ويحكـون، فتتبـدَّل الأقاصيص وتختلـط كلما بلَّلتها ألسـنةٌ رطبـة بالمحبة. فيما يحكون قصة شـاب، أراد طريق الشـيخ ردحًا من الزمن. قيل إن اسـمه حامد وقيل محمود. كان أبوه ميسـورًا، يبيـع أزرارًا منسـوجة وقمصان نوم مطـرّزة يرومها الوجهاء. عشِق فتاة، فضرب العود هيامًا بها، وتغنّى بين أصحابه بأيامه النفيسـة، ففهِم الحاذقون أنه يقصدها. شـكاه أبوها لأبيه، فحبسـه عن الوكالة وعن صحبة السـمر، فلما طلب حامد الزواج من نفيسـة ثبتت عليه تهمة الحب. أمر أبوه بسقايته الملح والجير، ثم أمر له بالمعاصير، فربط العبيد كعبيه بالحبال وعصروها حتى كادت تُبتَر، ولكنه لم يجهر بهجـر فتاتـه مهمـا فعلوا، بـل إنه هجـر الزاد وأطبـق فمه لتسـعة أيام، أشاعت زُرقة كعبيه في سائر أطرافه.

حملـوه كالقفّـة إلـى الشـيخ. رمقـه بعينين فـي لمعة عقيق أسـود، وابتسـامة لا تزايل شـفتيه النحيلتين. سـأله عما فعل بنفسـه، وإن كان يملك هذه الحياة التي يُحاول إزهاقها، فأجاب سـؤال الشـيخ بسؤال؛ قال: لماذا يُنبِت الله في قلوبنا الوجد بالمعشوق، فتصير حياتنا مرهونة بقربـه، ثـم لا يرضـى أن نزهد في الحيـاة حين يُفرَض علينـا هجرانه؟

«طالما أن الحياة منحة أُعطيتُها، فما العيب إن رغبتُ في ردِّها؟» لم يُحِر الشيخ جوابًا، ولكنه أدناه منه وتلقّاه في حضنه، وجاد على شعره الجاف بدموع بلّلته. صار الموصليّ يرمق السماء، ومن عقيق عينيه يسيل ينبوعان صافيان، فيغيبان في صمت مهيب أسفل لحيته المفضَّضة. بكت سماء الصيف اللاهب لبكائه، فما عُرِف من أي غيم يسيل المطر الصامت، وليس في زُرقة السماء إلا ندفات قطن مبعثرة هنا وهناك، ولا عُرِف أكان المطر كرامة للشاب أم الشيخ.

بعد قليل سأل الشاب شيخه أن يُعلّمه وِردًا، إذا ضربه على عوده ذهب حزنه. ردّ الشيخ وعيناه لا تزالان عالقتين بالسماء، أن لو وُجِد وِردٌ كهذا لانمحى شقاء العالم، ولكن اجعل وِردكَ الحب، حوِّل عشقكَ من الأحياء والأشياء لرب الأحياء والأشياء، فوحده الأهل للعشق والصبابة. هل من حبيب موجود أبد الدهر، دائم الوصل، مستجيب لأخفت نداء؟ لن تجد سواه. صمت الشيخ، فأغمض الشاب عينيه وقد أذابت دموعُ السماء عكارة وجهه، وأحيت في ملاحته ابتسامة شاحبة. ظنوه نائمًا، حتى أمرهم الشيخ بأن يُحضِروا كفنًا، فبكى المريدون بكاء مسموعًا أزعج السماء، وجفّف امطار الصيف.

***

لم تكن آلام الغضروف هي ما أقعد أباها عن الخروج لأيام، ولكنه تعمّد إخفاء السبب عن الجميع، بمن فيهم ابنته، حتى استوثق من الحالة وأحصى التبعات. بدأ الأمر بألم في القدم اليسرى، فلم يهتم به لاعتياده آلام الغضروف، ولكن اليمنى تداعت سريعًا وبدأ يُلاحظ

احمرارهـا وتورُّمهـا، فانتابه القلق. استشـار زميلًا في إدارة المسـجد يعمـل طبيبًـا باطنيًّا، فأوصاه بإجراء أشـعّة وتحاليـل والمرور عليه في العيادة. حصل بذلك على التشـخيص الأول، ثم توالت الاستشـارات حتـى تأكّـدت الحالـة: «متلازمة فوسـفوليبيد»؛ اضطـراب في جهازه المناعـي أحدث عديدًا من الجلطات الصغيرة في شـرايينه، انتشـرت في ساقيه بمعدّل سريع، وربما تتّخذ مسارات أكثر خطورة فتسدّ موردَ الدمـاء والحياة عن عضو حيويّ.. أبوها الحبيب، رجُلها الوحيد، يُزَجُّ بـه وبها في معركة بقـاء مصيريّة. تجيئه الهجمة من الداخل هذه المرة، بينما يُجرَّد من أسلحته تباعًا.. زوجته، وكالته، والآن جهازه المناعيّ.

تذكّـرت رحيل أمِّها. علّمها أبوها آنـذاك أن التعلُّق بالأحياء يورِث الألـم، أن العاقـل لا يربط مصيـره بما يُمكـن فَقدُه، علَّمهـا أن القلب قـارب نجاتها، لو حرّرَته عبرَ بهـا دوامة الألم، وإن كبّلته بحبال التعلُّق تمزَّعَ، وانزلق بها نحو الضياع. كلما اسـتعادت مشـهد الجنازة أدركها الخـوف.. وقتهـا، لم يُسـمح لهـا أن تُصـدر صوتًا، كتمـت صرخاتها فلاتزال حبيسـةً إلى اليوم، تعلّقـت عيناها بجثمان أمها المحمول فوق أذرع معرَّقة، تُقدِّمه قربانًا للتجويف المُظلم. اسـتلمه اثنان من الأحياء عنـد الحافـة وألقماه الفـم الجائع، ثم صعـدا ثانيةً نحو النـور والهواء وأغلقـا عليـه إلى الأبد.. تتذكّـر، ويرتجف قلبها. ماذا لـو فقدت أباها أيضًا؟ من يُسـرّي عنها بعده؟ من يُعيد إليها الرشد، ويُذكّرها ألا تتعلَّق بالأحياء، أن القلب قارب نجاة قابل للتمزُّع؟!

قامت. توضأت في الحمام المُلحق بغرفتها. تريد الاطمئنان على أبيها، ولكنها تُرجئ ذلك كيلا تُقلِق سويعات نومه القليلة بين العصر والمغرب؛ صارت الساعات الوحيدة التي يتحصَّل عليها منذ لزِم المنزل. بجوار ضلفة البلكونة المُواربة، فرشت سجادة صلاة حريرية وأقامت ركعات غشّاها الشرود. لم تقوَ على النهوض حين أنهت الصلاة. تداعت نسمات الأصيل على خصلات شعرها النديّة من أثر الوضوء، وتناهت إليها شقشقات عصافير تعود لأعشاشها قبل حلول الظلام.. هذه المخلوقات تفعل الشيء نفسه منذ آلاف السنين دون تغيير، دون بحث عن جديد، جميعها عنصر فاعل في تركيبة الزمان والمكان، ولا تسعى لتعظيم دورها ولا لقلب نظام الكون لصالحها. تغزوها الأمراض فلا تُصارع، يُداهمها الموت فلا تُقاوم، ولا تُبدي قسماتها همًّا أو رضى. ما الذي يُنغّص على البشر حيواتهم دون سائر المخلوقات؟ أهو الأمل؟أم العقل والإدراك؟ لو أنها لا تأمل كثيرًا لما انشغلت بمصيرها لهذا الحد. ولو كانت لا تُدرك المعركة الدائرة في جسد أبيها لما حدّق بها الخوف.

تناولت هاتفها. خرجت إلى البلكونة ولا زالت تضع طرحتها البيضاء. لا مرفأ لديها في هذا الشتات غير يوسف. حاولت الاتصال به عدة مرات، حطّ أثناءها عصفور فوق حافّة السور يستطلع الأمر. يوسف لا يردّ، قد يكون في الوكالة حيث يُحيل هاتفه للوضع الصامت. لا بد أنه في حلقة الذِّكر، أو يتأهّب لإلقاء الدرس. كم قصَّرَت نحو الوكالة وفريق التدريب في الأيام الفائتة. قلبُها لا يُطاوعها في ترك

أبيها، حتى أثناء ساعات نومه المعدودة. أيفتقِد يوسف وجودها كما تفتقدُه، أم شغلتهُ زينة بذهابها وإيابها ليل نهار؟ هل تستميله هايدي بصوتها المُتهدّج ولكنتها المُلتوية؟ أم تُراها تفنَّنَت في تذكُّر أغانٍ رومانسية على مقام البياتي، وطلبت إليه عزفها؟! ليست واثقة إن كانوا الآن قد تجاوزوا البياتي لمقام الكرد.. البياتي حنون، فيه توسُّل ورَهَف. أما الكرد فعطوف، فيه صبابة وعشق.. تُرى بأيهما تسعى هايدي لاستمالته؟!

اخترقت الشارعَ سيارةٌ صغيرة، أنيقة، تصخب بأغانٍ أجنبية عنيفة الإيقاع، ترجّ الصدور وتُفزع العصافير. أبطأت أمام البناية، ثم انسلّت في مكان شاغر بين سيارتين. ابتُلِع الضجيج وفُتح الباب. هبطت ساقٌ وضّاءة قبل أن تظهر زينة، وتعبر الشارع بتؤدة نجوم السينما، في حين أبطأ المارة يتابعون مرور تنّورتها القصيرة، وتوقَّف بائعُ الذرة عن التلويح فوق الشواية. تعجَّبت رحمة لمجيئها بغير موعد، وخشيت أن تُقلق نومة أبيها. هرولت سريعًا صوب الباب ووقفت تتسمّع نقرات كعبيها فوق السلم. فتحت رحمة الباب قبل أن يُضرَب الجرس، فدهِشت زينة وقالت: «ها! لعلكِ تقرئين الطالع كما يقولون!».

دعتها رحمة للدخول، وسألت: «هل سمعتِ أحدًا يقول ذلك؟»

– يقولون إنك روحانية، والروحانيون يتوقَّعون الأشياء قبل وقوعها.

– رأيتكِ تدخلين البناية، وخشيتُ أن يُقلِق الجرس نومة بابا.

همّت زينة بإشعال سيجارة، وقالت: «هو نائم إذًا.. كيف حاله؟».

– في حال طيبة. أبي لا يُطيق التدخين.

– هل يمكننا الجلوس في البلكونة اللطيفة هذه؟

«تفضلي». دعتها على مضض لتبتعد بها عن محيط الصالة. حاولت أن تضيِّفها، ولكن زينة اكتفت بالتدخين. سألت بشكل عابر عن صحة الوالد وعن توقعات الأطباء، ثم وثبت مباشرةً لما جاءت لأجله: «إذًا سيحتاج لراحة طويلة.. أعرف أنه كان يُخطط للسفر لألمانيا للتفاوض مع منظمة باوميستر حول استمرار تمويلها لنشاط الوكالة».

دهِشت رحمة وقالت: «كيف عرفتِ ذلك؟ هل حدّثكِ بابا في الأمر؟!».

– ليس مباشرة يا جميلتي، ولكني أملك اتصالات عديدة، كما تربطني صِلة وثيقة بباوميستر.

– اعذريني، فلا أعرف عنكِ الكثير. ولكن الطبيب أوصى بألا ينشغل بابا بهموم العمل على الإطلاق.

– لا تقلقي، سأتصرّف من ناحيتي، وقريبًا سأُطمئن الوالد على استمرار الدعم. سأتقدّم باسمه بملف حول أنشطة الوكالة وإمكانية التوسُّع فيها، وسأعرف كيف أدعمه بداخل المؤسسة، وأضمن استمرار الدعم. ما رأيك؟

أفاق في قلبها الأمل، وقالت: «سأكون ممتنة لأبعد حد، فقد يكون انشغاله بهذه المسألة سببًا في تدهور صحته!».

- قريبًا سيكون في أحسن حال. لا تُحدّثيه في الأمر الآن، فلا حاجة لإرهاقه. ستصله رسالة من باوميستر تفيد عدم حاجته للسفر، وسينتهي الأمر عند هذه النقطة. اتفقنا؟

شعرت تجاهها بارتياح مُفاجئ، وقالت: «اتفقنا».

أومأت زينة بابتسامة مرحة، أطفأت السيجارة فوق قاعدة السور وهي تقول: «هل لي في طلب تافه بعض الشيء؟».

- نعم، بالطبع.

- هلّا أريتني شعركِ على طبيعته؟

اتّسعت بالدهشة عينا رحمة، وقالت بتردُّد: «هل يُهمكِ هذا الأمر كثيرًا؟!».

- أظن ذلك، فمن الغريب أن أتعامل مع صديقة وأزداد منها اقترابًا، بينما تخفى عني ملامحها!

غمرها الارتياح هذه المرة، وقالت: «طلب يسير، ولكن سنحتاج لأن ندلف إلى الداخل».

«لِمَ لا؟!» قامت زينة وخفَّت إلى الصالة. اندمجا سريعًا في أحاديث الشَّعر وعلاجاته، ثم صيحاته وتصفيفاته الأكثر ملاءمةً لوجهَيهما، كأنهما صديقتان منذ الأزل. ثم كعادتها تعجّلت زينة بالذهاب، فيما وضعت رحمة الطرحة سريعًا، وأطلت من البلكونة تُتابع السيارة الحمراء بينما تمرق صاخبةً، وتغادر الشارع العجوز.

14

«في الأماكن تكمن الأسـرار»، ردّدها الأسـتاذ على مسمع يوسف عدة مرات، ولكنه لم يفهمها على حقيقتها قبل اليوم. أدرك الآن كيف أغشى بياض المقهى عينيه، كيف أضاع أسابيع من البحث حتى تخلّص أخيرًا من سطوته، حين قرّر ألا يُطيل البقاء بين جدران الغرفة البيضاء، وأن يصطحـب إلى بيته فـي ميدان الجامع آخر مجلّد جلبته زينة. صنع قهـوة تركية على طريقة أسـتاذه، مُؤهِّلًا نفسـه لسـهرة طويلـة، واتخذ جلسـته في الشـرفة المُطلة على الشـارع المُظلل بالأشـجار، مُستعينًا بضـوء برتقالـي واهن مـرّرَه مصباحُ الشـارع عبـر الأفرع المُتشـابكة، بارتعاشة تُنبئ بفراغ روح وشيك.

راح يُقلِّـب صفحـات المجلـد كمـن يبحث عن قشّـة يتعلـق بها. السرعة التي تصفّح بها والضوء الذي استعان به لا يُتيحان الكشف عن أي مسـتور، ولكنه القـدر الرحيم الذي يَجبُر الضعف وينشِـل النفس، هو ما أوقع عينيه على كلمة محشـورة بين حشـد مـن الكلمات؛ كلمة «فلان»، قفزت أمامه كشـهاب مُنفلت. كان يبحث عن اسم شخص أو مدينة يُشير لتاريخ الشيخ، يُعلِن عن وجوده ولو من بعيد، فلم يُصادف ذِكرَه ولو بإشارة عابرة حتى هذه اللحظة، وإذا بالمجلد الأخير يكشف

عن وثيقة عنوانها: (فن العزف على العود)، كَتبَها ناسك عظيم الشأن في زمانه يُنسَب إليه فضل اختراع التدوين. أشار المؤلف إلى الناسك المتصوِّف بكلمة «فلان»، وقال إن «فلانًا» هذه كلمة عربية مفادها أن الناسك مجهول الاسم، أما تاريخ الوثيقة فيعود لبداية القرن الخامس عشر، أي أن كاتبها قد عاصر الدولة المملوكية البرجية، زمن الشيخ الموصليّ!

قام يوسف، فرَدَ المجلد فوق سور الشرفة طلبًا لمزيد من الضوء. قرأ الفقرة عدة مرات، راح يُتمتم بكلماتها المفتاحية كأنما يستحلبها، وفي كل مرة يُعاود اليقين تمسيدَ قلبه، حتى انتحى الشك أعمق كهوفه المظلمة. المجلد من تأليف كاتب اسكتلنديّ كاثوليكيّ، ورغم ذلك يُجزم بأن للتدوين الموسيقي أصولًا شرقية، وأنه مرَّ إلى أوروبا عبر عرب غرناطة. ليس هذا فحسب، بل يشير إلى الوثيقة باعتبارها أول مرجع يضع الأساس لفن التدوين. أيقن يوسف بأنه وجد الخيط أخيرًا. ترك المجلد وافترش لحافًا فوق أرضية الشرفة، توسّد ذراعه وأغمض عينيه، وراح يتأمل الكون في رحاب النسمات الناعمة، مُتحمِّلًا لدغات البعوض كتكفير هيّن عن شكوكه العابرة، عازمًا ألا يغادر مهبط الإلهام حتى شروق الشمس.

بالفعل، أيقظتهُ الرماح اللاهبة حين اشتدّت حرارتها. نهض مُستقبِلًا يومه بشعور غامر بالسَّكينة، ووجد المجلد مستلقيًا فوق سور الشرفة كما تركه، تهف نسائم الصباح بأوراقه فتُرفرف كجناحي طائر كسول، ثم تحط من جديد على صفحة الناسك «فلان». ثمة يقين

جديد أكثر تماسكًا يولَد في نفسه. بإمكانه الآن العودة لقواعده، طالما تخفّف من أعباء الشك. يُمكِنه استعادة مشاعره التي ظلّت مُحتجزة في خزانة قلقِه، وتنسيقها في باقة يفوح منها عطر الحنين. أدرك كم يشتاق لرحمـة، وكيف استوحش بعيـدًا عن ظلّ أبيهـا. أدرك لماذا تحاشـى اللقـاء بهما، كيلا يكون مُضطرًّا للادعاء. لم يعتَد أن يُمارس كذبًا بهذه الفجاجـة؛ أن يُلقِّـن المريدين الطريقة ويغذِّي جـذوة يقينهم، بينما هو نفسه مُطوَّق بالشك. وأي شك؟ الشك في وجود الشيخ من الأساس! الآن يشعر باسـتعادة نفسه، يُدرك حُرقة اشـتياقه ومدى تحرُّره. الصبر مفتـاح الفرج، وها هو الفرج يُطِل عليه من ذات الصفحات التي سـبق أن ألهمته الشك؛ مجلدات زينة.

فكّر أن يتصل بزينة ويفاجئها بفحوى الوثيقة، ولكنه عاد وشدّ لجام نفسه. أغلب الظن أنها ستلوذ بالصمت لبرهة، تبحث خلالها عن ثغرة منطقيّة، حتمًا سـتجدها فدائمًا ما تجد ثغرة ما، فهي لا تسـتدل بالقلب على الإطلاق، بل إنها تسـَخر من هكذا اسـتدلال. ستطلب دليلًا على كون فلان هذا الشـيخ الموصليّ، ولمـاذا لا يكون فلانًا أو عِلّانًا آخر؟ بمـاذا سـيجيبها؟ بـأن ناسـكًا صوفيًّا عاصر دولـة المماليـك البرجية، وألّـف كتابًا في فن العزف على العود، ضمَّن فيه أول محاولة للتدوين الموسـيقي يذكرها التاريخ، طبقًا لمراجعها هي، لا بد أن يكون الشيخ الموصليّ! من غيره؟!

لن يمرّ نقاشـها بسلام. ستتفنّن في تفنيد ادّعائه وإفساد سعادته، بل وزلزلـة يقينه. فضّل أن يلتقـط صورًا لصفحات المجلـد، حيث تظهر

الوثيقـة ونمـاذج التدوين، ويرسـلها لبريد زينة الإلكترونـي. فلتتأمّلها على مهل وتسـتنتج ما تشـاء. ارتاح يوسـف لقراره، واسـتعدّ لتكريس يومه لرحمة، وزيارة الأسـتاذ. كفاه تقصيـرًا أن فوّت زيارته لأيام، منذ بلغه خبر إصابته بجلطات مُفزعة. تابع الحالة عبر رسائل رحمة، وداوم على مهاتفة الأستاذ كل مساء، وباستمرار كان يجد الهاتف مغلقًا. انتبه لكونـه لا يعـرف الرقم المنزلـيّ، ولا يصِحُّ أن يحصـل عليه من رحمة دون المرور بأبيها. لا بد من زيارته اليوم، خاصة وقد سبقته زينة لأداء الواجـب وهي الغريبة عن عاداتهم كما يقول الأسـتاذ. حدَّثته بالأمس عـن زيارتها، وأخبرته كيف وجدت الأسـتاذ نائمًا أثناء العصر، وكيف أمضت وقتًا لطيفًا مع ابنته.

قـام يوسـف ليتجهّز. تحمّـم وتعطّر وارتدى أحبّ ثيابـه. تفكّر في أنسب هدية يحملها، ثم تراجع مُتسائلًا: لماذا لا يُرجئ الزيارة لما بعد العصر، فقد يُصادف قيلولة الأسـتاذ كما فعلت زينة؟ استقبل الخاطرة كإلهام سماوي يُتيح الفرصة لانفراده برحمة. خلع ملابسه ثانيةً، وأعدّ جرعة مضاعفة من قهوة الصباح جلس يحتسـيها أمام الكمبيوتر، بينما يُتابـع مقاطع مختـارةً من أحبّ معزوفـات العود لقلبه. بـدأ بمقطوعة لممـدوح الجبالي، مُلهمـه الأول منذ أيـام الأكاديمية، أهداه ابتسـامة بظهر الغيب، وتابع بشـغف جلسـته المُنكبّة فوق العود وحاله الأقرب للخشـوع بينما يضبط الأوتار، وشحمة أذنه التي تُلامس القصعة كأنما

تداعبهـا، حتى يشـرع فـي ارتجال التقاسـيم ويغيب عن محيطـه، نائيًا بحبيبه عن ملهاة البشر..

أطفأ يوسف الجهاز مع نهاية المقطع، فقد فاضت نفسُه بعذوبة أثنته عن تشـغيل مقطع آخـر. فضّل أن يُزجي الوقت بإعـادة قراءة المجلد، قـراءة تأمليـة متمهِّلـة هذه المـرة، جرّت فـي خضمّها السـاعات حتى داهمـه العصـر. انتبه للأذان وشـرع في الصلاة قبـل أن ينتهي المؤذن، ثم تجهّز بعجالة ومضى قاصِدًا متجر حلويات شرقية زكّاه الأستاذ من قبـل. ابتاع صينيّة «كُل واشـكُر» كبيرة، ارتصّـت فوقها أصابع البقلاوة فـي أقواس راقصة، وخفَّ إلى بيت أسـتاذه يدفعُه الحنين. لاحظ عين الباب السـحريّة التي لم تكَد تُغمِض حتى تفتّحت سـريعًا، فخفق قلبه لاستشـعاره وجود رحمة خلف الباب. مرّت لحظـات قبل أن يُوارَب الباب، ويلوح وجهها بابتسامة مُضيئة ونظرة تشفُّ عن دهشة مبتهجة. «بابـا نائم!» همسـت بتردُّد، عاجلها يوسـف بينما يُفسِـح الباب: «هل لـي أن أنتظره بالداخل حتى يفيق؟» فتحت الباب وحملت عنه العلبة، فانكشـف ذراعهـا الشـاحب الأملـس مـن فتحـة الخمـار، وكانت قد وضعت خمار الصلاة على عجل. نبتت ابتسامة بين أجفانه، فسارعت بطـيّ خمارها وقـد تـورّدت وجنتاها، ثم تلاشـت بالداخـل. انتظرها على الكرسـيّ الأقرب للردهة الموصلة لغرف النوم، حتى إذا ما خرج أسـتاذه وقـع عليه بصـرُه على الفور، فلا يمسُّـه من وجوده سـوء ظن.

عادت رحمة وقـد ارتدت كامل ثيابها، إلا النعل المفتوح الذي أطلّت منـه أصابع قدميها، فبدت ليوسـف أشـهى مـن حبّات البقـلاوة. قطع طريق الصمت قائلًا: «افتقدتكِ طويلًا»..

بخفر سألت: «ولماذا تأخّرت علينا في السؤال؟».

– أنتِ محقّة. كل ما هنالك أني مررتُ بفترة عصيبة في البحث، لم أفِق منها إلا اليوم.

– سـامحني يا يوسـف. لولا انشـغالي بمرض أبي لتابعـتُ النتائج معك يومًا بيوم.

– بل إنني من يطلب السـماح، فليس مقبولًا أن يشـغلني شيء عن السؤال عن صحة الأستاذ.. وعنكِ بالطبع.

– لا عليك، هو مشـغول بهموم العمل عن أي شـيء آخر.. طمئنّي يا يوسف؛ كيف تجري أحوال الوكالة ؟!

فاجـأه السـؤال! غاب عـن حلقات الذِّكـر والتدريب لأيـام، وكان يتحيّن الفرصة لسؤال زياد عن أمور الوكالة، فإذا به يُسأل. كان يتوجّب عليـه أن يسـأله قبل قدومـه، فلا يقع في مـأزق بهذا السـخف. ماذا لو سأله الأستاذ؟! أجابها: «الأمور طبيعية»، وازدرد ريقًا كعصارة التهاب حلْقيّ.

– هل ثمة مشاكل سبّبها أصدقاء أبي من شيوخ الجمعية الشرعية؟

قال على استحياء: «الحقيقة أني لم أجد وقتًا لأُتابعهم. أوصيت زياد أن يقوم بذلك».

شردَت قليلًا، ثم قالت: «لن يرتاح بابا لهذا، فهو لا يثق بأحد غيرك».

بتأسُّف قال يوسف: «هل تظنين أن الأستاذ سيستاء مني؟!».

– لا عليك. فقط أرجوكَ أن تتابع الأمر بنفسك. أنا قلقة على الوكالة. أبي لا يثق في زياد، بينما أنا لا أرتاح لأصحابه هؤلاء، ولا لتمدُّدهم بالداخل.

– ستكون عيني عليهم، لا تقلقي.. ولن أتأخّر ثانيةً عن شؤون الوكالة حتى يعود الأستاذ.

– ادعُ له يا يوسف، فحالته غير مطمئنة بالمرة!

– لماذا لا يسافر كما انتوى، فيعرض نفسه على أطباء ألمانيا؟

– حذّره الطبيب من السفر حتى تُذاب الجلطات بنسبة مُطمئنة. وعدتني زينة بأن تُعالج مشاكل الوكالة فلا يحتاج للسفر.

– «زينة؟!»

– نعم، زينة ديناري، يبدو أنها تعرف المسؤولين عن التمويل الأجنبي، وستقوم بمخاطبتهم. أرجو أن تستطيع، فأنا أُفضِّل ألا يُغادرنا بابا أبدًا.

- حبيبتي، الإمكانيات هناك تفوق ما لدينا بكثير.

لاحظ ارتباكها المفاجئ، وانتبه لاحمرار خدّيها وسقوط نظرتها بين نعليها المضمومتين، فطِن لكلمته العفوية التي ابتدرت عبارته الأخيرة، وأشفق على رحمة بمقدار ما خجِل من تسرُّعه. نهض مُعجّلًا بقوله: «سأذهب الآن قبل استيقاظ الأستاذ. سأحار في الإجابة لو سألني عن الوكالة، سأذهب إليها من فوري كي أكون جاهزًا لإخباره بكل كبيرة وصغيرة حين أهاتفه في المساء. هلّا أعطيتِني رقم هاتفكم المنزلي؟».

- نعم بالتأكيد.. سجّله عندك.

سجَّل الرقم، ومدَّ نحوها يدًا دافئة مُحتضِنًا كفها الصغيرة، كمن يُعاين غَرفةً من نهر الجنة. استمهلته قليلًا دون إبداء السبب، ودلفت سريعًا إلى المطبخ. أمضى الدقائق في تأمُّل مكتبة أستاذه، التي ملأت جدران الصالة فكادت تخفيها. التقطت عينه عدة عناوين كان يبحث عنها ويرغب في قراءتها، تتوارى تحت طبقات ناعمة من التراب؛ «العروة الوثقى» لمحمد عبده، «رسائل في الفلسفة والعرفان» لجمال الدين الأفغاني. استعاده حفيف خطوات رحمة، وقد عادت تحمل كيسًا يشِفّ عن وعاء مُغلَّف بورق مُفضّض، حمله واستشعَر دفئه. سألها: «ما هذا؟».

- أعددتُ لك شيئًا للغداء. تبدو منهمِكًا لدرجة الإهمال في الأكل. بطنك الضامر يشي بك.

كتم ضحكة كادت تُفلِت، وخطا مُتردِّدًا نحو الباب. لو كان الخيار لقلبه لاختار البقاء معها أبد الدهر، ولكن الحياة تضِنّ عادةً بما يرجوه القلب، كما تناقض بإصرار ما يقبله العقل. هبط أولى درجات السلم، واستدار ليمنح نفسه إطلالة أخيرة على وجهها، عازمًا أن يحفظه على سطح ذاكرته كنجمة دالّة على الطريق، أو فنار هادٍ يُبشِّر بالأمان. ثم في طريقه إلى الوكالة ودَّع الشمس الغاربة، شاكرًا لها ما أسبغتهُ عليه اليوم، آمِلًا في شروق جديد مصحوب بدفء اليقين.

12

التفَّ يوسف حول الوكالة قاصدًا بوابتها الجنوبية. التقطت أذناه لغطًا مُتصاعدًا، أخذ يشِفُّ كلما اقترب عن صوت زياد، وقد اكتسى بنبرة سوقية يُتقنها. بدا أن زياد مُشتبك في شجار ما. هرول يوسف صوب البوابة، وبدنوّه راح يلتقط صوتًا تلو الآخر، حتى ظهرت الأجساد من بعيد؛ جسد زياد الطويل الممتلئ، في مُواجهة جلابيب بيضاء قصيرة. سريعًا تبيَّن المشكلة بعد أن ألقى سلامًا لم يحفل به أحد؛ يرفض زياد إقامة كُشك حراسة أمام البوابة الخلفية، بينما يُصِرُّ على بنائه السلفيّون؛ كي يجلبوا خفيرًا يحرس المون والمعدّات.

«لمَ لا تسأل الحاج ذاكر، قبل أن تُسمِعنا صوتك المُنكر؟!» هكذا رعَد أصغرهم في وجه زياد، وكان شابًّا قصيرًا أكرش يكاد يكون نموذجًا مُصغَّرًا من زياد.

صاح يوسف: «ما الأمر؟» إذ استشعر صعوبة اقتحام السّجال.

حاشه زياد قائلًا: «دع الأمر لي، وسأُسوّيه معهم».

صاح القصير الأكرش: «وما شأنكَ أنت؟! اذهب لسيدك ذاكر رسلان، وسيقول لك بنفسه!».

تدخّل يوسـف بحزم: «من فضلك، أنا المسـؤول هنا»، ثم خاطب الجميـع: «أرجـو أن تُوجّهـوا حديثكـم إلـيّ، ولا أريد جلبـة هنا. بـ.. بالداخـل طَلبة ومريـدون وصُنّاع، وجميعهم يحتـاج الهدوء كي يقوم بعمله».

«صُنّاع الفسـق»، تمتم الأكرش بصوتٍ خفيض، بينما استمر الغيظ يجـأر من أعيـن الجميع، أهمله يوسـف ودعاهم لإكمـال النقاش في قاعة التدريب. طلب مفتاح البوابة من زياد، واستأذنه أن يجلب عصير ليمـون مـن مقهى قريب. حدجَه زيـاد بنظرة لوم قبـل أن يمتثل لطلبِه، سـاحقًا غضبه في أديم الأرض. تعرّف إليهم يوسف بالاسم، وسألهم عن سـير الأمور قبل التطرُّق للمشكلة الأخيرة. تحدّث عنهم كبيرهم، وكان ذا نبـرة وادعـة ومريحـة، بينمـا جلس الشـاب الأكرش مُسـتندًا لركبتـه، يفـرك ثناياه بعود سـواك ويتوفَّز للعراك مع أول إشـارة. تعمّد يوسـف تجاهله كي يُذيب حدّة التوتّر، وانحنى باهتمام صوب الشـيخ هادئ النبرة الذي قال: «أرى أن بإمكاننا إقامة المظلة كما طلبها الحاج ذاكـر في غضون أسـبوعين على الأكثر، ولكننا نحتـاج لتأمين الحديد وماكينة اللحام والمعدات؛ لذلك نحتاج لخفير يحرس حاجياتنا ويُعِدّ الشاي للعمال».

– مفهوم طبعًا، ولكن إقامة كشك أمام البوابة قد تُثير حساسية لدى البعـض. لدينا طَلَبة من الجنسـين، غادون رائحون علـى امتداد اليوم، كما أن المبنى أثريّ، وثمة أبعاد جمالية يجب الحفاظ عليها. لـ.. لماذا لا تقيمون الكشـك على الجهة المقابلة؛ رصيف جمعيتكم الشـرعية؟ فالشارع ضيق والغرض سيتحقق هنا أوهناك.

تدخّل الشاب المتوفِّز: «أتُطالبنا بحراسة أموالنا عن بعد؟! أتطلبون تعاوننا ثم تستنكفون وجودنا على حدودكم؟ والله إنه لأمر عجيب!».

حدجه يوسف بطرف عينيه ثم أردف مخاطبًا كبيرَهم: «لا داعي لحدّة أصدقائك يا شيخ، أنتم مرحب بكم بالطبع، وما فهمتُه من الأستاذ أنه يتعاون معكم ويسعى للتوسعة على المصلّين في مسجدكم، وهو أبدًا لا يطلب شيئًا لنفسه ولا للوكالة».

تمهّل كبيرُهم لبرهة، ثم سأل: «أهكذا قال الحاج رسلان؟».

انتبه يوسف لدخول زياد، حاملًا شفشق الليمون المُرصّع بحبيبات الماء، فعجّل باحتواء الخلاف: «هذا ما قاله الأستاذ، وسأُراجعه في طلبكم».

– أهكذا يُقابَل أول طلب نطلبه؟ لا بأس، سأنتظر الرد. ستجد أرقامي في هذا الكارت.

تناول يوسف الكارت ونهض في إثرهم، حاول استبقاءهم لشرب الليمون ولكنهم تمسّكوا بالمغادرة. رافقهم حتى بوابة الوكالة وأغلق المزلاج من ورائهم، بينما يرمق زياد بابتسامة ودود، قبل أن يبتدره: «هل أستحق منكَ هذه التكشيرة؟!».

– ليتنا نملك فسحةً للمجاملة.. هؤلاء يسعون للسيطرة على الوكالة، فهي تُمثِّل لهم ضربة مزدوجة؛ مركزًا للتوسُّع في حيّ مُكتظ ليس فيه خُرم إبرة، وفرصة سانحة لتقليص حجمنا وتأثيرنا!

– مهلـكَ يـا رجل.. ليـس الأمر بهذا السـوء عند هـذه النقطة على الأقل. أُدرِك أن للسـلفيّين طموحًا لا يُسـتهان بـه، ولكنهم نالوا الكثير مـن الضربات في الآونة الأخيرة، وأظنهم يسـعون للعـودة لقواعدهم السابقة بعدما أجبِروا على تقليص نشاطهم السياسيّ.

– أخطر ما فيهم هو هذه القواعد السابقة يا فنان.. اسأل عمّك عبيد عـن تاريخهم، فهو من شـهِد توغُّلهـم في الدرب الأحمـر منذ بدايته. لقد سـبقتُكَ هنا وأعرف الكثير، وأستغرب أسـتاذكَ الذي يتودّد إليهم وينسحب أمامهم لسبب لا أعلمه، وعلينا أن نحولَ دونه.

«سـنفعل»، قال يوسـف مُربّتًا كتفه اللحيم «ليت الأستاذ يرى منكَ هذا الوجه الحماسيّ، لكان اطمأن على مستقبل الوكالة».

– ليـرَ مـا يريد، أنا لا أتملّق أحدًا. لو شـاء لعرف مـن يهمّه الوكالة بحق، ولكنه لا يُجيد قراءة البشـر، وإلا لما سـلَّم القـط مفتاح الكرار، حتى لو بدا قطًّا بلديًّا بلحية طويلة!

– تأدّب يا فتى.. لا تتحدّث عن أستاذكَ بهذه اللهجة. رجل حكيم مثله قد يرى ما لا نراه.

لوّح زياد بحنق واسـتهانة، فأمسـك يوسـف بذراعه وقال: «ادعُ له بالشـفاء بدلًا من غضبكَ عليه، فهو عرضةٌ لتطورات خطيرة لا سـمح الله»..

– شفاه الله يا مولانا، ولكن هذا أدعى لأن يُسلِّمنا القيادة، فنمنع ما يجرّ علينا من مصائب.. ما عليك، لنذهب الآن. لديَّ أكثر من مشوار، وعمك عبيد مضى لبيته مبكرًا.

- اذهب أنت، سأمكث لبعض الوقت. اترك لي المفتاح الليلة.

استدار زياد وقال بطريقة مسرحية: «لا يا سيدنا، اعذرني.. أنت مشغول طوال الوقت وأخشى على الوكالة من إهمالكَ، ومن نعومة تصدّيك للإخوة الأعداء! سأعود قبل انتصاف الليل وأُسكّر البوابة». ثم سحَب يوسف من ذراعه وأردف: «تعالَ أُريكَ طريقة خفيّة لجذب المزلاج من الخارج، فتنغلق البوابة كما لو أن أحدًا بالداخل».

اجتازا البوابة الخلفية وأطبق زياد درفتيها، ثم من بين شقوقها الطوليّة حشَر نصلًا رهيفًا، حرّك به قضيب المزلاج قليلًا، ومن شق مجاور حرّكه المزيد، ثم سحبه سحبةً أخيرة من بين الدرفتين دفعت به لداخل الرَّزَّة. هزّه مؤكدًا إحكام غلقه وطالع يوسف بإيماءة افتخار. دفع يوسف البوابة بنفسه فلم تنفتح، تناول النصل وأعاد فتح المزلاج بذات الطريقة مطمئنًّا لجدواها، ثم قال: «أنت مصيبة كبرى فعلًا. للأستاذ كل الحق في الارتياب فيك!» ابتعد زياد وهو يقول: «عُم على عَوْمِه يا صاح، هذا حظي من الدنيا.. قليل القليل!».

***

عاد يوسف إلى الداخل بعد ذهاب زياد. كان قد اصطحب المجلد معه من البيت، مرورًا بزيارة الأستاذ، لكي يُعيد قراءته في قاعة الشيخ أمام صندوقه الزجاجي، الذي يضمّ أوراقه الخالدة. وقف يتأمل الرموز الغامضة؛ بعضها واضح كأنما كُتِب بالأمس، والبعض مطموس في هوامش قضمتها السنون. لا يُبقي الزمنُ ولا يذر. كل شيء ماضٍ في سبيل الفناء، حتى الأوراق المباركة. حتى الرموز الجليّة ليست عصيّة

على أضراس الزمن، بل إنه يتركها لتبيان ما فعله بمثيلاتها المطموسة. فتح يوسف المجلد على صفحة الوثيقة، وطالع نماذج التدوين الموسيقيّ؛ تكاد تُطابِق أوراق الموصليّ بالفعل.. سيُريها لزينة فور وصولها.

تأخرَت قليلًا. ضربت له موعدًا في الوكالة لتشرح أبعاد مشروعها على الطبيعة؛ ورشة تصنيع الآلات القياسية، مكان المسرح المكشوف، الذي ستتدفّق منه موسيقى البوب والتكنو الشرقيّ وتجوب العالم، أنظمة الصوت والتكييف والتهوية.. كل تفصيلة مدروسة بدقة ولا تضرّ بطابع المبنى التاريخيّ. كان هذا ما شرحَته زينة بحماس كبير فور وصولها. استقبلها يوسف عند بوابة الوكالة الشمالية، التي احتفظ بمفتاحها بعيدًا عن إلحاح زياد، وفضّل أن يدلفا منها بعيدًا عن عيون الجمعية الشرعية. أنستهُ ملابسُها كل ما تأهّب لقوله؛ بنطالها الجينز المُشمّر حتى منتصف الساقين، بلوزتها القطنية الفضفاضة التي انحسرت عن كتف منحوتة كتمثال شمعيّ، يتوسّطها حزام حمالة الصدر الأحمر. شاغلَه قوامها، وامتلأت نفسه بوخز الضمير كما امتلأت بالعطر المُسكّر. ثمة خيانة لذكرى لقائه برحمة تأخذ بخناقه، ثمة إهانة لأجواء الوكالة تكمُن في وجودها، وتحدٍّ لكرامة مولاها. ستفتك به هذه الفتاة، بحبِّه وبحثه ووكالته، كما فتكت بيقينه قبل أيام. سيُقاوم قدر استطاعة قلبه الراجف!

كانت تتعلّق بذراعه بابتهاج طفلة ونعومة أنثى، بينما يجوبان أنحاء الوكالة. في كل ركن تشرع بالشرح، فيُتابع نصف كلامها بصعوبة.

النار تسـري فـي أوصالـه، تُفكّكهـا، تحرق راياتهـا وتـدُكّ حصونها، تُعلِـن انتهـاء عصـر وحلول آخَـر. كانت تفُكّ أسـر ذراعه كلمـا توقفا عند ركنٍ أو أمام قاعة، تُشـير لرسـم هندسيّ على شاشة محمولة، أول منظور ثلاثيّ الأبعاد، فلا يستوعب أكثر ما تقول. ظل شاردًا في ذكرى تُنازعـه، مأخوذًا بنيـران تتمدّد بداخلـه، حتى أنهت شـرحها في ردهة الدور الأول. كانت تقف على مبعدة منه لأول مرة منذ حضرت. سألته بحماس مُتّقد: «ما رأيك؟».

قال بارتباك: «عظيم!»

– تبدو شارد الذهن..

– التفاصيل كثيرة، أ.. أكثر مما يحتمل لقاء واحد.

– معك حق. أمامنا متّسع من الوقت لنعاود الشرح. أريد انطباعكَ المبدئيّ فقط، هل أعجبكَ المشروع؟

– رائع بالطبع..

اندفعـت نحوه وتعلّقت برقبته. شَـقَّهُ احتضانهـا نصفين! ارتعدت فرائصـه. ذَهِل عمـا حوله وتراجع لائـذًا بالجدار الحجري. هو أشـد صلابـة منه بالتأكيـد. فلم ينهَر من قبـل.. أما هو، فأوشـك على انهيار مُحقَّق.

أفلت من أسرها مُربّتًا كتفها العارية. لامس حريرَها وشعَر باستحالة الإفلات منها. سيسـقط بالتأكيد! «لماذا تخشـى اقترابي؟» قالت بنبرة مبحوحـة وخافتـة، بغنـج يُذيـب الحديد ويُصلِّـب الذائـب. اقتربت.

طوّقته من جديد. شعَر بدوار يعلو رأسه بينما يتركّز التنبُّه في أسفله. قطيفة السماء ملساء كحريرها. سوداء كرماد راياته. الظلمة تزحف عليهما كلحاف سرير. والنجوم تترقّب حريقه. ترتجف معه.

دفعته عبر فتحة باب ذائب في الظُّلمة. تناولت كفّيه. جذبته نحو الأرض. غاص رغمًا عنه في منأى عن السماء، في هاوية قاعة من القاعات. النجوم المرتعشة صارت بعيدة. الضوء غلالة شفيفة ترسم خيال الباب. سماء القاعة ثقيلة بالعطر، بالرغبة المحمومة. لم يعُد انتصابه سرًّا يتوارى، ولا خضوعه وهمًا عابرًا. خفقان قلبه يعلو لهاثه. لعابها السائل فوق جلده يُبلِّل شعيرات صدره. فتح عينه على اتساعها. حاول امتصاص الضوء عن آخره. توسّل المعونة من قوى الوكالة الخفيّة. من خزانة الزمن واليقين. أين الجدران الصامدة؟ أين الأذكار المُختَزَنة والنغمات المُباركة؟! ثمة شيء يلمع خلفه. حواف حادّة تقطع قطيفة السواد بنِصال رهيفة. تجهد زينة في إعادة نحتِه. بثناياها اللؤلؤية. بشفتيها الرطبتين. بينما تطلّ الحواف الحادة من ورائه فترسم حدود مكعَّب ضوئيّ. من أين يجيء الضوء؟ فتحة الباب تكبُّ أثيرًا شفيفًا فوق الزوايا اللّامعة. ترسم إطارًا للهيب جوفه. إنه الصندوق الزجاجيّ.. صندوق الموصليّ! تذكّر الآن كيف وضع المجلد مفتوحًا على الأرض، أسفل الصندوق. مطّ رقبته المُبتلة للوراء. لامس شعرُه حافّة المجلد.

ثم انحسر الضوء، وأظلمت السماء..

***

16

تبـدّدت أسـباب حنقـه على الحيـاة إذ وافق مشـعل علـى الفكرة. شـرع على الفور في إعداد المشروع، المرسوم في ذهنه بحذافير دقيقة ومصقولـة. اصطحـب معـه أحـد العاملين في مركـز لطباعة الرسـوم الهندسية، بعدما أفاء عليه بعلبة سجائر مستوردة، وطبق كشري «فويل كبيـر»، ومشـروب غـازي مثلّـج، وكثير مـن الإلحاح. أخذا قياسـات الغرفتين طولًا وعرضًا وارتفاعًا كما طلب مهندس الصوت، تأكّدا من إمكانية فتح شـباك زجاجي عريض بين الغرفتين، تنبّه أخصائي الرسم الهندسـي لوجود عمود خرسـانيّ يتوسّـط الجدار الفاصل، سأله زياد إن كان ثمـة ضـررٌ من وجـود العمود، فأوضح أنهم سـيضطرون لفتح شـباكين على جانبيه عوضًا عن الشـباك العريض، فاطمأن زياد لتفاهة الملاحظـة. حدّدا سـويًّا أطوال العـوارض الخشـبية المطلوبة لتغطية أغلب الجدران، وكذا كميات الشـرائح الإسـفنجية التي ستحشو تلك العوارض كعوازل للصوت.

في المساء، عاد زياد لبيت جدته بعد انقطاع دام لعشرة أيام، تظاهر بالنوم حتى التحف الليل بملاءة سكون داكنة، ثم شرع في برم سجادة غرفتـه الحمـراء المتهرّئـة، وجرجرها لشـرفة نشـر الغسـيل الملحقة

بالغرفة، أدلاها من سـور الشرفة وأسـقطها مسافة دور واحد فوق ممر البنايـة الخلفـيّ، فأثار هبوطها المكتوم غضب الأرض المغبّرة. شـرع يُدلّي مرتبة سـريره، فمرّت زفّة سـيارات شـقّت بأبواقها سكون الليل. فـزِع زيـاد وثار حنقه، ترك المرتبة فوق حافة الشـرفة ودلف ليسـتطلع أمـه؛ كانت نائمة لا تزال، تحلم بيوم يعود فيه أبوه لينام بجوارها نومته الأخيـرة. عاد للشـرفة حين تلاشـت الضوضـاء في فضـاء الليل، ومدّ ذراعه بالمرتبة لأدنى ارتفاع ممكن، ثم أفلتها ساقطةً فوق السجادة.

كان في انتظاره سائق السيارة الثُّمن نقل، الذي شاطَره قبل قليل حبة ترامادول بيضاء، استعانا بها على السـهر والإرهاق. رفعا سـويًّا مرتبة السـرير والسـجادة فوق ظهر السـيارة، ثم تعاونا في ربط المنقولات. طلـب إلى السـائق أن يتبعه لداخل الممـر، ويتناول ألواح السـرير من أسـفل الشـرفة. سـارع زياد بالصعود، وشـرع في تدلية الألواح واحدًا بواحد، حين سـمع صوت أمه من الخلف تسـأل بفـزع عما يفعل. «لا شيء يا أمّاه؛ عودي إلى النوم!» أخذت بتلابيبه تجذبه إلى الوراء وتصيح فيـه: يـا حرامي، يا ناقص، يـا دون، يا نَوَريّ.. أخذ جسـمه الثقيل يهتز استجابة لقبضتيها المتشنّجتين. قذف السائق الجبان بسباب ثقيل حين ركض مُبتعدًا عن مصدر الصراخ. أدلى آخر الألواح واسـتدار مواجهًا أمـه: «اتركي الثياب يا أماه، فلن يشـتري أبي غيرها. دعيني وشـأني». حلَّ أسره من أصابعها القوية ككمّاشة، وانطلق لاهثًا نحو الخارج غير عابـئ بزرار قميصه المنزوع، ولا بدمـوع أمه اللاهبة، ونظرات الجارة العجـوز التي تابعت هبوطه بمزيج من الرعب والإثارة. عاون السـائق

على رصّ الألواح خلف المرتبة، واعتذر عن سبِّه بشطر حبة ترامادول أخرى، حين ركبا السيارة وشقّا هدأة الليل بصرير عجلاتها الصغيرة.

أيقن بأن دموع أمه التي أهملها وصرخاتها التي لاحقته ترسم حدَّ اللا رجعة حول البيت. انقطعت جذوره منذ هذه اللحظة. عليه أن يشقّ طريقه وحيدًا غير ممسوك بأمل. هذه حياةٌ فُرِضت عليه. سيعيشها كيفما اتفق ولن ينتظر شيئًا من أحد. شعَر بالغصّة القديمة تتكتّل في حلقه، ورغم ذلك أحسّ ببوادر تحرُّر من عبودية آماله السابقة، من جذوره التي لم تمنحه إلا الطموح المُضلِّل. لا حاجة به لأحد. سيقطع الحياة وحيدًا كما فعل دومًا، وسيهنأ بها حتى الثمالة حتى لو لم ينتظره في نهايتها غير الجحيم.

حمل منقولاته لشقة مبروكة في الدور الرابع، ومنح السائق مائتي جنيه نظير مجهوده ورُعبه، ثم انهار جالسًا فوق المرتبة ينز عرقًا وإرهاقًا. أين مبروكة؟! لم تعُد بعد تلك الساقطة. هاتفها بآخر رمق في بطارية الهاتف. أجابت بعد عدّة رنات. «أين أنتِ؟» سأل بغلظة، فقالت بصوت راجف: «أنهيتُ فقرتي الآن فقط. سأكون أمامكَ بعد دقائق».

مضى الوقت ثقيلًا حتى سمع هدير عربة «التُّكتُك» المتقطّع. أطلّ عليها من شباك الصالة. جذبها لداخل الشقة بقوة غضبه. تعثّرت في المرتبة وفي الكلمات، بينما تُبرّر تأخّرها. قالت حين جلس مُستكينًا: «أرأيتَ كيف آذيتَ ذراعي؟! ستُفسِد عليّ جلسة التصوير بالغد!» تناولت من حقيبتها رزمة أوراق نقدية، مدّتها نحوه: «هذا مُقدّم

استئجار المكان، بعث به المصوّر اللبناني». كان موقنًا بأن المصوّر لم يدفع جنيهًا بعد. هذه الأموال تدفعها ثمنًا لإرضائه، ثمنًا لليلة هادئة بلا ضرب ولا إهانة. كان سيُفرغ فيها غضبه بحق، خارج السرير كما فوقه، وإذا بها تُعجّل بطلب الحماية وتدفع الثمن. لم يجد مفرًّا من قبول المبلغ، ومُجاراتها في تمثيلية السعادة البلهاء التي تُغافله بها. دعتهُ لإغماض عينيه حتى تضع زيّ الجواري الذي أعدّته. أخذت تُداعبه رواحًا وجيئة، تُمطِره بإيماءات غنِجة مُلتهبة، حتى شعر باستجابة حقيقية دفعته لجذبها نحو مرتبة السرير. استلقت بجواره، جسدها ينضح بحرارة العرق المُثير. شرد يتأمَّل الموقف العجائبيّ؛ مبروكة تستلقي فوق مرتبته لأول مرة، تدخل عرينه البدائي بعدما صار مقطوع الجذور، بلا بيت يأويه. انتابه شعورٌ بالتحرُّر، بأنه صار طليقًا كما صقر في السماء.. وهكذا كان حين انقض عليها.

***

في الصباح عكف على تبديد مرتبة السرير التي أكّدت تحرُّره. نزع كسوتها واستخرج باطنها الإسفنجيّ. شرع يرسم خطوطًا مُتقاطعة على مسافات متساوية، ثم أخذ يُقطّعها بصفيحة منشار ويستخرج بلاطات إسفنجيّة لكسوة جدران الاستوديو. حاول تقطيع الألواح الخشبية بنفس المنشار، فوجده أمرًا مُضنيًا قد يستغرق عمرًا بأسره. وضع ثيابه وذهب لاستئجار منشار كهربائيّ من ورشة نجارة قريبة. حين عاد وجد مبروكة تقطر ماءً وتقف مدهوشة على رأس جريمته.. أشلاء الإسفنج ونشارة الخشب تكسو أرضية الصالة الصغيرة كبقايا

انفجـار مدمّـر. طمأنهـا بابتسـامة دافئة، هـي أقصى ما ترجـوه في أي صبـاح يجمعهما، وشـرع فـي إضافة المزيـد من النشـارة والصخب. تابعته بحسـرة على البيت المنكوب، بينما تدهن ساقيها بخليط السكر والجلسـرين. بعد سـاعات مـن التقطيع والتعرُّق، مرّ به سـائق الأمس وحمَّل قصاصات الخشـب والإسـفنج لشقة الشـيخ زايد. تابع مشعل وصـول التجهيـزات بفتور، وسـكب انطباعًا باهتًا فـوق حماس زياد. صرَف السـائق وقدّم لمشـعل كشـف المصروفات، الـذي أضاف فيه بنود الإسفنج والخشب والتقطيع والنقل. طالعه مشعل سريعًا، وتركه بإهمال فوق المنضدة.

بعد قليل، وضع زياد الشيشـة ورصّع تاجها بجمرات موقَدة، سأله مشـعل: «متى السـفر إلى السـاحل؟» فقـال: «أعددنا العـدّة للخميس القـادم». «بعيد!» قال مشـعل وهو يدفع الدخان مـن منخاريه كالتنين، فقال باقتضاب: «الڤيلا مؤجّرة، ستُخلى نهار الأربعاء».

فـي طريقـه إلى الوكالـة، تأمّل زياد كيـف تُلاعبه الحيـاة، ليس هو فحسـب، بـل تُلاعب يوسـف أيضًـا، وذاكر رسـلان، حتى لـو تباينت أدوات اللعـب مـن شـخص لآخر. بالنسـبة إليـه، تكمـن أداة مُلاعبته في نصفه الأسـفل؛ في اشـتعاله بالرغبة والأمل في الحياة. أما يوسف فتكمن أداته في العقل، فهو كثير التفلسـف، يظن نفسـه أذكى الجميع بينمـا لا يعرف شـيئًا عـن حقيقة الحيـاة. لعبة ذاكر هي الأكثـر تعقيدًا؛ لأنها تكمن في شـغفه بالسيطرة، في حين لا يملك حتى السيطرة على جسـده. بعد برهة أنكر على نفسـه هذه النزعة التأمليّة التي تُفسِد مذاق

الحيـاة وتنتزع بهجتها. أرجع حالته لحبة الترامادول اللعينة، التي تُبقي الجسد مُتيقّظًا لأيام بينما يتخبّط الذهن في غياهب الإنهاك.

17

رافقـهُ الأرق خلال سـاعات الليل، منذ داهمتهُ غضبةُ الأسـتاذ عبر الهاتـف. لمـاذا الغضب الآن وقد انتظمت شـؤون الوكالة؟! سـاورتهُ شياطينُ قلقه بأن الأستاذ قد علم ما صار من زينة، ثم ذبَّ عن باله تلك الوسـاوس، وقرّر الذهاب مبكّرًا لبيت الأسـتاذ. ألغى مشوارًا لمكتب تنسـيق الأكاديمية، واستقل مترو الأنفاق صوب المعادي. أسلم نفسه للحشر بداخل أتون العربة المعدنية، وخَلَد لشرود رطيب بينما الحرارة تُذيب أفكاره والاهتزاز يرج عالمه. اسـتلبتهُ فَعلة زينة الجنونية، محت مفهومـه عن مباهج النقاء والصبر، ونزعت قشـرة خارجية كان يتسـتّر بداخلهـا مـن نفسـه والجميـع، وضعته فـي مواجهة في قسـوة حصوة المـرارة، مع حقيقـة ميله الجارف إليها، ميل لـم يمنحه الفرصة للزهو بصدّهـا أو مقاومة إغرائها. وبرغم تخلّصه منها في لحظة حاسـمة، لم تُغادر خياله ولو للحظة، وكأنه ندم على الخلاص.. !

توقّـف المترو، فهبط محشـورًا كما صعد، حتى بدا صهد الشـارع كنسائم تحتضنه بعد انقباضة قبر. مرق سريعًا صوب الشوارع الضيقة، لائـذًا بمظلات الأشـجار مـن حرارة الشـمس اللافحة. وصـل البناية أخيرًا. تلقّاه مدخلها الرخاميّ ببرودة عالـم آخر، ومرآة مرتفعة عكست

هيئته، كخارجٍ لتوّه من معركةٍ بدائيّة. تذكّر حاله لحظة هروبه من زينة؛ كيف راح يسوّي ملابسه في الحارات المظلمة، بعد أن استلّ جسده من تحت لهيبها. لا بد أنها حانقة عليه الآن، حنقًا يفوق حنق الأستاذ.. حتى رحمة، قد لا يتلكّأ حنقها في اصطياده طويلًا.. ماذا تُراه قد دهى عالمه؟!

استقبلته رحمة بنظرة مُتلعثمة، تختلج من ورائها انفعالاتٌ شتى، لم تمهله الوقت ليتبيَّن الموقف، قالت إن أباها في انتظاره منذ الأمس، خطت أمامه باضطراب حتى باب الغرفة، هناك وجد الأستاذ راقدًا في السرير يُوجِّه التلفاز عن بُعد. أشار إلى كرسي مجاور، فاتّجه إليه يوسف رازحًا تحت ثقل اللحظة. هرب بقلقه نحو بؤرة انتباه الأستاذ؛ احتجاجات طلبةٍ أزهريّين، ولافتات تُطالب بإزاحة شيخ الأزهر، وصَفَتهم القناة الإخبارية بالمنتمين لتيارات سلفيّة تسعى لمكاسب سياسية داخل الحرم الجامعيّ. خفض الأستاذ صوت التلفاز حتى استحال وشيشًا خافتًا، وسأل يوسف عن أحواله دون أن يلتفت إليه.

– الحمد لله.. أمور الوكالة على ما يُرام. بدأ تركيب المظلة. والمتدربون في تطور مستمر. بنهاية الأسبوع سنصل مقام النهاوند.

– أسألكَ عن أحوالكَ أنت يا بني، لا الوكالة.

ازدرد ريقًا جافًّا وأكمل: «أنا بخير. مـ.. مُنهَك بعض الشيء لانشغالي بـ.. بحث الماجستير، والذهاب للمكتبات، وإنهاء الأوراق، والتدريب.. مشاغل كثيرة، ولكنها أكثر انتظامًا الآن.. أ.. أنا بخير».

- هل ثمة نتائج مهمة أسفر عنها بحثك؟

- نعـم بالطبـع، تـ.. توصّلت أخيـرًا لدلائل ثابتة تـــ.. تؤكّد وجود الشيخ الموصليّ..

- تؤكـد وجـوده! أتـدرس موروثه ومأثـوره أم تسـعى للتثبُّت من وجوده؟!

- إنهـا مقدّمـة تاريخيّـة لا بد منها، كــ.. كاسـتهلال للبحث فقط! قارئ البحث لــ.. لن يُسـلِّم بموروث الشـيخ كما نفعـل نحن، بـ.. بل يحتاج لمقدمة منهجية تـ.. تقوم على العقل والتأريخ!

عاد الأستاذ ببصره لشاشة التلفاز، وقال: «دعكَ من كلامك المُنمّق يا بني، فأنت لا تبحث بصدق عن موروث الشـيخ، بل إنك تبحث عن نفسـكَ في الأسـاس. أليس صحيحًا أنك تركتَ مفتـاح الوكالة لزياد، وأن الطلبة لم ينتظموا في حلقة الذّكر، وأن مشـايخ الجمعية الشـرعية دقّوا عروق الخشـب في واجهة الوكالة لبناء كشك، ولم يستطِع عمّك عبيد منعهم ولا استطاع الوصول إليك؟».

- هل شرعوا في بناء الكشك؟!

- أتسـأل نفسـكَ أم تسـأل مـن وكّلـكَ فـي الأمـر؟ لقـد خذلتنـي يـا يوسـف، خذلتنـي بشـدّة، ولـن أُحمّلـك وزري فأنـا المخطـئ في الأسـاس؛ لأنـي تصوّرتكَ موصليًّا حتى النخاع، وها أنا أكتشـف الآن حقيقتك؛ حقيقة الساعي للتأكُّد من وجود الشيخ قبل الأخذ بموروثه! أنت شخص آخر لا أعرفه، والحق أني لا أريده.

ذهل يوسف. مادت به الغرفة. خُيّل إليه أن ثمة أصواتًا غريبة بالخارج؛ ركْضَ أقدام، انفجارًا مكتومًا في البكاء. أهي رحمة أم أنه الوهم؟ كيف يُطفئ غضب الأستاذ الآن؟ وقد أخذت كفُّه ترتعش تحت الغطاء.. جرّب يوسف أن ينطق، ولكنه لم يستطع. في المُقابل نطق الشيخ..

– ستذهب الآن لتجيئني بعُهدتِك؛ عود التدريب، ومفتاح الوكالة. وستُبلغ المتدربين بأن رحمة ستجتمع بهم خلال يومين، لمن أراد منهم اللحاق بدورة التدريب القادمة.

نهض يوسف ذاهلًا عن محيطه، تحمِله ساقا شخص آخر، أضعف بكثير من ساقَيه. لم تكن رحمة بالخارج، تناهى إليه بكاء مكتوم حين عبر أمام الحمام، أغلق باب الشقة وهبط السلم، كمن ينزل قبرًا. لفحه صهد الشارع كصفعة من ملائكة العذاب. كيف تمالك آدم ساقيه حين هبط من الجنة؟ تساءل، قبل أن تدهمه سيارة الميكروباص من الخلف.

❊❊❊

لأول مرة منذ زمن بعيد يحسّ زياد بعضّة الخوف.. نقل إليه الأسطى خبر إلغاء تدريب اليوم بتعليمات مباشرة من الحاج ذاكر. لم يخشَ على نفسه بالطبع فذلك شعور لا يليق به، ولكنه خاف من ضياع الفرصة، من تصدُّع عالم لم يكَد يبنيه بأصابع راجفة. ليس يومًا مناسبًا لأية مفاجأة، فليتركوا يوم التصوير يمرّ بسلام ثم ليحرقوا الوكالة لو شاؤوا! نازع المصوّر طويلًا قبل أن يصِلا لاتفاق نهائيّ لاستئجار

الوكالة. سخر منه الرجل حين افتتح المساومة بستة آلاف جنيه. قال بلكنته الممطوطة كلُبانة العاهرات: «لا يستحق حتى الألف!» لم يستجب زياد للضغط، بل أصرّ على المبلغ مُستكشفًا حدوده، خاصّة وقد قرأ الإعجاب في عينيه حين عاين الوكالة. لم يُحسم الأمر لأيام، ثم عاد اللبنانيّ ووافق على الستة آلاف بغرابة شديدة، ودون مزيد مساومة! كل ما طلبه كان توفير سيارة تُقِلّهم ذهابًا وإيابًا مع المُعدّات.. طلب تافه لن يتكلّف أكثر من مائتي جنيه.

اطمأن زياد لفراغ الوكالة قبل مغادرته. رحل الأسطى عبيد، ومن قبله المريدون وعمّال المظلّة، فلم يتركوا وراءهم عدّة ولا متعلّقات. الملعب خالٍ في انتظار مغامرته، والليلة مقمرة وشاعريّة، كما يليق باستلام عربون قدره ثلاثة آلاف جنيه، سيدفعها المصوّر حال وصوله نقطة التجمّع، ومثلها عند نهاية جلسة التصوير. أمام فندق سميراميس كان هناك، في الموعد المحدّد عند انتصاف الليلة المقمرة. أقبلت مبروكة تسبق الجميع، لتركب بجواره على الكنبة الأماميّة. حدجها بنظرة تحذيرية صعقت خطواتها الملهوفة. حذارِ أن تُبدي علاقة خاصّة بي! هكذا قالت نظرتُه، فتمهَّلت وركبت بالخلف.

في الطريق، كان المصوّر يُهامس مساعدَه بعبارات فرنسيّة تتخلّلها كلمات عربية قليلة. كان إتقانهما الفرنسيّة هو أقصى ما فهمه زياد من الحديث. حاول ألا يبدو حريصًا على التنصّت. هاتف زميله عازف الكمان. كان قد أوصاه بعزف العود بدلًا منه، والمقابل زجاجة كونياك محليّ. سبَّه الأخير لتركه العود بغير دوزان، فأنهى المكالمة سريعًا.

أخـذ يتابـع دكاكين آخـر الليل بينمـا تُغمض عيونهـا المُنزلقـة، فتُقلِق إغفاءة المساء في شارع الأزهر.

أمام بوابة الوكالة الجنوبية توقّف الميكروباص، طلب من السـائق أن يتمهَّـل حتى يُغلقوا البوابة وراءهم، ثم يرحل بهدوء دون أن يكبس النفيـر. نصـب المسـاعد معـدّات التصوير وحوامـل الإضـاءة، بينما اسـتترت مبروكة بركن ظليم وأخذت تُبدِّل ملابسـها. انتحى زياد ركنًا آخر أقل ظلمة كي يعدّ النقود؛ خمس عشرة ورقة لامعة من فئة المائتي جنيـه، لهـا رائحة الطباعـة الحديثـة والنعيم الخالص، وجد في نفسـه الشـوق لعدّها واشـتمامها خمس مرات متتالية. دقائـق وكانت تكّات التصويـر تتدفَّق، وبروق الفلاش تتوالى فوق الأحجار الصمّاء. جلس يُتابـع مبروكة كأنها غريبة عنه. أيقن أن بإمكانها أن تصير ياسـمينة، إذا توافـرت لها الإضـاءة الكافية. خطـر إليه أنها هاجرتُـه لا محالة، حين تصبـح نجمـة تبرق فـوق انحناءاتهـا الفلاشـات كل ليلـة. الغريب أن الخاطـرة أثارته، كما أوضاعها وإيماءاتها الغنِجة. ظل المصوّر يقترب منهـا رواحًا وجيئة، يضبط جلسـتها ويعقص وقفتهـا كيفما يريد، وبين الحين والآخر يحدّثها ويشرح لها الحركة المطلوبة. في المرة الأخيرة طـال الحديث، وتبدّلـت ردود فعل مبروكـة وانفعالاتها بطريقة لافتة. كانـت ترنو بتوتّر نحو زياد كأنما تسـتنجد، أو ربما تخشـى سـماعه ما يُقـال. لـم يُرِد التدخّل كيـلا يُبدي اهتمامًا بالأمـر، ولكن الفضول ظل يقضـم مؤخّرته ويسـوِّط دماغـه. أنقذه المصـوّر أخيرًا بإشـارة تدعوه للاقتراب. خطا ببطء واضعًا قناع اللامبالاة، ثم منحهما ابتسامة سخيّة

حين صار على مسـافة قريبة. أخفى انفعالاته فـي جيب بنطاله، وقال: «هل ينقصكم شيء؟».

ردَّ اللبنانيّ: «لا، ولا شـيء. لـديّ اقتراح، وصديقتنا هنا ترغب في مشـورتك. أنهينا التصوير ولن نحتاج جلسـة إضافية، ويمكننا تسويق الصور حتى نتوصّل لتعاقد معقول يليق بياسمين، لكن عليّ أن أوضّح أن ذلك سيستغرق وقتًا طويلًا، فهناك دائمًا من هي أجمل وأكثر جاذبية وحرصًـا على اسـتباقنا لهـذه الفرصة أو تلك. نحن في سـوق مفتوح، والبضائع الأعلى جودة تتدفّق لسوقنا المحليّة طوال الوقت»..

لاحظ زياد توتّر مبروكة، فسارع لسؤاله: «إذًا ماذا تقترح؟».

- أقتـرح طريقًـا مختصـرة تحقِّق السـبق، تتجـاوز فـروق الجودة والجاذبية الطفيفة، وتُدخِلها عالم النجومية مباشرة.

كبت زياد نفاد صبره، واعتصر ابتسـامة مُشـجِّعة سـكبها فوق قناع لامبالاته. أردف المصوّر شـارحًا: «سنصوّر فيلمًا قصيرًا لياسمين، مع إياد- أشـار نحو مساعده- سـيقوم بدور مُصوّر أثارته جلسة التصوير، فاستدرج الراقصة الجميلة لليلة حب برعاية ضوء القمر، وترك الكاميرا دائـرة دون انتباه المسـكينة، ثم قام إبليس من زملائه بسـرقة المحتوى وتحميله على الإنترنت، مُعرِّضًا هذه المسكينة لفضيحة مدوّية تناقلتها المواقع الإلكترونية والصحف الصفراء كحرائق الغابات».

ارتسـمت أمـارات البلاهة والذهـول على وجه زيـاد، بينما واصل المصـوّر بمرح: «هذه الطريقة مُجرّبة، وهي الأنسـب لحالة ياسـمين.

هـي موافقـة، ولكنها تحتـاج لدعمنا كي تسـتطيع التنفيـذ. وعدتُها ألا أُظهـر منهـا الكثير، فهـذا يضرّنا ولا يخـدم أهدافنا. لا نريـد فيلمًا فجًّا يكـون عرضـةً للمنـع علـى المواقع واسـعة الانتشـار، بل نريـد فيلمًا رومانسـيًّا يوحي ولا يصِف. أما أنت، فلا أظنكَ سـتبخل علينا بنصف ساعة إضافية، طالما أنجزنا التصوير في هذا الوقت القياسيّ».

أنهـى المصـوّر عبارته، ومدَّ سـيجارة نحـو زياد. أخذهـا بامتنان، ولاحـظ احتواء الفلتر على كرة «مِنتول». ضغط محتواها واشـتمّ عبق النعنـاع المنعـش. بدا الاقتراح مُثيرًا، مُدعّمًا بشـعور مُلِـح بأن مبروكة سـتهجره لا محالة، وأنهـا منذ الآن لا تنتمي إليـه، وأن فرصة حصوله علـى مقابلٍ يليق بأيامـه معها لن تدنو أقرب من ذلك. سـيُطالب بثمنٍ يُكافئ سماحته، في الوقت المناسب..

القراء المحترمون،

وددتُ ألا أتداخـل ثانيةً لكيلا أقطع استرسـالكم في القراءة، ولكني لم أملك أن أكتـم مرارتي لمـدة أطول، فقد طفـح الكيل (أرجو أن يكـون المترجم قد وُفِّـق في اختيـار مثلٍ عربي يُقابل هذا المثل الألماني). سـبق أن أخبرتكم أني أقـرأ النص كما تقرؤونه تمامًا، وأتداخل حين أضطر لذلك أثناء القراءة، لذلك فوجئـت كمـا فوجئتم بفَعلـة زيـاد، ورفيقته الراقصـة تلك، التي لا أُحسـن كتابة اسمها ولا نُطقه، مما يسيء لصورة الوكالة المحترمة التي أملكها- نعم أملكها وسأشرح ذلك لاحقًا- وأديرها لصالح أنشطة ثقافية رفيعة القيمة.

التزمتُ الصبر والحياد حين تعلّق الأمر بصورتي الشخصية، أي حين قدَّمني الراوي- بطريقة أو بأخرى- في صورة مغايرة لحقيقتي، فجعلكم تعتقدون مثلًا أنني تعمّدتُ استمالة يوسف نكايةً في «نصف أختي»، أو استنهاضًا لنموذج قديم أعجبني في والدي، تسـرّب منه مع الوقت كما تتسـرّب الميزات والطموح من هذا الجزء من العالم. لا أنكر أني مِلتُ نحو يوسف منذ الوهلة الأولى، بل ورغبتُ في استكشـاف سـحر الشـرق من خلالـه، ولكن هذا يعود لأسـبابي الشـخصية، وليـس نكايةً في أحـد ولا عقابًا لأحد. ولكن، أما وقد تضـرّرت صورة الوكالة فلا يمكنني الصمت، بل إن من واجبي اتخاذ إجراءات قانونية ضد أي اسـتغلال مـاديّ للوكالة التي أديرها- منذ هذه اللحظة- لذلـك حاولتُ التوصّل للفيديو الجنسي المزعوم كي أتقدّم به لجهات التحقيق، ولكني لم أُفلح بكل أسف، ربما لعدم تمكُّني من البحث باسـتخدام كلمات عربية. سأستعين قريبًا بمن يملك

جهـازًا يحوي حروفًا عربيــة، ويعرف كلمات مفتاحيّــة تعينني على التوصّل إليه.

سـأوضّح الهدف من مداخلتي؛ إنه التعبير عن اسـتيائي الشديد من طريقة كتابة الرواية، أو بصراحة أكبر: ندمي أن ألزمتُ نفسـي بنشرها قبل القراءة (المؤسـف أن كتابتها كانت بإيعاز مني!)، والسـبب ما أبداه الراوي "المحترم" من تحيّز غير مقبول لثقافته الموسومة بالتناقضات، ليس ضدّي فحسب، وإنما ضد المنطق والعقلانية. أظنكم لاحظتم كيف تعمّد وصف الموقف الإنسـاني الذي جمعني بيوسف بطريقة تفصيلية غير موضوعية ولا لائقة، بينما ابتعد تمامًـا عـن وصف ما نما لعلمـه من مواقعة جنسـيّة صريحة بيـن رفيقة زياد ومساعد المصوّر! أي تحيّز وأي تعمّد للإهانة؟!

أعجبنـي يوسـف، هذا صحيـح، وهـذه طريقتي فـي التعبير عـن إعجابي الإنسـاني. حاولت احتضانه، وأثارت فينا أجواء الوكالة الرومانسـية مزيدًا من الرغبـة فـي احتضان حميميّ، سـقطنا معًا في مشـهد كان ليثير ضحككم أو رثاءكـم لو وُصِف على حقيقته، ولكن يوسـف المسـكين، نظـرًا لثقافة الكبت التـي ينتمي إليهـا، والمجتمـع ذي الطبع الأصولي الذي نشـأ فيه، شـعر بالفزع حين وجد في نفسه الرغبة في إقامة علاقة معي. أتفهم موقفه، ففي مجتمعه وتبعًـا لثقافته يُطالَـب المرء بأن يكبـت رغباته ويُنكر وجودهـا؛ كي ترضى عنـه السـلطة الأبوية التي يستشـعرها طوال الوقـت؛ لذلك عمَد المسـكين إلى الهـروب من مواجهة نفسـه، حين أفصح جسـده عن احتياجه إلـيّ. أما أنا، فلي عقل منفتح يُدرك حاجات الجسد، وقيمة ممارسة العاطفة، خاصة حين تكون صادقة ومُتبادلة.

المهـم، لا أرغب في الإطالة كي لا أُفسـد عليكم متعـة القراءة، وإن كنت أشـكّ في وجود أية متعة عند هذه النقطة، فالكذب ليس ممتعًا على الإطلاق، والادعاء لا ينطلي على أحد مهما كانت خلفيته. كل ما هنالك أني رغبتُ في

مشاركتكم أفكاري، ومساعدتكم على استكمال الصورة بمعلومات لن يتوصّل إليها الراوي، "المحترم"، مهما اجتهد في بحثه الروائي. فقد قامت السيدة هيلجا كوهلر - أمي- بنقل نسبتها في ملكية الوكالة (30%) لشخصي، وبما أني أملك الحق في نصف ممتلكات والدي في حالة وفاته، ونصف الحق في إدارتها في حالة عجزه التام، فقد أصدرَت منظمة باوميستر - استنادًا لمستندات تقدّمتُ بها- قرارًا باعتباري الممثّل القانوني لوكالة الموصليّ، والمنوط به إدارة الدعم الممنوح لنشاطها. وعليه، فقد تقدّمتُ بالمشروع التنمويّ الذي أعددته للوكالة، وفزتُ بدعم سنويّ يفوق السنوات الماضية (بمساعدة أمي، لا أُنكر) على أن تتابع باوميستر تنفيذ المشروع بصورة شهرية؛ لتتأكّد من توجيه الدعم لمصارفه المُستحقّة.

هذا هو الإطار القانونيّ الجديد الذي يتحتّم عليكم قرائي الأعزاء أن تقيّموا الأحداث على ضوئه، ولذلك اهتممتُ بإجراء المداخلة.

هذا كل شيء للآن، وصدقًا أرجو ألا أحتاج لمداخلة ثالثة!

تحياتي،

زينا كوهلر

الممثّل القانوني لمركز الموصليّ
لموسيقى الجاز والتكنو الشرقية.

18

كم هي بائسة، وحيدة، بينما تتدافع الأجساد من حولها بعشوائية، كأنما تنهض ليوم الحشر، تدب على مسافات خانقة، لا تكترث لوجودها، الضجيج يكثّف الأثير من حولها، يضغطها في مقعدها المعدنيّ، يكاد يسحقها، رائحة المُطهرات تُبيد ذرات الأكسجين في محيطها، والموت يُحلّق في دوائر سرمدية، يتأهَّب لانقضاض وشيك مع أول بادرة سقوط.

ألوان الجدران حيوية وناعمة، تُشيع بهجة مُضلِّلة، تُغافل الموت كي يحوم في مكان آخر، ولكنه الخبير بصنعته الأبدية لا تنطلي عليه الخدع الساذجة، تلتقط أنفه عبير الأرواح الذابلة، يتحسَّس سمعه وشيش النبضات المتباعدة، فينقضّ، ويُحرِز نقاطًا بلون السواد.

انبثق جدار الأجساد عن وجه مألوف؛ إنها الممرضة التي أوصتها منذ دهر بأن تطمئنها على أبيها. وثبَت رحمة في اتجاهها، سألتها بعينين راجفتين عما يدور وراء الباب. «الطبيب الاستشاري بالداخل وسيخرج حالًا. أبلغته بأنكِ تنتظرينه بالخارج. ترقّبي خروجه». ارتقت رحمة الكرسيّ، ظلت تُراقب الباب من أعلى الجدار البشريّ، انفتح الباب بعد برهة وظهر الطبيب، كأنه مغناطيس يلتقط الأجساد تباعًا،

قفـزَت صوبـه وكادت تـزلّ، حاولت التداخـل عدة مرات، لـم تُفلِح، انتظـرت بصبـر مُتداعٍ حتى فـرغ الطبيـب.. «ذاكر رسـلان!» صاحت فجأة، فاسـتدار إليها وقال باقتضاب: «قابلينـي في العيادة ولا تنتظري الدور، أبلغي السكرتيرة أنها تعليماتي».

– طمئنّي يا دكتور، أرجوك!

– في العيادة يا ابنتي سنتحدّث بالتفصيل.. لا داعي للفزع، سيكون بخير.

حملتهـا قدماهـا بصعوبة إلى هنـاك؛ غرفة ضيقـة يتصدّرها مكتب مُكـدَّس، أمام بابها تجمّعت العيون، ترشـقها بتُهمة الوسـاطة وتجاوز الـدور، انهارت في صمت على الكرسـي المقابـل، انتظرت حتى فرغ الطبيب من مطالعة التحاليل، سـألها: «هل أُصيب الوالد بجلطات من قبل؟».

– اكتشـفنا مؤخّرًا أنه يُعاني من متلازمة فوسفوليبيد، وكان مرتاحًا في المنزل منذ فترة..

– هل تعرّض لأية مؤثرات غير عادية بالأمس؟

– هو دائم التوتّر بسبب هموم العمل، وبالأمس ازداد انفعالًا.

أغلـق الملف ورمقهـا من فوق النظارة: «أُصيـب الوالد بجلطة في المـخ، حجمها كبير نسـبيًّا. سـنعمل على إذابتها قبـل أن نلجأ لإجراء آخـر، المشـكلة الأكبر أن الجلطـة أصابـت مراكز النطق فـي الدماغ، تسبّبت في حالة تُسمّى aphasia، أو الحُبسة الكلامية. لا داعي للخوف فالحالة قابلة للعلاج، ولكنها قد تستغرق وقتًا طويلًا».

بـدت كلماتـه كإقرار بـأن الحالة تسـتدعي أقصى درجـات القلق. نضبت الأسـئلة على لسـانها، فيما اسـتطرد الطبيب: «سـيواجه الوالد صعوبـة فـي اسـتيعاب الـكلام، وصعوبـة أكبر فـي تكويـن العبارات واسـتدعاء المفردات. سـيحتاج لعلاج طويل الأمد مع مُتخصِّص في التخاطـب، عليكم أن تبـادروا بذلك فور اطمئناننا على اسـتقرار حالة المـخ. التأخير سـيعني مزيدًا مـن التدهور في مقدرتـه على التواصل. إلى ذلك الحين، سيستمر معنا في الرعاية المركزة حتى نذيب الجلطة وتستقر الحالة. واضح؟».

أومـأت، مُطرِقـة لا تـزال، لا تعـرف بأي قـدرة تواجـه الأمر. قال الطبيب: «المحنة غير هيّنة يا ابنتي، ولكن عليكِ أن تتماسكي من أجل والـدك. أُفضّل أن تقتصر الزيارة عليكِ وعلى أفراد الأسـرة فقط، وألا تزيد عن نصف ساعة في اليوم، بدءًا من الأسبوع القادم على أقل تقدير. سنحتاج لإمضاء والدتكِ أو أكبر أفراد أسرتكِ على هذا التعهّد».

قالـت بصوت مُتهـدّج: «لا يوجد غيـري.. أنا ابنتـه الوحيدة، أمي متوفّاة منذ سنوات».

اسـتعاد الورقة كأنما أشـفق عليها. قال: «كان الله في عونكِ. مُرّي بمكتب الاستقبال لاستكمال الإجراءات».

***

الوحـدة سـياج يُطوِّقهـا طـوال الوقت. أبلغـت عمّتهـا بما حدث. احترقتـا بكاءً أثنـاء المكالمة، ثـم اعتذرت في المسـاء بكونها لا تجد

مـن يُقلّها إلى المعادي. تحرّجت أن تسـألها إن كانـت قد أبلغت باقي الأقـارب؛ لا بد أنهـا فعلت، ولكن أحدًا لم يجـئ! تحتاج لحضن تبثُّه دموعهـا، لشـخص تُفضي إليه، تخبره بأن ذاكر رسـلان، ذلك الشـيخ المفوّه العظيم، ستتساقط منه الكلمات! ظلّت تحتضن صدمتها طوال النهار في المستشـفى، أكثر الوقت فـي الكافيتريا، أحيانًا في المُصلّى، أو فـي السـيارة مع السـائق. لم يزُرهـا غير عم عبيد، قال إنه سـيمكث في مسـجد مجاور كي يظل قريبًا. تماسكت قليلًا بعد العصر، حاولت سـحب النقـود من ماكينـة صرف آليّ فـي المستشـفى، ولكنها لفظت كارت الائتمـان عدة مرات، وكذلـك فعلت جميع الماكينات الأخرى خارج المستشفى. لم تنتبه لانتهاء صلاحية الكارت، فهي لا تستخدمه إلا نـادرًا. ذهبـت للمنـزل تُفتّـش عن نقـود. لم تجـد ما يفـي بالمبلغ المطلـوب. اضطـرّت لطلب العـون من السـائق. قال إنه سـيتصرّف. شـعرت بإهانة كبرى أمام عجزها عن التصرّف في كل شـيء، أدركت كـم كانـت تعتمد على أبيها فـي تصريف الأمور، سـائق يصحبها لكل مـكان، مصروف أسـبوعيّ يُترَك فوق الشـيفونيرة بعد صـلاة الجمعة، مهـام يوميّـة سـابقة التحديـد فـي الوكالـة، مسـؤوليات محـدودة في المنـزل.. هـذا مجمـل حياتها التـي باتت فارغـة ومشـحونة معًا، منذ أوصِد في وجهها باب الرعاية المركزة.

لماذا الآن يا يوسـف؟! ليس وقتًا ملائمًا لأن تذهب مُغاضِبًا وتترك العالـم يتصـدّع من خلفـك. أغلـق الهاتف منـذ نهار الأمـس، وتبخّر نهائيًّا من الوجود. أمضت السـاعات مُتشرنِقةً بداخل الكافيتريا، تنتظر

عودة السائق الأجدر على التصرّف، أو مَقدِم أحد الأقارب الغائبين، أو حدوث أي جديد. لم يصل السائق قبل المساء، وكانت بطارية الهاتف على وشك النفاد. التقته بالخارج وأوصلت هاتفها بشاحن السيارة، تمهّلت لبرهة قبل أن تعاود الاتصال بيوسف.. لا يزال مغلقًا. ناولها السائق نقودًا من فئات عدّة، حُشِرت في مظروف مُستعمل يحمل خط أبيها. هل يتعثّر أبوها في المرة التالية حين يكتب سطرًا كهذا؟! أجابت دمعةٌ ظلّت تحاول الإفلات لساعات. عادت بالنقود لموظف الاستقبال، اعتذرت عن تأخّرها في سداد مبلغ التأمين، تعلّق بصر الموظف بشاشة الكمبيوتر وقال إن المبلغ مسدَّد بالفعل. سألت بدهشة عمّن قام بالسداد، قال إنها ابنة السيد ذاكر رسلان. قالت باستنكار: «لم أدفع إلا مبلغًا صغيرًا تحت الحساب!» فالتفت إليها قائلًا: «عفوًا، لم أقصد سيادتكِ، أعني الأستاذة زينة.. زينة.. .. ديناري، والصفة المدوَّنة أمام الاسم: ابنته».



ارتقت السلم قفزًا، وعبرت مدخل مستشفى الفتح الإسلامي التابع للجمعية الشرعية بالمعادي. أفسح لها الواقفون مكانًا واسعًا أمام الخزينة. طلبت بعربية ركيكة حساب يوسف حامد كمال الدين، فرمقها الموظف بريبة من خلف حاجزه الزجاجي، حائرًا بين غض بصره وتأمُّل هيئتها الوافدة من عالم آخر. مرقت سريعًا وسط جلابيب بيضاء وعباءات سوداء، حتى دلفت لداخل الغرفة المشتركة، حيث استلقى يوسف على السرير الأوسط بعد إجراء جراحة العظام.

أحدث دخولها خفوتًا مفاجئًا في ضوضاء الغرفة. ارتبك يوسف وزاغ من جيران الغرفة بسؤال زينة عن الأكياس التي تحملها. فتحت الكيس الأول، ولوّحت بدُعامة الذراع التي وصفها الطبيب، كحماية لذراعه الملحومة. فتحت بعدها كيسًا ورقيًّا ونزعت غلاف شطيرة محشوة بسلطة الجبن. مدّتها نحو فمه، وقالت إنها لا تثق في جودة الطعام المُعَدّ في هذا المكان البائس. قضَم الشطيرة وقد أربكته نظرات المحيطين. سال قليل من صوص المايونيز على ركن فمه، فسارعت بمسحه بمنديل ورقيّ قبل أن يتجاوز ذقنه النابتة. قال: «أ.. أرهقتكِ كثيرًا يا زينة». رنت إليه وقالت: «لا شيء كثير على شخص ترتاح في وجودكَ معه».

سدّت صخرة الحرج طريق الكلمات، فلاذ بالصمت. أردفت زينة: «الآن يبدأ المونولوج المعتاد؛ أنت تسكت وأنا أقوم بالحوار كاملًا!».

ابتسم شاعرًا بالخجل من نفسه، وقال مُغيّرًا مجرى الحديث: «حين نقلني من شهِدوا الحادث إلى هنا، تـ.. تصوّرت أني سأبقى طويلًا قبل أن يعثر عليّ أحد، وخلال ساعات كان شحن الهاتف قد نفد، ففقدتُ الأمل تمامًا. ثـ.. ثم إذا بكِ تجدينني بطريقة لم تخطر ببالي قط».

- إنها التكنولوجيا التي ترفضها يا حُلوي؛ مكالمة هاتفية لشركة المحمول، جعلتني أحصل على إحداثيات موقعكَ قبل مرور ساعة.. بسيطة. نحتاج للإفادة من كل تقدّم تِقنيّ متاح. هيا تحسّن

سـريعًا لأُطلِعكَ على الميدي كونترولر الـذي انتهينا منه. صمّمتُ ألا أُجرّبه بدونك. سـنُحدِث سـويًّا أعظم إنجاز في تاريخ العود منذ رحل زرياب.

ألقمتـه القضمـة التالية وسـارعت بمسـح آثارهـا. قال: «ألـم يقُم الموسيقار بتجربته؟».

– لا، ليس بعد. عندما نخرج من هذه المشرحة سنُبهره سويًّا.

قضم التالية وقال: «لا تُثيري شـغفي وأنا في هذه الحال البائسـة!» فقالـت: «هذا أقل ما تسـتحق، فقد أثرتَ شـغفي بـكَ وجعلتني مُثيرة للشفقة!».

– أ.. أنتِ تُبالغين.

ابتسـمت: «صدّق أو لا تُصدّق يا حُلوي، هذه الحقيقة بكل أسف. أنت كأحجار الوكالة البديعة؛ مُبهِر ومُنمّق، ولكنك قاسٍ وبارد».

– أنا بارد؟!

– بالطبع.. ألقمتهُ الشـطيرة دون أن تمسـح آثارها. سألته بعد برهة صمت: «هل ستتزوج رحمة؟»

رنـا إليهـا وقـد تفاجـأ بالسـؤال: «لا أدري.. أ.. أرجـو ذلـك، و.. ولكنـي لـم أُحدّثها في ذلك الأمر. أبوها غاضـب مني لأبعد حد، يـ.. يودّ لو يركلني لخارج عالمه».

ليس لهذه الدرجة، إنه رجل عاطفيّ رغم كل شيء. وقعت له أمس أحداث مؤسفة، عزفتُ عن إخباركَ بها حين علمتُ بإصابتك.

- مـ.. ماذا حدث؟!

- قل لي أولًا، ألم تحصل على أرقام الميكروباص الذي أصابك؟ يجب أن يُحاسب ذلك المخبول..

- ز.. زينة، ماذا حدث بالأمس؟!

سحبت نفسًا عميقًا وزفرته بصوت مسموع، ثم قالت: «حسن؛ كيف عليّ أن أقول هذا؟! لقد أُصيب السيد رسلان بجلطة في المخ، وأُدخِل الرعاية المركزة بمستشفى السلام الدولي». زفرت ثانيةً وأردفت: «مسكين.. يبدو أن عطبًا ما قد أصاب جهاز نطقه».

تلعثم يوسف مُشفِقًا: «غـ.. غير معقول!».

- هوِّن عليكَ.. الرجل مريض بالجلطات منذ مدّة لا يعرفها، فلا هو يقوم بفحوصات دوريّة ولا يأخذ صحّته المتهاوية برفق..

حاول النهوض فأقعده الألم. توجّع قائلًا: «بل إنني السبب.. أرجوكِ، ساعديني على القيام».

***

19

أمضى زياد ثلاثة أيام مشحونة، أوقف خلالها حياته على صياغة حلمه في شقة مشعل. أقنع الكويتييْن بضرورة قيامه بالمهمة أثناء سفرهما إلى الساحل الشمالي، ووعد بإنجاز المهمة في أضيق حدود التكلفة والضوضاء. استعان بعامل فتِيّ ونجار ماهر صغير السن، ثم في اليوم التالي بكهربائيّ. بدأ بهدم الجدار الفاصل بين الغرفتين، ثم تثبيت العوارض الخشبية فوق باقي الجدران على هيئة مربعات متوسطة الحجم، وحشو الفراغات بشرائح الإسفنج وكسوتها بأثواب قماش أزرق، ثبّتها في العوارض الخشبية بدبابيس عريضة الرؤوس. تابَع الكهربائيّ بينما يمدّ الأسلاك بين الغرفتين إعدادًا لتوصيل الأجهزة. كان يعمل دون توقُّف حتى تهبط الظلمة الثقيلة على الحديقة، فيغتسل مُتهيِّئًا لعمله المسائي ويُغادر مع العمّال. يتزوّد في الطريق بعلب «كشري دوبل» تكفي الجميع، ثم يودّعهم عند الموقف على وعد بلقاء جديد نهار الغد.

أما في الملهى، فكان يتحاشى لقاء مبروكة. ربما تحاشته هي أيضًا، فغابت لليلتين بعد جلسة التصوير. شكر غيابها في نفسه وآثر المبيت في شقة مشعل الخالية، لكنها عادت للظهور في الليلة الثالثة،

تفاجأ بها ترتقي المسرح قبل موعدها المعتاد، فتشاغل عنها بالحديث مـع زميل ظل ينفخ في قصبـة الناي دون اكتراث. تأمّلها بجانب عينيه. بدت غائبة ومُنطفئة، يصخب جسـدها الطـريّ بحيوية زائفة، هو أخبر النـاس بها، ويسـتطيع قراءتها كنوتة موسـيقية لأغنيـة أطفال. الأفضل ألا تلتقـي العيون، الآن على الأقل. يشـعر بإهانـة لمجرد وجودها في محيطه. رقصها الجنونيّ الفارغ من الروح يؤلمه، يلومه، يُشير إليه أمام الأعيـن الغريبة، يقول: انظروا كم هو رخيص، يبيع اللحوم حيةً وميتة، يدلّـل على حريمه ويسـاوم علـى نَخوته.. كم صـار يكرهها، كم يكره جدّته، وأباه، وأمه، الكل تآمر عليه حتى كره نفسـه. سـيعود إليها قريبًا هذه السـاقطة، سـتنقده ثمن الإهانـات مضاعفًا، حتى هـذه اللحظات النكِدة التي تصفعه الآن، ستدفع ثمنها..

نهض على عجل مع نهاية الفقرة. سـتلتفت ياسمين بعد قليل، بعد أن تُحيّـي السـكارى والمفتونين، فلـن تجده. أما هو، فسـيقرفص في صفيـح أقرب ميكروباص، ويعود لكبسـولة أحلامه في شـقة مشـعل. سـيقضي الليل في حوض الاستحمام، سيترك الماء ينساب عليه حتى يفرغ خزان البناية، سيستعيد الهدوء.. نعم سيفعل.



اتصل مشـعل قبـل الظهيرة، طلب حضور زيـاد على الفور، أجاب بأنـه لـم يفرغ بعـد من تجهيز الاسـتوديو، فقـال إن ذلك ليـس مهمًّا.. «يمكنـكَ اسـتكمالها حين تعـود»، أمـا الآن، فالفيلا بحاجـة للتزويد بالطعـام والخمور، كما تحتاج لنظافة عاجلة. وعده بالاتصال بصديقه

العرباويّ كي يقوم بالمطلوب، فرفض مشعل، قال: «بل تسافر الآن». كان حاسمًا، وأصوات الفتيات من حوله تمنحه صلفًا إضافيًّا وشعورًا مبالغًا بالرجولة. متى جاء بالفتيات؟! اتّصل بصديقه العرباويّ يستجلي الأمر، قال إن الفتيات وصلن بالأمس فقط، في سيارة دفع رباعي ذات زجاج أسود، معروفة لجميع المنتجعات الفارهة في سيدي عبد الرحمن. صاحب السيارة مدير سابق في بنك متعدّد الجنسية، تم تسريحه مع عدد من أصحاب الأجور المُرتفعة، فتخبّط لعدة أشهر قبل أن يفتتح نشاطًا خدميًّا جديدًا؛ توظيف فتيات جامعيات طموحات في شبكة سياحة ترفيهيّة مُحكَمة.. زبائن محترمون، معلومو الهوية، يرومون صحبة راقية ضمن إطار سابق التحديد. لا مجال للعبث، لا خروج عن النص، ولا تهاون في استبعاد من يتعدّى حدوده المنصوص عليها في دليل الشبكة. التصوير ممنوع، وكذلك محاولة التعرّف إلى الفتيات فيما يتعدّى البيانات المُقدَّمة. لا إرغام على مغادرة المكان المغلق، بأية وسيلة، فالفتيات ينتمين لأسر كريمة، ينتظرهن مستقبل محترم؛ لذلك تظل حمايتهن الأولويّة الأولى، فهي الضمانة المثلى لجميع الأطراف. ولهذه الأسباب مجتمِعة، تخضع الخدمة في مجملها لسريّة تامة.

صاح زياد عبر الهاتف: «حلاوتك يا مشعل! كيف توصّل الداهية لهذه الشبكة؟!» أجابه العرباويّ بأن من يسأل لا يتوه، وأن مثل هذه الشبكات معلومٌ لدى المجتمعات الراقية، خاصة في المنتجعات المنعزلة.

أكمـل زياد نظافة الشـقة بعجالة، وتهيّأ للسـفر بعـد العصر بقليل. نام عميقًا خلال الرحلة، فاسـتعاد شـيئًا من طاقته حين وصل العلمين. حاول المرور عبر عدّة بوابات لمنتجع مارينا، حتى التحم في الشـجار مـع أفراد الأمـن. اتصل بصديقـه العربـاويّ، فبعث إليه بقريـبٍ أنهى المشـكلة. صاحَبه إلى الداخل وحمل معه الأكياس السوداء من متجر الخمور. ابتاع السـجائر والمكسـرات، وبعض المأكـولات، وحملها في سـيارة العربـاويّ مُنطلقًا صوب سـيدي عبد الرحمـن. عند الباب الخارجـي لمطبـخ الفيـلا، تعانقـا عنـاق الأصدقـاء، وتناهـت إليهما الموسيقى صادحة، فاضطُرا لرفع صوتيهما بينما يتواعدان على الغداء معًا ظهر اليوم التالي. حمل زياد الأكياس إلى الداخل، شـاعرًا ببشـائر حرية وحمـاس. يحتاج ليومين في جو مثالي كهذا، هواء وبحر وخمر ونسـاء، بعيـدًا عن عينـي مبروكة وأحلامـه المُلِحّة. اسـترق النظر إلى الداخـل عبر حائط نصفيّ، يفصـل المطبخ عن طاولة الطعام. في بقعة الضوء الباهر، لمح خيالات مُنعكسـة علـى الواجهة الزجاجية المُطلّة علـى الحديقـة.. ثمة فتيـات يانعـات يرقصن بغنـج، يرتدين ما يشـبه الملابس التحتية. تابع انعكاسـاتهن فوق مرايا الزجاج الأسود، وأخذ يرصّ الزجاجات فوق الحائط النصفيّ، تهادت إحدى الراقصات إلى الـوراء بخطوات إيقاعيـة، خرجت من إطار الصورة المعكوسـة على الزجاج، دخلت في مجال رؤيته المباشرة، بقوامها المنحوت وشعرها المُتهدِّل كسـتارة من حرير. تابع تمايلها بينما الهواء يتمدّد في صدره، فيُحيل أنفاسـه لما يُشبه اللهاث. هذا القوام ليس مجهولًا تمامًا، بل إن له ملفًّا محفوظًا في ذاكرته. قامت الفتاة باسـتدارة مثيرة، فثبتت لبصره الرؤية تمامًا.. إنها هايدي.

أفلتت زجاجة النبيذ من يده. هبطت فوق سطح ذهوله. تردّد دويّها مُجاوِزًا صخب الموسيقى. فتجمّد المشهد المعكوس فوق الزجاج الأسود، ثم اقتربت الأجساد تباعًا تنشد مصدر الصوت. جذبت فتاة شالًا تتلفّح به، كما لو كان زياد الرجل الوحيد في المكان، ومن خلفها تقدّمت هايدي ببطء الصدمة. تأكدت من رؤية زياد، فلطمت خدّيها لطمة كتومًا وراحت تعدو صوب الحديقة. لحقت بها الفتيات سريعًا واللغط يرتفع في إثرهن. اقترب مشعل وسأل بذهول عن سبب الضجة. بارتباك شرح زياد الموقف، واصفًا هايدي بـ «زميلة دراسة» تفاجأت بوجوده. سأل مشعل باستنكار: «أي دراسة؟!» وأمر زياد أن يسارع بإصلاح ما أفسد. تلكّأ زياد في اللحاق بالفتيات، فلم تكن رجفة الذهول قد زايلت أطرافه، ولم يكَد يرسو على التصرُّف الأصوب. لاحظت إحدى الفتيات اقترابه، خفَت اللغط لبرهة قبل أن تنبثق فتاة الشال من قلب الدائرة، استوقفته عن المزيد من التقدُّم، فقال إنه أراد الاعتذار، طلبت إليه أن يذهب الآن، فصديقتها غير راغبة في رؤية أحد. عاد أدراجه وأبلغ مشعل بموقفهن، لعنه، ولعن مجيئه الذي أفسد الرحلة، وصعد لغرفته.

حمل زياد زاده من السجائر والبيرة، وتمشّى خفيةً نحو الشاطئ، استلقى فوق فراش الرمال البيضاء الناعمة، توسّد ذراعه وطالع النجوم، أشعل السيجارة من عقب الأخرى، وراقب أسراب السحاب بينما تقطع السماء بصبر، والقمر الذي يطالع العالم بنظرة ساهمة من خلف السحاب، كأنما يتستّر بغلالة رقيقة. غفا لمدّة لم يدركها،

ونهـض بـرأس ثقيل يصعُـب حَملُه. مشـى بمحاذاة الشـاطئ لا يلوي على شيء. لمح وهج سيجارة يضيء في الظلام، اقترب ببطء، فتشكّل أمامه جسـد هايدي وقد أقعت فوق الرمال، تواجه بثبات هبّات الرياح من جهة البحر. أكمل السـير كالمخمور حتى شـعرت باقترابه، تلفّتت بفزع، صاحت: «ماذا تريد مني؟!».

– لـم أقصد إيـذاءكِ.. جئت هنـا بمحض المصادفـة، وبدعوة من أصحاب المكان. كلانا جاء يبحث عن رزقه، ولن يُفشي سر الآخر.

– ابتعد عني..!

– ما لكِ تُعاملينني كأني مصاب بالجرب؟!

– قلت ابتعد عني، وإلا سأصرخ وأجعلهم يُلقونكَ في داهية!

– تتحدَّثين كما لو كنتِ أميرة مُصانة، ولستِ إلا ساقطة رخيصة..

قفـزت صوبـه. انهالـت عليه لطمًـا وخدشًـا. دفعها. فهـوَت فوق الرمـال. نهضـت بإصرار أكبـر وصراخ أفزع أسـراب السـحاب، ونبَّه القمـر. لطمتـه بعـزم المهانـة والبُغض. قبـض على رسـغها. اعتصره كحزمـة زهور ذابلـة. طوّح بها فوق مـلاءة الرمال المضيئـة. لم يُرهبه زئيرها. دفنها أسـفل وزنه وراح يُعذبها ببطء وتلذُّذ. قضم شحمة أذنها بأسـنانه. جاس بكفّه الخشنة أسـفل ردائها. همس إليها بالسّباب، غير عابئ ببصاقها وخوارها المحموم.

تناهـى إليه خفق أقدام تقتـرب. التفت صوب الفيـلا، فألفى رهطًا مُظلمًـا يُهـرول ناحيته، نهض سـريعًا عن جسـد هايـدي وراح يُصلح

ملابسـه. «مـاذا فعلتَ يا خسـيس؟!» دفعه صوت مشـعل فوق حاجز الإفاقـة. كاد ينهـار. أخـذ يهـذي بعبـارات مبتـورة. مبعثـرة: حاولتُ الاعتـذار. أهانتنـي. صفعتنـي. قالـت كلامًـا لا يُحتمـل.. بيـن عبارة وأخرى توالت صفعات مشعل. تراجع نحو الموج المتلاطم. تعثّر في قاعدة حديديّة لشمسـيّة بحر مطويّة. سـقط على ظهره. تمادى مشعل ركلًا وسـبًّا. انتفض زياد كالمارد أخيـرًا. هوى بلطمة قدَريّة على وجه مشعل دوَّت في الفضاء. حملتها الرياح للمدينة الغارقة في السبات.

حلّت لحظة صمتٍ لم يخدشـها صوت. تواجه الجميع في سكون الليـل دون حراك، حتى أصـدر الكويتيّ حُكمًا باتًّا: «سـترحل من هنا الآن، وستنال الصاع صاعين».

20

بعث يوسف الروح في هاتفه، بينما يقطع الكورنيش في عربة زينة. شـرع في محاولة يائسـة للاتصـال بزياد، ثم دفن بصـره واضطرابه في شاشة الهاتف، وتشاغل بتصفُّح معلومات حول الحبسة الكلاميّة على مواقع متخصّصة. ظل يتحاشى زينة منذ خرجا من المستشفى. يتجنّب حديثها. في نبرتها سـحر، وفي منطقها صلابة تُغويه. حتى عند استيائه مـن سـدادها فاتورة العلاج، وإصـراره على ردّ ما قامـت بدفعه، مهما بـدا رمزيًّـا، تمكّنت من إفحامه بمنطق بسـيط ومُتماسـك؛ لا يجب أن يدفع أيٌّ منهما أي شـيء، بل أن يتقدّما بفاتورة العلاج لشـركة الإنتاج الفنيّ لتُغطّيها طبقًا لتأمينه العلاجيّ المنصوص عليه في العقد. مازحته بقولها: «سـنواجه مشـكلة وحيدة بسبب الفاتورة، فهي شـبيهة بتذاكر عروض السـيرك المتنقّـل، وقيمتها أقـلّ من تذكرة رضيـع.. تُرى هل يصدّقوننـا؟» حين ضحـك أكملت: «لو كانت بحوزتنـا فاتورة طبيعية لضمنّـا الحصـول على فارق نقـديّ!» هنا استسـلم لمنطقهـا، وفضَّل التقوقُع بعيدًا عن سحرها.

وصلته رسـالة من زياد يعتذر فيها عن عدم استطاعته الرد، لظروف سـفر مفاجئ. سريعًا أرسـل الردّ: «عُد بالسلامة. أحتاج مفتاح الوكالة

على وجه السـرعة»، ثم تابع الصمت. عبثًا حاول التفكير في استئناف حياته، منذ آخر نقطة يتذكّرها. تأمّل كم أهدر الوقت يتخبّط في الحيرة، وكـم يحتـاج لبدايـة جديدة. سـيبدأ بحثًا جـادًّا عن مأثـور الموصليّ، مُنطلقًـا من آخر حقيقـة توصّل إليها. سـيعود تلميذًا يشـقُّ الطريق من أوّله، يلتقط أول يد تمتدّ إليه، سـيتعلّم الإخلاص في المحبّة، سـيفعل أي شيء ليستعيد ذاته الحائرة، وأمله في الزواج برحمة.

كأنها تقرأ خواطره، قطعت عليه زينة خلوة الصمت: «حدث جديد يتعلّـق ببحثك، لا أعلم إن كان الوقت مناسـبًا لإطلاعكَ عليه». تلفّت إليها دون أن ينبس، أردفت تقول: «الأمر يتعلّق بالوثيقة التي راسـلتني بشـأنها؛ (فـن العزف علـى العـود).. تواصلتُ مع جامعـة فراكفورت للموسـيقى والفنون بحثًا عـن أصلها التاريخـيّ، وحصلتُ منهم على أصـلٍ مكتـوب باللاتينيّة، وكذلـك ترجمـة مُعتمدة للألمانيّـة». ازداد غـلافُ الصمت توتُّرًا وثقًـلا، فأكملت: «الوثيقة ثابتـة بالفعل، ولكنها لا تمُتّ للموصليّ بصِلة، كاتبها ناسكٌ مغربيّ من مملكة غرناطة، كان عازف جيتار معروفًا لأسـبانيا، واشـتُهِر باختراعه أول تدوين موسيقيّ للعود والجيتار في ذلك العصر البعيد».

لـم يرغب في سـماع المزيـد.. بطريقتها هذه لن يعثـر على البداية أبـدًا! بينمـا يحتاج نقطـةَ ارتكاز ينطلق منهـا. أية نقطة. ليـس مهمًّا إن كانـت ثابتة أو مؤكدة. المهـم أن يقنع بها. أن يؤمن بإمكانيّة افتراضها، والتحـرّك بمقتضاهـا. قال بحِدّة غير محسـوبة: «ز.. ز.. زينة.. لـ.. لا أريد الحديث عن هذا الآن، أرجوكِ!».

- أنـا آسـفة! الظرف غير مناسـب لإرهاقكَ بالتفكيـر. أنت تحتاج لراحة تامّة. أرجو أن تقبل اعتذاري.

شـعَرَ بالحرج لقسوته معها، هي التي لم تمنحه إلا الأيادي البيضاء منـذ دخلت عالمه؛ فرصـة عمل لائق، علاقات أتاحت لـه التعيين في الأوبرا، مراجع باهظة التكاليف من أجل بحثه التاريخيّ، مسـاندة غير محدودة في جميع المواقف. ماذا يُغريه بالقسـوة معها؟ ألأنها تحبُّه؟! أليـس هـو الأجـدر بهـذه القسـوة؟! قال: «بـ.. بـل إنني أعتـذر منكِ عـن حِدَّتي.. لم تفعلي سـوى الخيـر، ولكنني متوتِّر قليـلًا بعد إصابة ذراعي».

- لا تحمل همًّا على الإطلاق.

- كيـف؟! قد يبدو مُصابي تافهًا، ولكنه بالنسـبة إليّ أشـبه بكارثة، أ.. أخشـى أن أفقـد مهارتي لمـدّة طويلة، الحقيقة أني أخشـى فقدانها إلـى الأبد، أخبرنـي الطبيب بـ.. بحاجتي لعـلاج طبيعيّ طويل قبل أن تستعيد ذراعي حركتها الطبيعيّة..

- انزع هذه المخاوف نهائيًّا من رأسـك! سآخذكَ لألمانيا وأُعيدكَ أفضل مما كنتَ في غضون أسبوع. لا تقلق. إنه عصر النانوتكنولوجي، ولا حاجة لدينا لبطء السلحفاة الذي يعيشونه هنا..

- أنتِ تؤمنين بالتكنولوجيا، كـ.. كإيماننا بالله!

ضحكت زينة، ثم علَّقت ببساطة: «الله! الحقيقة أني لستُ مُتأكدة، أو قـل إنـي غير مهتمّة، لسـتُ في حاجـة لمرجعيّة كبـرى ألتجئ إليها

حين يستغلق عليَّ الأمر. مرجعيّتي هـي العقل والمنطق، وأؤمن بكل مـا يُمكنني إخضاعـه للتجربة. كما أؤمن بقدرة الإنسـان على إحداث المعجزات، حين لا ينتظر هبوطها من السماء».

– أمـا أنـا، فــ.. فأؤمـن بقـوة الـروح، بقدرتهـا على تجـاوز حتى المعجزات العلميّة التي تُشـيرين إليها، لو اسـتطعنا من خلالها أن ننفذ إلى الله، لــ.. لنستمدّ منه القدرة مباشرةً.

– ستعالج ذراعكَ باليوجا إذًا!

– بـل بإيمانـي بأهميّة ما أقوم به، و.. وبمعونة الله لي، طالما آمنت به.. تأمّل ابتسامتها الثابتة. تابع تأرجحها بين احترامها لموقفه ورغبتها في السخرية منه. أردف: «لقد وصفتِني بالفنان المُستنير من قبل، أراكِ الآن قد تراجعتِ عن هذا الوصف».

– لا، لم أتراجع بالمرة. أنت فنان، ومُستنير.

– إ.. إذًا دعينـي أُخبـركِ كيف أفهم التنويـر. التنوير لا يقضي حتمًا علـى الإيمان، ولكنه يرتفع بـه بعيدًا عن طابعه الطقوسـيّ الموروث، كلما اتّسعت معارف الإنسان، يصبح الإيمان اختيارًا حرًّا.

– أفـكاركَ جديـرة بالتأمّـل. تأمّلـتُ فـي السـابق أفكارًا مُشـابهة، وقرأت آراء فلسـفيّة في ذات السياق، ولكني توصّلتُ لقناعة تُرضيني؛ ثمـة أفكار لا يُمكنني قبولها كحقيقـة مُطلقة، ولا يُمكنني أيضًا رفضها بشكل جازم. ومع ذلك، فالبشر ليسوا في حاجة لتفسيرات ميتافيزيقيّة لظواهـر الحياة التي يعجزون عن فهمها، بل عليهـم أن يُدركوا حيالها

أنهـم لم يسـعوا كمـا ينبغي لكشـف حقيقتهـا، عليهم اختبارهـا عقليًّا ومعمَليًّا حتى يكشفوا غموضها. عندها سيستعيدون زمام الأمر.

– إذًا تعتقدين أن العقل قادر على الإحاطة بكل الظواهر، أ.. أشك أن حياتكِ خالية من تجارب لم يكن ممكنًا تفسيرها بالعقل..

– هنـاك أشـياء غامضـة بالتأكيـد، ولكنـي لا أُحيلهـا لعوالـم أكثر غموضًـا. بل أرى أن بإمكاننا تفسـيرها حالما نبذل مـا علينا من جهد، أتفهم ما أعني؟

– أفهم، ولكنني غير موافق.

اعترضتهما إشـارة مـرور عند كورنيش المعـادي، توقّفت بالجوار سيارة ميكروباص تكتظّ بالأجساد، ما دفع التبّاع للخروج بجلّ جسمه إلـى الخارج مُسـتنِدًا لفتحة الباب المنزلق. أطلـق صيحات عابثة نحو زينـة، فرنت إليه بابتسـامة جذابة، وقالت بينما تُشـير نحوه: «باسـتثناء ظواهر كهذه بالطبع، غير قابلة للتفسـير!» ضحكا سويًّا، فاحتفل التبّاع بما ظنَّه انتصارًا في المُغازلة.

توقّفـا أمـام المستشـفى. حدّقت زينة فـي عيني يوسـف، وقالت: «أظنكَ تُفضِّل أن أتركَكَ الآن».. لم يُعلِّق، فتابعت: «أتحتاج لشـيء؟» أومـأ بابتسـامة شـاكرة. ودّعتـه قائلـة: «أراكَ لاحقًا. أرجو لـو أمكنكَ المرور بالمقهى الليلة، لنختبر معًا الميدي كونترولر الجديد، وأُطلِعكَ على أمر هام».

- نعـم سـأفعل. أرغـب فـي تجريبـه بشـدّة، وأيضًا في اسـتكمال الحديث.

- سأكون في انتظارك.

عرضت أن تُسـاعده على النهوض، شكرها قائلًا ألا حاجة لذلك، حيّاهـا ومضـى نحو مدخـل المستشـفى دون أن يلفـت، مُقاومًا رغبة ضاغطة في التأكّد من ذهابها.

***

ألفـى رحمة مُتربِّعـة في الممـرّ الموصِـل للرعاية المركّـزة، تدفن وجههـا في سـكون كفّيها الشـاحبتين، تُحيـط بها فقاعة غيـر مرئيّة من العزلة. سـريعًا مرّت بذهنه مشـاهد يوميها الماضيين، وأيقن بحدوثها قاسـيةً كمـا تخيّلهـا. أشـفق عليها، ومن نفسـه، فلـن تُعفيـه حجّة من الوقـوف بجانبهـا في هذا الظـرف الدقيق. اقترب حتـى وقف حيالها، فلـم تنتبه لوُلوجه مجال رؤيتها. بادرهـا: «رحمة».. انتفضت. نهضت بلهفة غارق وجد جذعًا يتعلّق به. سـرعان ما انتبهت لضمادته. سألت بِلَوعة: «ماذا أصابك؟!» فقال مُهوِّنًا: «كسر بسيط».

تأمّـل ذبولها وغَـورَ خدَّيها، كأنما امتصّها الجزَع. سـألها إن كانت أكلت شـيئًا طـوال النهار، ففهـم أنها لـم تـأكل طوال الأيـام الماضية. كانـت تفصلهما عـن موعد الزيـارة سـاعتان، فأصرّ علـى اصطحابها للكافيتريا. هناك انتظرا برهة حتى فرغت طاولة، أجلس رحمة وناولها قائمـة الطعام، سـألها: «مـاذا تطلبين؟» طوت الورقـة وقالت: «قل لي أولًا؛ أين اختفيت؟ وكيف أُصِبت؟».

- اصطدام طفيف بسيارة عابرة، أسقطني فوق حافة رصيف بنايتكم، فانكسرت ذراعي كسرًا مُضاعفًا واحتجت لشريحة ومسامير.

قالت بذعر: «أجريت عملية؟!» أومأ مُبتسمًا: «عملية بسيطة صباح اليوم، خرجتُ بعدها بساعتين كما ترين». قالت بإشفاق: «وأنا آخر من يعلم يا يوسف؟!».

فكّر كيف علمت زينة قبل الجميع، وخشي أن تسأله رحمة عن المزيد. دفس اضطرابه في قوله: «لم أتمكن من إبلاغ أحد.. حـ.. حملني بعض المارّة لمركز طبيّ تابع لجمعيّة سلفيّة، وهناك وجدتُ شحن الهاتف فارغًا، و.. ولم أجد شاحنًا حتى الصباح».

ظلّت مُطرقة، ترسم خطوطًا مُتعرّجة فوق قائمة الطعام، أردف سائلًا: «كيف حال الأستاذ؟ أهناك بادرة تحسّن؟» لمح ارتجافة فكِّها السفليّ. لولا تمسُّكها بزمّ شفتيها وثباتها على الإطراق لكانت قد أجهشت بالبكاء. همس بنبرة يقينيّة: «سيعود أفضل مما كان، سيملأ الوكالة حياةً كما فعل دومًا، وسنُصِرُّ على عودته للتدريب والتوجيه. أشعر بحاجتي إليه أكثر من أي وقت».

- ألست غاضبًا منه؟

تنهّد، تريّث قبل أن يقول: «تأثّرتُ أول الأمر، ولكني وجدتُ فرصةً للتأمّل بينما أنتظر العمليّة.. الأستاذ محقٌّ في غضبه عليّ، وقراره بسحب التوجيه مني صائب ومنطقيّ، فقد انشغلتُ وتخبّطتُ بعيدًا عن الوكالة، ولم أولِ التوجيه ما يستحق من اهتمام».

– أختلف معك. حالة أبي لن تُعينه على المواصلة، وأنت خير من ينوب عنه. أظن أن أحدًا قد وشى بكَ؛ قد يكون زياد، أو أحد أصدقائه من السلفيّين.

– مسكين زياد.. محاط بالشكوك طيلة الوقت. حتى السلفيّون أكثر حظًّا منه طالما كسبوا ثقة الأستاذ.

همست رحمة ولا تزال مُطرِقة: «لم أرتَح لوجودهم أبدًا»..

– ربما تُبالغين في تخوُّفكِ.. حتى لو كانوا يسعون للتوسّع، حسبهم أن يقدّموا خدمات يحتاجها الناس.

رنت إليه وقالت: «لأجل إقناع الناس بجدارتهم، ليس أكثر».

– وما الضرر؟ هم جديرون فعلًا، طالما استطاعوا خدمة الناس. قاموا بعلاجي منذ الأمس دون أن يطلبوا شيئًا يُذكَر، ورغم ذلك لا تجدينهم جديرين بالتقدير..

ظلت ساهمة على حالها، فمسَّهُ قلقُها الدفين. قال: «ألستِ بحاجة لنقود؟» أومأت بالنفي، والتمع في عينيها بريق حماس. «أتعرف من سدَّد تأمين المستشفى؟» أومأ مُتسائلًا، فقالت: «زينة ديناري!» أشاح ببصره يراقب المارّة البعيدين، هربًا من عينيها، فأكملت: «أتعرف ماذا قالت لموظف الاستقبال حين سألها عن الصفة..؟ ابنة ذاكر رسلان!».

نبَّهتهُ اللفظة الأخيرة فوق قدرته على الإخفاء، فقال: «عجيب!».

قالـت: «حاولتُ مهاتفتها عدة مرات لكي أشـكرها، وحتى أسـدّد المبلـغ المدفوع، ولكنها لا تُجيب أبدًا». وحين لاحظت عدم اهتمامه قالت: «ماذا ستفعل الآن؟»

- سـأفعل كما قال الأسـتاذ؛ سأسـتعيد مفتاح الوكالة وأُحضره مع عود التدريب. قرأتُ أن أشياء حميمة كهذه قد تُفيد حالته، يستخدمونها كأداة للتذكُّـر، فهي تُسـاعد على اسـتدعاء المفردات أكثـر من غيرها. مفتاح الوكالة لم يكن يُفارق جيبَه، والعود ظلّ رفيقه لسـنوات. أثق أن طنينه وملمسه، وحتى رائحة خشبه، ستُحفّز ذاكرته.

رنـت إليـه باسـتغراب، وقالـت: «كيـف علِمـت بحالتـه بهـذا التفصيل؟!».

أربكتـه المفاجأة، تلعثم قائلًا: «ســـ.. سـألت في الاسـتقبال، قبل قليل».

ثـم أردف بسـرعة: «رحمـة.. الأسـتاذ في أمـسّ الحاجـة لقوّتك، وعليـكِ إثبـات جدارتـكِ ببنوّتـه، هـو مـن علّمنـا الإيمـان والعطاء. ستسـتدعين مجموعة المتدرّبين لاجتماع برئاسـتك، وستفتحين باب التقـدّم مـن جديد.. ســـ.. سـأكون دومًا بجوارِكِ، فلا تخشـي شـيئًا، ولتقبليني عضوًا في فريقكِ لكيلا أفارقكِ. هكذا سننفّذ أوامر الأستاذ، وبهذا أحصل على بداية جديدة».

بدا انتشالها من خانة اليأس صعبًا، ورغم ذلك قرّر يوسف ألا يُفلت الأمل. سـحب قائمة الطعام من بين يديهـا، وبحث بين الأصناف عما

يفتح الشـهيّة. وقعت عيناه على فطيرة تمر فأشـار إليها قائلًا: «سـنبدأ بأكل تارت التمر يا سليلة الموصليّ.. كان جدّكِ يتقوّت بالتمر المبلول في ماء البئر. ولكننا نحتاج لبديل عصريّ طالما نضب ماء البئر».

21

شمس أغسطس منزوعة الرحمة، حتى يلفظ النهار آخر أنفاسه الحارّة. تحسّس يوسف جبهته، وظهره المبتلّ، ومرّ بمنديل ورقيّ فوق منبت رقبته، فتهتّك نسيجه سريعًا دون أن يمتص المزيد من العرق. حشره في جيب بنطاله مع سابقيه، واستجدى الطريق كي تنقضي. مرّت نصف ساعة منذ ترك موقف الميكروباص، قاصدًا بوابة الوكالة الجنوبية، كأنّ الطريق استطالت مع سخونة النهار. أخيرًا لاحت الوكالة، توارت بوابتها خلف قواطع حديديّة وألواح إسبستوس، تتّكئ على جدرانها العجوز، وتراصّت براميل مُضعضعة هنا وهناك تحمل ألواحًا خشبيّة. شق يوسف طريقه بين أكوام التراب وبقايا الخبز الجاف، مُتجنِّبًا هرمًا إسمنتيًّا يفترش مشمّعًا سميكًا. تأمّل مواد البناء والمعدّات المتزاحمة فوق الرصيف، كأن جسرًا سيُنصَب على حدود الوكالة. أوشك الهيكل الحديديّ أن يكتمل، وأُقيم كشك حراسة مُلاصق للمبنى بحجم فاق توقّعه.. سينزعج الأستاذ لمرأى هذا الخراب، خاصّة هذه العروق المُثبَّتة في جسم المبنى الأثريّ.

نادى يوسف حارس الكشك، فلم يُجِبه صوت. تفحّص الهيكل الخشبيّ ولاحظ قفلًا صغيرًا يوصِد الباب، هبط إلى الشارع واستدار

حول المبنى صوب البوابة الشمالية. أولج المفتاح بيده السليمة ودلف إلـى الداخـل. عبَرَ الصحن الغارق في ماء الشّـفَق، ومـرّ بمحاذاة البئر الصمـوت. وجد باب الورشـة موصـدًا، فأدرك غياب عـم عبيد. مرق عائـدًا وحمل ذراعه المضمّدة بينما يرقى السـلّم. لمح العود المنسـيّ فـوق حائط قاعة التدريب. انتزع بقايـا المناديل الورقية من جيبه. أنزل العود وسـجّاه فـوق المكتب، وحاول إزاحة ما اسـتطاع من تراب عن جرابه القماشـيّ. وضع كومة المناديل جانبًا حين اصطبغت بالسّـواد، ومدّ يده اليسرى أسـفل الجراب كي يستخرج العود. استنكرت أنامله الأوتار البلاسـتيكية الخشـنة، وكذا ملمس الزنـد ذي الدهان الرديء؛ مـا كان ليبقى على هـذه الحال لو عالجتهُ أناملُ الأسـطى عبيد. مُحال أن يكـون عـودَ التدريب! اسـتعصى إخراجه من الجـراب على ذراعه السـليمة، فقلَبه ورمق وجهه عبر فتحـة الجراب. أي مصيبة؟! إنه عود آخـر بالفعل. من يجـرؤ على فعلة كهذه؟ أيكون..؟ لا، مسـتحيل، لن يفعلهـا زيـاد مهما بلغ طيشـه. ولكن.. من غيره؟! معقـول يا زياد؟ إن لم تُراعِ خاطري فأين خاطر أسـتاذك؟ أي مصيبة..؟! هذا أحبّ أعواد الشـيخ إلى نفسه، أقدرها على إنطاقه واسـتعادة ذاكرته، أجدرها على انتشال رحمة من يأسها المُطبِق..

حـاول مهاتفة زياد. الجبان لا يردّ. يتهـرّب بفعلته. عاود المحاولة مرات دون فائدة. مع سـادس مرة كان الهاتف قد أُغلِق. بعث برسـالة تصله حالما يفتحه..

«لم تسـرق عود التدريب فحسـب، بل سـرقت آمالنا دفعة واحدة. ثق بأنك غير مُرحَّب بك في الطريقة. لو أريتني وجهك سأكسر عودك النجس فوق رأسك».

***

يتبايـن البشـر، والمصيـر واحد؛ خروج أبـديّ من نعيـم الجنّة. لم يفطن لنعيمها حتى حانت لحظة الخروج. حتى في هذه الساعة الظليمة من الليـل، كان بإمكانه التحسّـر على البحيرات المُضـاءة، والهضاب المعشوشـبة، والشـجيرات المُزهِرة الفوّاحة بالعطر. ترك مُهانًا حواءه المُدلِّسـة، خاضِعًا لسـطوة حنش يلدغ بنفوذه. اجتاز بوابة الجنة فألفى الطريق مُقفِرة، تحُدُّها صحراء مُمتدّة كمداولة الزمن. هاتف العرباويّ مـرّات ومرّات، حتى سـئم الطنين. أضاء كشّـاف الهاتـف ولوّح لكل سـيارة عابـرة. لـم يعُد أمر اسـتيقاف سـيارة يسـيرًا كما كان فـي أزمنة الإنسانيّة الأولى. صار السـائقون يخشون أشباح الظلام، بينما يخشى هو الضياع في الليل الأبديّ، في هذي الصحراء ذات العيون الوامضة، المُلتمِعة أمام عينيه كإنذارٍ أخير.

دنـت منه كتلة معدنيّة هائلـة، عواؤها كأنه نَهيم فيـل، توقّفت على مسـافة معقولة منه، هرول ناحية كابينة السائق، وارتقى سلّمها يستطلع الرجـل، ألقى التحيّة وشـكره على التوقُّف، كان كهلًا يُسـاوم الكهولة بصبغـة شـعر داكنـة، سـايره زيـاد طيلـة سـاعات ثلاث، حتـى وصلا مشـارف القاهـرة. هنـاك تركـه في أمـان اللـه، وأكمل طريقـه صوب المجمّع السكنيّ. كان الفجر قد أوشك على اقتحام قلاع الليل. سارع

بارتقاء السـور المكسوّ بنباتات هائشـة، قفز لداخل المجمّع وتحاشى أكشـاك الحراسة حتى اقترب من حديقة مشعل. فات الكويتيّ الساذج أن يسـتعيد مفتاح الشـقة حين طردَه من الجنّة. فلينـدم على مهل حين يشـعر بالضربة. سيُسـارع بحمل ما خفّ وزنه، وتجاوز ثمنُه الخسـائر المتوقعـة. الحق أن خسـائره لا تُقـدّر بثمن، بعدما انقطعـت به جميع السبل. ما هذه الضربة إلا تعويض رمزيّ، لا يساوي الكثير.

لاحت فـي الظلام الآخذ في التراجع نقطتـان برتقاليّتان، تومضان تباعًـا وتسـتحثّان خيـوط الدخان الشـفيفة. ثمّة شـخصان يُدخّنان في ركن الحديقة! تسـلّل ببطء، حشـر جبهتـه في فراغـات البوابة. نعم.. حارسـان بملابـس ضيّقة، تَبرُز من نسـيجها العضلاتُ كنذير شـرّ. لم تفُت الكويتيّ الداهية تفصيلة تُثبت نفوذه وتشـي بقسوته. الآن، سُدَّت السُّبل جميعًا.. تأكّد ضياعُه في صحراء الخوف. برقت مبروكة في ذهنه كملاذ أخير. سـارع بالخروج قبل اتساع عيون الفجر. هاتَفها حين بلغ مأمنه، شاركت بدورها في المؤامرة، وتجاهلته.. ردَّت أخيرًا. جابهت عبارات اللوم بصـوت راجِف: «يكفيني ما أنا فيه من مصائب!» كانت تُكابـد ضجرًا واضحًـا، تُريد لو تهجـر الطالبيّة فلا تُعتّبهـا مرة أخرى، منذ انتشر الفيلم والعيون تترقّب ظهورها، تمضغ خطواتها، الهمسات لا تنـي تتبعهـا في كل مكان. «هذا حالهم منـذ الأزل، ما الجديد؟» لا، لا، ليـس حالهـم المُعتاد، هناك تغيُّر واضح، تحـرُّش أكثر فجاجة، لن تفهم ما أعنيه، ثمّة أشـياء لا يفهمها إلا الحريم. صارت تخشى ركوب «التُّكتُـك» بمفردها، حتـى مع أولئك الصبية الذين لا يزالون في اللَّفَّة،

تخشى المرور أمام «السّايبر»، ترتجف خوفًا لو رأت عامل الإنترنت يُصلِح وصلةً ما. لن تفهم أنت، ولن تُبالي. «ماذا تُريدين مني؟!» أريد أن أهجر الحي اللعين، أَوجِد لي مكانًا ولو بصفة مؤقّتة. «كيف؟! إذا كنت لا أجد مكانًا لنفسي! لا تقلقي، سأمكث معكِ وأحميكِ من أولئك الأوغاد». خلاص، خلاص، انسَ الأمر.

طلب منها أن تُرسل رصيدًا لهاتفه، وتمَشّى بعيدًا عن المجمّع حتى التقى عربة فول تستفتح باب الرزق. جلس على مقربة منها كيلا يُثير ريبة أحد. فتح مُتصفِّح الإنترنت، وبحث عن عنوان الفيلم كما ذكرته مبروكة؛ الراقصة والمصوّر. انبجست أجواء الوكالة الليليّة على الفور، فوجئ أسفل الفيديو بكلمات مفتاحيّة عديدة تقود إليه: فضيحة الوكالة، جارية الموصليّ، حريم السلطان.. أيّ كارثة تهبط عليه؟! استغلَّ المصوّر الخسيس اسم الوكالة فعقَد عُقدةً إضافية في حبل مشنقته. سيُغلَق في وجهه بابُ الوكالة بالضبّة والمفتاح. لم تعُد رسالة يوسف-الفسْل الذي ضمّه بنفسه للوكالة- هي العائق الوحيد. لن يطردني وحده. بل ستلفظني البوابة كبصقة مُقزِّزة. ستشجّ الحجارة رأسي وتدكّ عنقي! أين ألتجئ الآن في هذا الفراغ الموحِش؟ لن أجد ثمن شَقَّة الفول المحشوّة تلك! تلزمني ضربة أخيرة، وحاسمة..

***

سارعت رحمة بنقل البشارة للصّانع العجوز، حتى قبل التأكّد منها، فالأسطى لم يبرح مكانه في المسجد المُجاور منذ حُجِز الشيخ في الرعاية المركّزة. «سينتقل مساء اليوم لغرفة عاديّة، بعدما

استقرّت حالته». هكذا أبلغه السائق، فارتاح الأسطى عبيد وشرع يجمع حاجياته من ركن المسجد؛ وسادة قطنيّة يابسة، بُطانيّة متهرّئة، وأشرطة دواء. أعاد الكوز المعدنيّ لخادم المسجد وشكر له حسن استضافته، ثم اتّخذ طريقه الأبديّ صوب الوكالة، دون أن تخطر لذهنه فكرة العودة لبيته.

كان يأمل في الوصول سريعًا، كي ينقع قدميه المتورّمتين في ماء دافئ، ولكنه نسي كل هذا إذ فجعه المشهد خارج الوكالة؛ أكوام الرديم تكتم أنفاسها، وعروق الخشب مغروزة في لحمها كرِماح مسمومة. هالهُ مرأى الكشك الخشبيّ الموصد. بحث عن الحارس فلم يجده، سأل عمّال الحفر فأنكروا معرفة شيء، سألهم عما يفعلون، فقالوا: تعليمات المعلّم. «أيّ معلّم؟» تجاهلوه. دلف إلى الداخل فلم يجد أثرًا لعروق الخشب الممتدَّة من الخارج. انتبه لكونها تختفي بداخل حاصلة التخزين المُغلقة، المُلاصقة للورشة. إذًا، فقد استُخدِم حائط الحاصلة كجدار رابع للكشك!

بحث عن مفتاح الحاصلة في كل مكان ممكن، حتى برقت في ذهنه ذكرى منسيّة.. كان ذاكر يُخفي المفتاح فوق مبخرة على يمين البوابة. جلب سطلًا معدنيًا، قلَبه واعتلاه، تحسّس موضع المفتاح حتى أمسك به، مسحه في قميصه المُشبّع بالعرق وفتح باب الحاصلة. ألفى كراكيب مُكدّسة على مسافة متر من الباب. لا مجال للولوج إلى الداخل وكشف ما يدور في الخفاء! استعاد عزمه على إيقاف العمّال، مهما تطلّب ذلك. ليعُد الشيخ أولًا، فيرى إن كانوا مُلتزمين باتفاقهم

معـه، أم يعبثـون من وراء ظهره. شـوَّح عامـلٌ في وجهه قائـلًا: «ليس لـكَ كلام معنـا. تحدّث مـع المعلّم حين يجـيء». المعلّـم لا يجيء، والشـمس تصهـر المنطـق وتُضـرم نيران الشـك. عبَر الشـارع صوب الجمعيّة الشـرعيّة، هـبّ صارخًا فيمن لاقاه، لم يسـتمع لمخلوق، لم يسـتجب ليد تسـحب برفق، سـيوقَفُ العمل قبل أي حديث، سيُزال الكشـك ودون ذلـك رقبتي. توتّـرت الأجواء واختلطـت الأصوات. اندفعت أذرع مُهتاجة، جذبتها أذرع أنعم جلدًا وأكثر سطوة. انفلت من قلب اللغط صوت الشـاب الأكرش: «قُطِع لسـانكَ يا صانعِ المعازف الخـرِف.. أخـرِج مداسـكَ النّجـس من هنا، وانـجُ بأيامـكَ المعدودة المغموسة في الإثم!».

كاد يتداعـى بينما يعبر الشـارع. تورّمت قدمه حتـى كادت تنفجر. عـاد إلى الداخـل، عبّأ السـطل بالميـاه الدافئة، حمله وجرجـر رجلَيه لداخل الورشـة، أغلـق الباب وجلس في مكانه الأبـديّ خلف البنك، مُدليًـا قدميـه في جوف المـاء. صارت الدموع تنسـاب علـى وجنتيه، فـلا يـدرك ما أوعز فيها؛ أهـو الألم، أم الخـوف؟! عاودته ذكرى بكاء الموصلـيّ والأمطار الصيفية، نظر إلى السـماء المُحتجِبة فوق سـقف الورشة، وعلم أن ميتةً ستقع لا محالة.

22

في تلك الليلة المشؤومة، مكث يوسف لساعات في قاعة مبيت الشيخ، يبثُّ الجدران الأثرية غضبَه ويهش عن رأسه أفكارًا شيطانية، تُنزِل أشد العقوبات فوق رأس زياد. لم يعهد في نفسه غضبًا بهذه الوطأة. لو أفلت زمامها الآن لجرفها تيار الشر إلى الأبد. لماذا تتكاثر الظنون في هذه اللحظة بالذات؟ لماذا تُلِح عليه ذكرياته الأليمة، وكيف يشعر بألمها طازجًا لهذا الحد؟! ولكن.. قد يكون لفورة الغضب هذه فائدة ما. سيفيد منها الليلة، سيحسم أمورًا ظلَّت مُعلَّقة، قبل شروق شمس الغد. لن يُجيب رسائل رحمة، لن يدعها تنال من فورته، سيشجّ رأس زياد حالما يلتقيه، سيلتقي بزينة في مقهاها الغريب، ويُطالب بالوثائق التي ادّعت ورودها من ألمانيا، سيسألها كيف تكره الأستاذ لهذا الحد، ثم تسدِّد عنه المال، وتدّعي بنوّته! سيحسم أمر شيوخه وشياطينه الليلة.. الليلة وليس غدًا.

حشر نفسه في حافلة عامة أهدرت بقايا صبره وكرامته. هبط في ميدان عبد المنعم رياض، وتمشّى بمحاذاة النيل حتى بلغ الزمالك. خبَّ إلى البناية ودلف إلى المقهى، وقد صار احتراقه وشيكًا. رنا لدراويش المولويّة، المُعلَّقة صورهم فوق جدران الردهة. لم يعُد

يسـيرًا حسمُ أمره منهم. أيستجير بدواماتهم المقلوبة رأسًا على عقب، أم يصب عليهم لظى غضبه؛ لهروبهم من دوامة الواقع؟!

لاقتـه زينـة باحتضان حميم، لـم يصدّه ولم يتجـاوب معه. نأت به بعيـدًا عن الزبائن. جلسـت بجواره إلـى طاولة المكتـب. مدّت يديها بـأول نموذج للميـدي كونترولر يُصنَـع خصيصًا لآلة العود. همسـت بنعومة: «هذه الطفرة تسطر تاريخًا جديدًا لآلة العود». تأمّله لبرهة، ثم وضعه جانبًا وطلب أن تُطلِعهُ على الوثائق التي ذكرتها صباح اليوم.

- أهذه طريقة احتفالكَ بسبق جبار كهذا؟!

- عذرًا زينة، لستُ في حالة تسمح بالاحتفال.

رمقتـه بقلق، ومسـحت منابت شـعره بينما تقـول: «صغيري، ماذا دهـاك؟!» نهـض مُبتعِدًا. بدأ الحديث بطيئًـا، مُتلعثمًا، ثم ارتقى موجة غضبه وأفضى بكل شـيء؛ مأسـاة رحمة، اختفاء عبيد، الكشك المُقام على حدود الوكالة، ثم الكارثة الكبرى: سرقة العود. اقترحَت أن يقوم الأسـطى عبيد بصناعة عود مُطابق لذلك المسروق. سخِر من فكرتها. قـال إن للعـود روحًـا تنطبـع فـي صوتـه، رائحتـه، ملمسـه، لا يُمكِن استنسـاخها مهما حاول الصانع. تحمّلت نقـده اللاذع بصبر، وأكّدت أن الأمور ستتبدّل تمامًا في الأيام القريبة القادمة.

- سـتصل هيلجا مطـار القاهرة الليلة. سـتزور الوكالة وتطّلع على مخطّطات المشـروع. لقد حدّثتُها بشأن تعيينكَ مديرًا تنفيذيًّا للمركز، سـيؤول إليـكَ تصريـف كل شـيء. عليـكَ أن تعـي أن مصلحـة ذاكر

رسـلان تُحتِّم علينا إبعاده عن متاعب الإدارة، الوكالة سـتنهار يقينًا إذا اسـتمر الصراع الدائر حولها بهذا الشـكل، لن تكون سـرقة العود ولا امتداد أذرع السلفيين نهاية المصائب.

– دعكِ من كل هذا الآن يا زينة، أرجوكِ. أ.. أحتاج لحسـم الكثير مـن الأمـور قــ.. قبل الخـوض في مسـتقبل الوكالـة المنهـارة. وبـ.. بمناسبة السيد رسلان، أصحيح أنك سدّدتِ عنه مبلغ التأمين؟

أشـعلت سـيجارة. قالـت بينما تنهض: «هـا أنت تجرّنـا لمواضيع فرعية»..

– ليست فرعيّة على الإطلاق، بل إنها صلب الموضوع. ر.. رحمة تريد أن تشـكركِ وأن تُسدِّد المبلغ، وأخبرتني بأنكِ ادّعيتِ بنوة الشيخ أ.. أمام موظف الاستقبال. أي تناقض تتعاملين به مع الرجل؟!

نفثـت الدخـان نحـو السـقف المنخفـض، وقالت: «يوسـف، إذا صارحتُـكَ بعيوبـي فلـن يكـون التناقـض من بينهـا.. التناقـض الحق سـتجده لدى شـيخك يا حُلـوي، هو من اشـترط عليّ قبـل حضوري للقاهرة ألا أذكر الحقيقة لمخلوق».

– أي حقيقة؟!

لاحت على وجهها ابتسامة هازئة، قالت: «حقيقة أنني ابنته».

رمقهـا بجمـود لبرهة طويلـة، أحسّ خلالهـا أن الكون قـد توقّف تمامًـا مـن أجل مُراقبته، يُتابع سـقوطه فـي بئر الحيـرة ويُنصِت لطنين ارتطامه الأبديّ. قال: «أنتِ تهذين»، وشـرع يُلملـم حاجياته المبعثرة

فـوق الطاولة. بهدوء قالـت: «معكَ حق.. أتفهَّم صدمتـكَ وتكذيبكَ لكلامـي، ولكنها الحقيقـة التي سـتعرفها إن عاجلًا أو آجـلًا. الوكالة مِلكـي. ورحمة أختي غير الشـقيقة، سـأحتفظ لها بنصيبهـا حتى تُقرِّر مـا تريد بحريـة كاملة. كما أنك شـريكي شئتَ أم أبيت. أنـا أحبكَ يا يوسف»..

أولاها ظهـره. ترك كلماتها تتسـاقط خلف ظهره وغـادر المقهى، لا يلـوي على شـيء إلا الذهاب للوكالة، إلا سـؤال الشـيخ، وسـؤال البئر الصموت، والحجارة الصماء، والأسـتاذ الأبكم، سـؤال النجوم الحائـرة بيـن البريق والخفوت، والسـماء البعيـدة التي لا تنـي تبتعد، فتستحيل مُحالًا.



في محيط الوكالة، وبعد اجتماع سـاخن عصر اليوم، قام شـيخ من خطباء الجمعية الشـرعية بتغيير موضوع درس الخميس، حيث يشـهد المسجد أكبر حشد من الحاضرين. استفاد الخطيب من كفاءة الأبواق الجديـدة التـي ثُبِّتـت فوق أعمـدة المظلّـة أثنـاء الاجتمـاع، فجلجل بالصيـاح بأعلى صوتـه، وراح يلتـذّ برجع الصدى مـع كل جملة. بدأ هادئًا كعادته بالثّناء والحمد المحفوظين، ثم راح يرتقي سلّم الحماس والانفعال شـيئًا فشـيئًا حتى بلغ الذروة، وكانت ورشـة الوكالة محورَ هذه الذّروة، أو كما أسـماها: «مصنع المعازف النجِسة». ألهب حديثه مشـاعر الحضـور، فانطلقـت الحناجر تطلـب تطهير الأثر الإسـلامي من دنس الموسـيقى. بعد الدرس، تجمَّع عدد من المتحمسـين خارج

المسـجد، وانضـم إليهم بعـض الباحثين عن تسـلية. وبيقيـنٍ لا يهتز، اسـتطاعوا الإفلات مـن أصوات عاقلـة حاولت إثناءهـم. فضّوا باب الكشك، ومرّوا عبر فتحة في الجدار كانوا قد أحدثوها خفيةً قبل أيام. فتحـوا طريقًـا بين أكداس المهمـلات في حاصلة التخزين، وأشـعلوا النار في أخشـاب رفيعة قبل أن يصلوا ورشـة الآلات. أضرموا النيران في باب الورشـة، فسقط إلى الداخل بثُقل اشتعاله. في غمرة حماسهم تلك، فاتهم أن يلحظوا وجود الأسطى الراقد خلف البنك، فلم يخطر ببالهم أن الوكالة المهجورة منذ أيام تحوي نفسًا حيَّة، آثرت أن تحمل وسادتها وبطانيتها لتَلقى حتفها في مكانها الأثير.

وصل يوسف في أوج الحريق، وفزِع لمرأى حريق الوكالة. اشتبك بذراعه الوحيدة مع بقايا المتحمِّسـين، وشـارك بعجزه مع من حاولوا السـيطرة علـى النيران طـوال الليل. في هـذه الأثناء، هبطـت الواجهة بفعـل الحفـر والحرارة، فأحدثت دويًّا أشـبه بانفجـار، وأثارت زوبعة مـن التراب أجْلَت أكثـر الحاضرين، وإن كانت كتمـت أنفاس النيران وسـاعدت في إخمادها. مع انسحاب ألسنة اللهب، عبَرَ يوسف طريق آلامه بدءًا من باب الكشـك، ومرورًا بحاصلـة التخزين حيث تفحَّص مـع كل خطوة كُتل أخشـاب مُحترقـة، عبرت أزمنة ومسـافات لتجود بأضلاعهـا لمريـدي الطريقـة، وفـي نهاية طريقـه كاد يصطدم بجسـد مُتفحِّـم، فـوق بطانيـة مصهـورة كبقعـة زيت سـوداء، وعندهـا أدرك كيف جاد الصانع العجوز بجسـده كاملًا، فتلاشـى مُحترِقًا مع البخور والأخشاب.



حين تساءل زياد: ماذا بعد الطرد من الجنة؟ أجاب نفسه سريعًا: شقاء أبديّ بالطبع، وبلا طائل.. سيعيش محكومًا بمدة حياة إلزامية وأشغال شاقة مؤبّدة. طرائق مسدودة النهايات، وأحلام منذورة للدفن عند الولادة. سيمضي مُتخبِّطًا حتى تُنتزَع منه قشرة الحياة في لحظة مجهولة، قد تكون ذات اللحظة التي تساوره فيها الرغبة المُبهمة في البقاء. أما الآن، فيحتاج لوسيلة يقضي بها سائر أيامه، مهما تقلَّصت فرص بقائه. ثمة فرصة أخيرة تلوح في أفقه المعتم؛ سرقة أعواد الورشة. فطالما انقطعت به سبل الوكالة إلى الأبد، فلا بأس من اقتسام الغنائم بأية وسيلة. استفسر عن رصيد الهاتف، بينما يتخبَّط في أسواق شارع فيصل. الرصيد معقول، آخر ما حصده من جنة مبروكة. هاتَفَ صديقَه سائق الثمن نقل، وواعدَهُ أمام الملهى في الثانية بعد منتصف الليل، ليذهبا سويًّا ويُحمِّلا أعواد الورشة. «سرقة جديدة؟» سأله السائق، فقال: «لا، بل أعمال ترميم تستدعي تفريغ المكان». استفزَّه الهوان في إجابته، فصاح فيه: «وما شأنكَ أنت يا سائق علبة السردين؟! ستنال عرقكَ ومزاجكَ، ثم تحشو فمكَ بخرائكَ وتلزم الصمت، وإلا حشوتكَ على طريقتي». عندها عادا للضحك، وأتمّا الاتفاق..

تحسَّس زياد جيبه الخلفيّ بحثًا عن شريط الترامادول، ثم توقَّف أمام زاوية صلاة أسفل بناية شائهة، فأجَّل تعاطي الدواء الساحر لما بعد استيقاظه من النوم. لم ينَم منذ يومين، وقبلهما كان نومه قليلًا، مُتقطِّعًا، تُناوشه الأحلام السعيدة البلهاء، فلا تمنحهُ راحةً تُذكَر. دلف لداخل الزاوية، وسأل خادمها عن مكان الميضأة. اغتسل بعجالة وعاد

إلى الرجل، سـأله أن ينام لساعتين خلف ستارة مُصلّى الحريم، رفض الرجـل رفضًا قاطعًا قبل أن ينفحه زياد عشـرين جنيهًا، ويطلب منه أن يودعهـا صنـدوق الصدقات حيـن لا تلزمه. نـام ملء ألمـه وإحباطه، حتـى أيقظه الأذان الصاخب. حسـبه أذان المغرب، ولكنه ما إن خرج للشـارع حتى أدرك حلول العِشاء. تناول الكشري تمهيدًا لتعاطي حبّة الترامادول، وبلَعَها مع شفشق كامل من الماء البارد.

أبلغـوه لدى وصوله الملهـى أن مدير الصالة ينتظـره في المكتب. شعر بخطر يتربّص به خلف الباب، وصدق حدسه هذه المرة، فلم يكن مديـر الصالة ينتظره وحيـدًا، بل بصحبة رهط مـن مُنتفخي العضلات طلبـوا إليـه أن يتركهم قليـلًا مع صديقهم زيـاد، وهذا ما فعلـه المدير دون إبطاء. أوصدوا الباب من الداخل، وأحاطوا به دون أن ينبس أحد بكلمة، سـدَّدوا قبضاتٍ ككرات من حديد صوب أكثر مواضع جسـده إيلامًـا، فتفجَّـرت ينابيـع دمـاء دقيقة تحسَّسـها زياد، وحمد في نفسـه مفعول حبّة الترامادول، التي لم تُفارقه في سـاعة العسـرة تلك. نزعوا بنطاله بعدما أجهَزوا عليه، وكذلك سـرواله الداخليّ، ثم شهروا نصلًا أمام عينيه سـرعان ما قرَّبوه من عضوه الأثير، فتملَّكتهُ رجفةٌ من شـدّة الرعـب. تركوه يخـور على الأرض ومضوا بالنصـل بعيدًا، ولكن قبل أن يتركوه لحاله أرغموه على توقيع خطاب شـكر لمشـعل، فقد اكتفى بحكم مُخفَّف هذه المرة.

ارتمى زياد في ركن مُتَّسـخ، وصار المديـر يدخل ويخرج دون أن يلتفت إليه كما لو كان لا يعلم بوجوده. مرّت ساعة قبل أن يُذعن لرغبة

قاهـرة فـي التدخين، وعندهـا تحامل علـى ضعفه ورفع ثقل جسـده، وسـوّى هيئته قدر ما اسـتطاع. لاقاهُ الكون بنسـمات لطيفة بالخارج، كأنه يواسيه، فجلس يُفرغ في جوفه نصف علبة سجائر مستوردة كانت كل ما تبقّى لديه. مع سـحقِه العقب الأخير تذكّر السائق. هاتفه. طلب إليه أن يُعجّل بالمجيء قدر الإمكان، وافترش مكانًا فوق الرصيف بين باعة الأمشاط والجوارب، مُستأنِسًا بحرارة المساومة.

وصل السـائق مع انتصاف الليل. هالَهُ منظـر زياد، إذ وجده مُدمَّمًا ومكدومًـا فـي كل بقعة من جسـده. سـانده بصعوبة لداخل السـيارة، وجـاب به الشـوارع الخاويـة ريثما يستفسـر عما أصابه. لـم يُحِر زياد جوابًا قاطعًا، بل سـاومه بحبة ترامادول كاملة لو لزِم الصمت. ضحك السـائق ضحكة قلِقـة، ووافق على مضض أن يصحبه للوكالة، بشـرط أن تكون آخر مغامرة. حين وصلا، كانت الورشـة قد احترقت بالفعل. هبط زياد من السيارة وراقب المشهد بنظرة مشدوهة. لمح يوسف بين السـاعين ذهابًا وإيابًا، يمارسون طقسًا عبثيًّا لمارد النار، وحين هبطت واجهـة الوكالـة وصار ما صـار من فزع وهرج، اسـتدار زياد يسـتطلع السـائق، فوجده قد عجّل بالفرار قبل لحظـات. في هذه اللحظة فقط، تنبّه زياد لوضعه العبثيّ.. تأمّل المشهد من منظور بعيد، فأدرك استحالة الهروب مـن مصيره. لم يكن ثمة مكان يلتجئ إليه. انزوى بدمائه عند ناصيـة الجمعية الشـرعية، حامـلًا على وجهه ابتسـامة شـاحبة تُضمِر تعليقًا سـاخرًا على مـا آل إليه، وأخذ يُتابع النيـران بينما تلتهم الفرصة الأخيرة بنهم لا يعرف الشبع.

قبـل قليل كانـت رحمة في طريقهـا إلى الوكالة. لـم يخطر لذهنها المجـيء قبـل أن يخـرج أبوهـا مـن الرعايـة المركّـزة. ولكـن، حيـن اسـتقر في غرفة مُنفـردة، فكّرت أن تحمل إليه ما تسـتطيع من ذكرياته الصغيـرة، التـي تمتلئ بهـا الوكالة. أكّـد طبيب التخاطب ما سـبق أن أشـار إليه يوسـف، من أهمية الاسـتعانة بأشـياء تحمل ذكرى خاصة، كـي تحفّـز لديه اسـتدعاء الكلمـات. كان أول مـا خطر لذهنهـا ألبوم الصور القديمة، وكذلك ريشـات الموصلـيّ وتدويناته المحفوظة في الصنـدوق الزجاجيّ. طلبت إلى السـائق اصطحابها فـي جولة لزيارة الأوليـاء الصالحيـن، فهـي أكثر مـا يجلب إليها السـكينة حيـن تتعقّد الأمور. بدأت بزيارة السـيدة عائشة، ومقام سيدي علي زين العابدين، ثم مضت صوب السيدة نفيسة قبيل الفجر بقليل، بحيث تختم الجولة بصلاة الفجر في مسـجد الحسـين، لتكون على مقربـة من الوكالة قبل الشـروق. وبالفعل، أوصلها سـائق أبيها قبيل شـروق شمس الجمعة، لتشـهد انهيارًا مُدوِّيًا لكل ما عاشـت من أجله، مرسـومًا بأقلام الفحم فوق وجهي يوسف وزياد.

تمت

❋❋❋

عزيزي القارئ..

أستميحكَ عذرًا في مُداخلة أخيرة، أُنقذكَ بها من عالم الرواية، التي ما عُدت أجد المبرّر لنشرها إلا التزامي التعاقديّ مع راويها المحترم؛ لذلك قرّرت، عند هذه النقطة بالتحديد، أن أمنحكَ خروجًا آمنًا وعقلانيًّا من عالمها، بعيدًا عن جنوح الراوي وميله لتركنا بنهاية مفتوحة وسمِجة، كعقاب لنا على استمرارنا في القراءة.

أولًا: سأبدأ بالتعليق على ما شهِدته بنفسي من أحداث النهاية؛ لقائي بيوسف. لم يكن يوسف غاضبًا لهذا الحد المبالغ فيه، كما جاء في وصف الراوي، الذي لا يتّفق بحال مع طبيعته الهادئة. كل ما هنالك أنه كان مُرتبِكًا، مُفاجَأً بما فعله زياد، والحق أني لم أجد منه ذلك الجفاء الذي حاول الراوي إقناعنا به، بل إنه التوتر والاهتزاز. كان يتلعثم أكثر من المعتاد، وكان يهرب ببصره بعيدًا عني لخوفه الدفين من تأثيري. تركته يذهب وأنا على ثقة تامة من عودته، ولو كنت أعلم ما ينتظره لمنعته من الذهاب إلى الوكالة دون شك.

ثانيًا: أسِفتُ كثيرًا لما وقع للورشة، فلم أحلم بتأسيس مشروعي فوق أنقاض وأشلاء، كما حزنتُ لنهاية الأسطى عبيد مهما بدا لي مهووسًا من قبل، مُستدعًى من عالم آخر ما عاد موجودًا. ولكن أرضاني أن يلقى حتفه في أقرب مكان لقلبه، وأظنه قد اختار هذه النهاية. كما أن إحراق الأجساد بعد الموت إجراءٌ مُتّبع في أغلب بلدان العالم، ولا أظنه كان ليرفضه لو أنه عُرِض عليه.

ثالثًا: ليس لديّ تعليق بخصوص زياد، وأعلِن أني لن أتّخذ إجراءً قانونيًا ضدّه لإساءته لسمعة الوكالة، فقد نال ما يكفيه. أما رحمة، فستبقى أختي غير الشقيقة كما وعدتُ يوسف، إضافةً لكونها الوجه الآخر لحقيقتي، الذي كان محتملًا أن يصير وجهي لو أنني انتميتُ لعالمها الخرافيّ. سأتركها لسذاجتها واهتماماتها البسيطة، كالتي تبدّت في جولتها الطقسيَّة حين زارت أضرحة تخصّ أشخاصًا من عائلة رسول الإسلام (عليّ أن أُشير هنا لدور الراوي المحترم، الذي قام بمحاولة مخلِصة لإفهامي هذا الطقس الغرائبيّ).

المهم، أني وجدتُ ثلاثتهم على حال تعيسة جدًّا حين اصطحبتُ هيلجا إلى هناك بعد الحريق بساعات. كنا عائدتَين لتوّنا من مطعم يُقدم إفطارًا مصريًّا شهيًّا لدرجة غير معقولة، وعدتُها أن آخذها إليه كل صباح، لو وافقت على مد إقامتها.. فوجئنا بمشهد الوكالة المحترقة، والواجهة المتصدعة، واضطررتُ بصفتي الممثل القانونيّ للوكالة أن أُجري مقابلاتٍ عديدة مع مُراسلي صحف محلية وأجنبية، وقنوات تلفزيونية هُرِعت لتغطية الحادث. كانت فرصةً لإرسال رسائل تطمينيّة لكافة الجهات، أخبرهم فيها بانتهاء عصر الرجعية وازدراء العقل عند هذا الحد، وأن مشروعًا حضاريًّا وتنمويًّا سيُقام في هذه البقعة الأثريّة الخالدة، ليُعيدها لإشعاعها الإنساني من جديد.

إلى هنا، عزيزي القارئ، أكون قد أوصلتكَ لنهاية «مغلقة» تطمئن إليها بشأن وكالة الموصليّ. ونظرًا لطبيعة الزمن التي لا تتوقف عند حد، فقد جرت أحداث لاحقة بالطبع، في إطار التجهيز لمستقبل جديد للمبنى الأثريّ، الذي صار يحمل اسم «شرق غرب» منذ إعلان المشروع، ولكنها حدثت تحت مُسمّاه الجديد؛ ولذلك لا إخالها تنتمي لمتن هذه الرواية.

تقبلوا تحياتي،

زينا.

الأعمال الكاملة